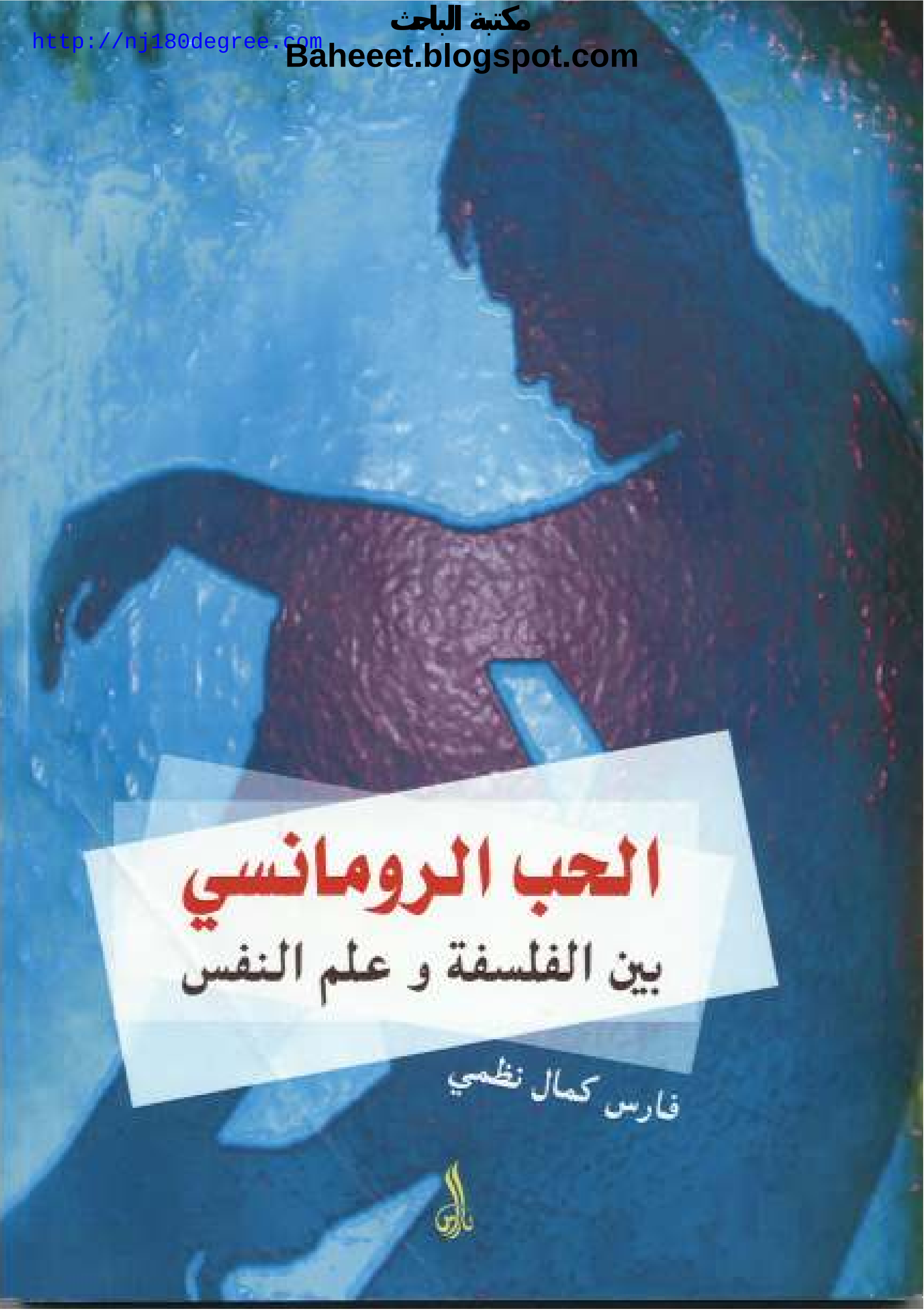


الحب الرومانسي
بين الفلسفة و علم النفس
فارس كمال نظمي

الحب الرومانسي

بين الفلسفة وعلم النفس

فارس كمال نظمي

دار ئاراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

صاحب الامتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران احمد حبيب

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر – شارع كولان–

اربيل –كردستان العراق

اسم الكتاب: الحب الرومانسي بين الفلسفة وعلم النفس

تأليف: فارس كمال نظمي

من منشورات ئاراس رقم ٥٨١

الاخراج الفني: آراس أكرم

الغلاف: حميد رضا آزمودة

التصحيح: أوميد البناء

الإشراف على الطبع: عبد الرحمن الحاج محمود

الطبعة الأولى، أربيل – ٢٠٠٧

رقم الإيداع في المكتبة العامة في أربيل: ٤٨٧/ ٢٠٠٧

الــى بـغـداد ... وذكريــات الحـــب :

كـلُّ ليـلٍ هــو الليــلُ كـلّــهْ
كما كلُّ حــبٍّ هو الحبُ كلّـهْ !

المحتويـات

تـــمـــهـــيـــد

لا نبالغ إذا قلنا أن تاريخ البشرية يعدّ من إحدى زوايا النظر إليه بانوراما للصراعات والحروب والعنف. وبالرغم من ذلك، لو أجرينا مسحاً أولياً لأنماط المفردات الرئيسة التي تكررت اكثر من غيرها عبر هذه العصور المضطربة لدى مختلف الأجناس في حياتهم اليومية وفي آثارهم المكتوبة، لوجدنا أن مفردة "الحب" تقف على رأس قائمة هذه المفردات إلى جانب مفردة "الحرب" في تزاوج دراماتيكي محير يبرهن على سمو الإنسان وحماقته في الوقت ذاته. ومن هنا تنبع أهمية موضوع "الحب" في إطارها العام، بوصفه ظاهرة مشتركة في كل العصور، وبين كل البشر : الأقوياء والمستضعفين، الأغنياء والفقراء، الأميين والعلماء، المحاربين والشعراء.

أما أهمية هذا الموضوع ضمن إطاري الخاص، فقد تكونت تدريجياً خلال تجاربي الشخصية، الوجداني منها والاجتماعي والفكري. لاحظت أن مفهوم "الحب بين الجنسين" في أذهان الغالبية العظمى من الناس الذين قابلتهم – ومن شرائح مختلفة – ومن خلال الصورة المقدمة عنه في مفردات الثقافة اليومية السائدة :"قصائد الغزل، والأغاني، والأفلام، والمسلسلات التلفزيونية"، يقترب من مفهوم "القدر الغيبي" الذي يحل دون استئذان أو مقدمات ودون تراكمات سببية تسبقه، وكأنه حدث سحري منفصل عن بقية حوادث ووقائع الحياة الاجتماعية، يمكن أن يطال أي إنسان في أية لحظة فيصيبه بالأرق والقلق والشرود والمشاعر الجياشة حد إفناء الذات في ذات

المحبوب. كما لاحظت أن هناك اعتقاداً سائداً متباين القوة لدى عموم الشبان والشابات في مجتمعنا بأنهم على موعد محتمل مع الحب مهماً تأخر حلولـه ومهما كانوا منشغلين عنه بمصاعب وأزمات الحياة اليوميـة، لأنـه قـدر غامض يتعرض له الإنسان فجأة فيصيبه كما يصيب الفيروس الجسد سـوى إن الحب في مفهومهم يصيب الروح أولاً ثم الجسد ثانياً.

وقد وجدت نفسي مشككاً بكل هذه التفسيرات التي يعزو إليها الناس – وحتى بعض المفكرين والكتّـاب- أصـل هـذه الظـاهرة المتأصـلة والمؤرّقـة والضرورية في حياتهم، بسبب منظورها الإجتزائي المحدود للحب، وكأنـه عاطفة إلهامية ميتافيزيقية لا تتصل بالشخصية الفردية والاجتماعية للإنسان المرتبطة بدورها بعدد غير محدود من العوامل الفزيولوجية والسوسيولوجية والمعرفية والحضارية، ضمن تيار الحركة الذي مجراه الزمن: الزمن الذاتي للفرد متفاعل مع الزمن المتراكم تأريخياً للظاهرة. ومن هنا انبثقـت فكـرة الدراسة التي يتضمنها هذا الكتاب، والتي خططت لها أن تعالج ظاهرة الحب الرومانسي معالجة علمية مجردة من تأثيرات المعتقدات الشعبية التقليديـة، ولتكون محاولة فكرية تساهم في إعادة ربط الإنسان الفرد بجسده، وبتأريخه النفسي ذاتياً واجتماعياً، وبالمناخ الحضاري المؤثر في نمو عواطفه، لنقترب قليلاً من فهم الكيفية التي بمقدور الجهاز العصبي البشري أن يكـون فيهـا رومانسياً باحثاً عن وحدته باندماجه مع كينونة فزيولوجية وعاطفية ومعرفية أخرى من خلال الحب. ولأن الأدب الأصيل هو المختبر اللغـوي للحيـاة النفسية للناس، ينحتون فيه نصوصاً تختزل نشاطهم الاجتماعي والمعرفـي والعاطفي في حقبة معينة، فلم تخلُ هذه المعالجة العلمية للحب من الاستعانة

بالنصوص الأدبية العالمية ذات المضامين النفسية الدقيقة الكاشفة عن عناصر الحب وآلياته أينما اقتضت الضرورة الفكرية أو سياق التأليف.

إن تأليف كتاب علمي عن الحب يعني قدراً كبيراً من المتعة والحيرة والدهشة، ويعني أيضاً معايشة صبورة لألم هاديء لا يعرفه إلا المؤلف، لان الأمر ينطوي على تفكيك قيمة جمالية دافئة ذات مضمون عفوي مطلق في أذهان الناس منذ القدم، وردّها إلى عناصرها البنائية الباردة. وبالرغم من هذا الألم، شعرت بعد انتهائي من آخر صفحات هذا الكتاب بأن رومانسيةً من نوع جديد صارت تلوّن رؤيتي للحب، تلك هي رومانسية العزاء الخفي الكامن وراء كل معرفة؛ بل انتهيت إلى اقتناع هاديء، بأن المعرفة لا تفسد العاطفة، إنما تنضجها في الخفاء وإن بدا الأمر مختلفاً في الظاهر، لأن اتساع الأفق الذهني وفهم الجسد والنفس والإدراك الصائب لحركة العالم تعني اقتراباً عاقلاً من ضرورة الحب بوصفه عزاءً واعياً وسلوكاً مطلوباً له ما يبرره واقعياً لمقاومة الألم الفردي والاجتماعي، ولتكريس اللذة الجسدية والعقلية في حياة الإنسان، لا بوصفه تعلقاً مرضياً أساسه الممارسة الجاهلة لآليات النفس.

فإذا اتفق القارئ الكريم معي، وتوصل بعد قراءته للكتاب إلى اقتناع مشابه لما توصلت إليه، فتلك غايتي المثلى. وإذا اختلفنا، فأن مجرد تحقيق هذا الحوار العلمي بين العقول، يكفي أن يكون وحده دافعاً لمحاولتي.

فارس كمال نظمي

الفصـــل الاول

مقدمة في مفهوم الحب

مفهوم الحب

الحب موضوع شائع وقديم قدم دراسة الانسان نفسه. واذا كانت الطبيعة البشرية قد دُرست وحللتْ بتفصيل كبير،فإن الحب ظل بعيداً عن هذه الدراسة المكثفة.فالحب استثار الشعر والموسيقى اكثر من استثارته للبحث العلمي. فكانت النتيجة اننا اصبحنا نمتلك ثروة كبيرة من الاشعار والموسيقى الجميلة عن الحب ولكن دون فهم كبير له **(Fromme,1960, p.3)**.

إن الحب يزود الفرد بطاقة عالية في وجوده المستقل، ويربطه بتيار من العلاقات الانفعالية مع شخص آخر، ويحقق صيغةً من الوجود يريدها ، أو قد يرغب في الاحتفاظ بها **(Benda, 1961, p.5)**.

وينظر الى القدرة على الحب **ability to love** على إنها واحدة من المؤشرات المهمة على حسن التوافق النفسي للفرد **(Fromme,1960, p.5)** . فهو مهم للاطفال لضمان سلامة شخصياتهم، وللشيوخ لكي يغدو لكل شروق معنى . وقد اشار " فرويد" مرة الى ان الحب والعمل هما العلامتان الاساسيتان للنضج والشخصية السليمة. ومع ذلك فإن الحب من اكثر الفعاليات البشرية غموضاً. ولعل الأهم من ذلك القيمة العظيمة التي تسبغها على الحب جميع الاجيال في كل الثقافات. وهو كالمال يمكن ان يتعرض للتزييف، وامتلاكه لايجعل الناس سعداء بالضرورة (جورارد و لندزمن ، ١٩٨٨، ص ٣٣٩).

إن طبيعة الانسان تكشف عن نفسها في "الحب البشري" **Human Love** أكثر من أي اتصال آخر مع العالم. والوقوع في الحب هو خبرة تجعل الانسان

مفرط الطاقة، وموجهاً بقوة جديدة نحو شخص آخر يجذبه، فينسحب اليه برابطة جديدة ومتفردة (Benda,1961,pp.2,4). يكتب "جون وود" John wood: ((الحب يمنحني الطاقة. إنه يشبه شمساً في داخلي؛ فامتلك قوة واشعاعاً لم تكونا موجودتين من قبل. ربما إنه أمر لا يحدث كثيراً أن شخصاً يمنحني الطاقة ليساعدني على التدفق داخل نفسي، ويعمل محفزاً لقوتي، وعاكساً لطاقتي. يساعدني الحب أن أكون مبدعاً، ومتفتحاً، ومتشاركاً، ومانحاً ما في داخل نفسي، وناظراً الى العالم بعيون جديدة، وواضعاً نفسي في الاشياء)) (Wood,1974,p.14).

إن معايشة الحب هي حالات من الانفعالات والاتجاهات التي تختلف مع كل مرحلة من مراحل الحياة ، ومع كل خطوة في عملية نضج الذات. ولذلك ليس هناك حب واحد، بل كمية غير محددة من الاستجابات البشرية لخبرات معايشة الحب (Benda,1961,p.5). فعندما نقول ان شخصاً ما يحب كرة القدم أو يحب مشاهدة التلفاز أو يحب جمع الكتب الأدبية أو يحب زوجته، فإننا نضمّن شيئاً آخر في كل انواع الحب هذه. فبالرغم من الاختلافات فيما بينها، فان لها تشابهاتها ايضاً. وعندما نستخدم كلمة "حب" love لكل هذه العلاقات، فاننا نقر بأن لها عنصراً مشتركاً. ويسمى هذا العنصر بـ "التعلق" Attachment ، وهي كلمة محايدة من الناحية العاطفية. فعندما يتعلق شيئان ببعضهما، فانهما يقتربان من بعضهما ويرتبطان بصيغة معينة، سواء كان هذان الشيئان قطعتين خشبيتين مربوطتين ببعضهما بمسامير وبراغي، أو كانا فردين من الناس يرتبطان باهتمامات مشتركة، أو فرد له اهتمام أو رغبة للارتباط بنشاط معين. وهذا الاهتمام او الرغبة التي لدى الشخص قد تكون هي القوة التي تشكل رابطة التعلق. ولكن التعلق لايبدأ

بالضرورة باهتمام او رغبة بموضوع معين. فقد يبدأ رجل بلعب كرة القدم ليصبح اجتماعياً ويقوي روابط عمله، وليس لأنه يهتم بهذه اللعبة حقاً. وفي المقابل، اذا كان يلعب لتنمية مهاراته او يشعر بالتحدي، فمن المحتمل ان تعلقه باللعبة سوف يزداد **(Fromme, 1960,p.7)**.

إن كل حب يؤدي الى حب آخر، وتعلقاتنا تميل الى ان تكون هرمية. فحب الرجل لنفسه قد يقوده الى التعلق بالمكانة التي يحصل عليها وسط جماعة معينة، ومن ثم يتعلق بهذه الجماعة، فيظهر عاطفة واخلاصاً غير عقلانيين تجاهها. والمرأة المولعة بنفسها قد تتولد لديها اهتمامات بالمجوهرات والملابس، واذا ما امتلكت الاستعداد وتهيأت لها الفرص فقد تحترف تصميم الازياء. اذن، حالما نقرر النظر الى الحب بوصفه "تعلقاً" يتأثر بتعلقات سابقة أو أخرى، فستكون لدينا فرضية تساعدنا على فهم ما نشعر به ومانقوم به عندما نحب. فانواع الناس الذين نختارهم وانواع الاشياء التي نفعلها مع هؤلاء الناس، وانواع المشاعر التي تجتاحنا، تميل كلها الى ان تنبع من تعلقاتنا السابقة. ولا يعني هذا عدم وجود فروق بين تجربة واخرى، بل بالأحرى هناك تشابهات كافية لاقتراح انماط من السلوك تتيح امكانية معقولة للتنبؤ بما سنقوم به. فهناك تعلقات تنمو من الرغبة والاختيار، وهناك تعلقات تنمو من الحاجة والخبرة. فالاولى لها خاصية واعية وعقلانية، والثانية لها خاصية حيوانية وغير مقصودة. فنحن لسنا السادة المطلقين لاختياراتنا. فاجسامنا تسجننا، والحياة نفسها تشدنا دون ان يمكن مقاومتها نحو جهاتها الخاصة. وعندما تنمو التعلقات، فاننا نواصلها لأننا فقط سبق ان ارتبطنا بها. ونصبح عندئذٍ متعلقين بفكرة، أو بموضوع، أو بمِلكية، أو بخيال، أو بمثال، أو بأي شيء كان. وبالطبع هناك مشاعر

ترتبط بتعلقاتنا، ولكن من غير الصحيح تعريفها بأنها مشاعر طيبة على الدوام. فالحب بالتأكيد يمكن أن يكون رومانسياً ونبيلاً، ولكنه في الغالب يكون نرجسياً وانانياً، وفي مرات أخرى يظهر بشكل شعور متقطع. وبعض أنواع الحب تجعلنا سعداء ونشعر بالامتلاء، والبعض الآخر تجعلنا نعاني باستمرار ونمتليء بالألم. وهكذا من الواضح إن المشاعر التي ترتبط بالحب غير موثوق بها، ذلك إنها تتغاير بقدر الطرائق التي نعبر بها عن الحب (**Fromme,1960, p.44,20,19**).

إن خبرات الحب لها أنواع كثيرة. فحب الوالدين لأطفالهما، وحب الاشقاء، وحب الشقيقات، وحب الاصدقاء، وحب البشرية، وحب الله، كلها انواع متنوعة من "الرابطية" Relatedness . ويفترض الحب مواقف العناية Care والمسؤولية Responsibility والفهم المتبادل، والتي تعد جميعاً أنماطاً سلوكية بشرية، لا توجد حقيقة الحب بدونها. ويختلف الحب في كل موسم من مواسم الحياة. ولايمكن لتعبيره أن يظل متشابهاً، فكل خطوة الى الامام في النضج تغير من الشخصية، وكل عام يضيف طابعاً جديداً الى الشجرة (**Benda,1961,p.14**).

تتعايش أنواع كثيرة من الحب فيما بينها، ويغذي بعضها بعضاً، ويصارع بعضها بعضاً. ويعتمد مستقبل أي حب على مكانه في النمط المعقد لكل أنواع الحب الأخرى. والطريقة الفضلى لفهم أي تعلق أو حب خصوصي هي دراسة نوع تعلقاته (أو اشكال الحب) السابقة. ويتم ذلك من خلال دراسة الناس الذين يحبون وكيف يحبون. إن خبراتنا جميعاً لها أثر فينا، فنحن لانستطيع ان نعزل أي مجموعة من خبراتنا ودراستها حصراً. فالحب

موجود فقط في سياق خبرتنا الكلية. وكلما ازداد فهمنـــا للطبيعـــة البـــشرية ازدادت قدرتنا على فهم الحب (Fromme ,1960,pp.21, 9,10).

وفيما يأتي عدد من التعريفات التي تناولـــت الحـــب بمعنـــاه العـــام غيـــر المتخصص بموضوع محدد:

- "سقراط " Socrates (٤٧٠-٣٩٩) ق.م :

((إن الحب جني عظيم أو روح كبير يحتل منزلة وسطى بين الالهة والبشر. وهو ليس خالداً ولا فانياً، وهو ليس حكيماً وليس جاهلاً، وهو لـــيس خيـــراً وليس شريراً، وهو ليس قبيحاً أو جميلاً، وانما هو مرتبة وسطى بين الخلود والفناء ، بين الحكمة والجهل، بين الخير والشر، بـــين الجمـــال والقـــبح)) (ابراهيم،١٩٨٤، ص ١٤٥).

- " كارين هورناي " Karen Horney ١٩٣٦:

الحب هو ((القدرة على أن تعطي من نفسك تلقائياً للناس أو لحالة أو لفكـــرة بدلاً من الحصول على كل شيء لنفسك بطريقـــة انانيـــة)) (صـــالح (ب)، ١٩٨٨، ص ٢٣٠).

- "اريك فروم" Erick Fromm ١٩٥٦ :

((ليس الحب أساساً علاقة بشخص معين. إن الحب موقف، اتجاه للشخصية يحدد علاقة شخص بالعالم ككل، لا نحو " موضوع " واحد للحب. فاذا أحبّ شخصٌ شخصاً آخر وحده وكان غير مكترث ببقية رفاقه فإن حبه ليس حباً بل هو تعلق تكافلي او أنانية متسعة)) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص ٤٧).

- "آلان فروم" Allan Fromme ١٩٧٠ :

الحب هو ((ذلك التعلق، سواء بالأشياء أو بالناس، وسواء كان ساراً أو غير سار ، جديداً أو قديماً ، شعورياً او لاشعوري)) (**Fromm ,1960, p.20**).

- "زك روبن" Zick Rubin ١٩٧٠ :

الحب ((اتجاه Attitude يحمله الشخص نحو شخص آخر محدد، ويتضمن استعدادات مسبقة في التفكير والشعور والسلوك بطرائق معينة نحو ذلك الشخص)) (**Rubin, 1970, p.265**).

- "هاري هارلو " Harry Harlow ١٩٧١ :

الحب ((مشاعر عاطفية نحو الاخرين)) (Harlow, 1971, p. 42).

- "جورارد" و " لندزمن" Jourard & Landsman:

الحب هو :

أولاً: شعور وسلوك نحو كائن غالباً مايكون انساناً، ويمكن أن يكون شيئاً أو فكرة (كما في حب شخصٍ لوطنه)، ويكون التعلق شديداً او مشحوناً بعاطفة طاغية.

ثانياً: يتضمن رغبة عارمة وافعالاً تستهدف سعادة الكائن ومستوى راق من مستويات الوجود. ويضع المحب قيمة على ما يحب، تساوي القيمة التي يضعها على وجوده هو .

ثالثاً: يتضمن رغبة المرء وقصده في أن يكون موجوداً وجوداً صحيحاً مع ذلك الكائن في جميع الظروف تقريباً.

رابعاً: عندما يتحقق الحب تحققاً كاملاً، فأن المحبوب يبادل المحب السلوك والمشاعر نفسها.

(جورارد ولندزمن، ١٩٨٨، ص٣٤٠، ٣٤١)

- "ثيودور كمبر" Theodore D. Kemper ١٩٧٨:

الحب هو ((تلك العلاقة التي يمنح فيها احد الطرفين (أو يكون مستعداً لأن يمنح) مكانة كبيرة جداً الى الطرف الآخر)) **(Kemper, 1978, p.285)**.

- "هنري جلتمان" H. Gleitman ١٩٩٥ :

الحب هو ((ميل الكائن للاندماج بالاخرين من نفس نوعه)) **(Gleitman, 1995, p.390)**.

◈ ◈ ◈

يتضح إذن أن مفهوم الحب له أبعاد فلسفية ونفسية وبايولوجية واجتماعية ودينية وحضارية . وهو متعدد الأنواع والأصناف: حب الذات، وحب الوالدين، والحب الأخوي، والحب الرومانسي، وحب الوطن، وحب البشرية، وحب الله، وغيرها. الا أن موضوع هذه الدراسة هو " الحب الرومانسي" تحديداً، وهو مصطلح يثير اللبس لمضامينه اللغوية والتأريخية والعاطفية المتداخلة.

فلو تناولناه من زاوية مدلوله الأشتقاقي نجد أن الكلمة الفرنسية Romantisme والأنكليزية Romanticism والألمانية Romantik والأسبانية والأيطالية Romanticismo ترجع كلها في الأصل الى كلمة Roman، وهي كلمة فرنسية قديمة كانت تدل في العصور الوسطى على نوع من قصص المغامرات شعراً أو نثراً؛ ثم انتقلت إلى الأنكليزية في شكل Romaunt، ثم أصبحت Romantic وهي صفة تدل على ما ينسب إلى قصص المغامرات، أو ما يثير في النفس من خصائص تلك القصص؛ فكانت تدل على الأنسان الحالم ذى المزاج الشعري، المنطوي على نفسه، ثم امتد معناها الى ما يشمل شبوب العاطفة والأستسلام للمشاعر والأضطراب النفسي والفردية والذاتية (هلال، ١٩٨٦ ، ص٥،٦).

وتميزت قصص المغامرات تلك بوصفها للأعمال البطولية المدهشة للفرسان ذوى الدروع الذين كانوا يحاربون التنانين والوحوش ويتعهدون بأداء المهمات الخطيرة للفوز بحب امرأةٍ ما؛ وإن بعضاً من معناها الأصلي هذا ما يزال ملازماً للكيفية التي يستخدم فيها في الوقت الحاضر، ذلك أن مفردة "رومانسي" غالباً ما توحي اليوم ببعض من خصائص المغامرة الخيالية التي كانت ترد في الرومانسية القروسطية **(Gleitmam,1995,p.41)**.

ومن الناحية التأريخية، فمنذ العام ١٧٦٠ م، كان كثير من مؤرخي الأدب يذكرون مصطلح "الرومانسي Romantic مقابل مصطلح "الكلاسيكي" ؛ ثم انتقل بنفس معناه الى ايطاليا حوالي العام ١٨١٥ ثم الى اسبانيا (هلال، ١٩٨٦ ، ص ٥،٦). فكان بذلك عنواناً لعصر أدبي كامل نهض على أكتاف البرجوازية الأوربية الصناعية الصاعدة آنذاك، امتد من أواسط القرن الثامن العاشر وحتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر، هو " العصر الرومانسي The Age of Romanticism (أنظر الفصل الثاني – العصر الرومانسي).

وينسب إلى الفيلسوف والأديب الألماني "فردريك شليجل" Freidrich Schlegel (١٧٧٢-١٨٢٩)م أنه أول من استخدم مصطلح "رومانسي" Romantic بمعناه الأدبي الدقيق المقابل لمصطلح "كلاسيكي" Classic في أواخر القرن الثامن عشر؛ ثم قامت "مدام دي ستال" Mme. De Stael ١٨٠٠م بعد زيارتها لألمانيا مرتين بإشاعة هذا المصطلح في اللغة الفرنسية، وأخذت تتحدث بوضوح عن "شعر كلاسيكي" Classic Poetry و "شعر رومانسي" Romantic Poetry **(Shipley,1955,pp.351 – 352)**.

وهكذا صار من الضروري التمييز بين مـصطلح "رومانـسي" Romantic حين يأتي بمعنى الشخص المغامر أو العاطفي أو الكثير الأوهام (وهذا هـو المعنى الأصلي له عندما أشتق في العصور الوسطى من اللغة الفرنسية كما أوضحنا قبل قليل)، وبين استخدامه لاحقاً كمصطلح أدبي أطلق على الحركة الأدبية المتعددة الجوانب والمـسماة "الرومانـسية" Romanticism،وعلـى رموزها آنذاك. ويلاحظ أن مصطلح "رومانسي" ظل ينطبق علـى جميـع المعاني الضمنية الواسعة لتلك الحركة الأدبيـة، وعلـى روادهـا الأوائـل وأجيالها اللاحقة في ميادين الفنون والسياسة والـدين والأخـلاق والفلـسفة والتاريخ والأمم والطبيعة البشرية **(Shipley,1955,p. 352).**

إن ما يهمنا في هذه الدراسة هو المضمون النفسي العاطفي لمصطلح " الحب الرومانسي " بين الجنسين، بصرف النظر عن دلالته الاشتقاقية والتأريخية. وقد اتخذنا من منهج البحث التأريخي وسيلة لتحقيق أهداف الدراسة.

أهداف الدراسة

الأهداف العامة

سعت هذه الدراسة في الفصل الثاني الى عرض مسميات وتعريفات وخصائص الحب الأنثوي – الذكري كما رآها وحلّلها بعض الفلاسفة في أوربا ابتداءً بعصر الأغريق ومروراً بالعصور الوسطى وعصر النهضة والعصر الرومانسي، وصولاً الى الماركسية والوجودية في القرنين التاسع عشر والعشرين. ثم توسعت في الفصل الثالث بعرض تنظيرات علماء النفس في القرن العشرين عن الأسس النفسية للحب ابتداءً بـ "سيجموند فرويد" ومروراً بـ "اريك فروم" ومجموعة من العلماء المحدثين المنتمين لمدارس مختلفة، وانتهاءً بأحدث الدراسات النظرية والميدانية التي بحثت هذه الظاهرة في مجال علم النفس الأجتماعي في الجامعات الغربية.

وقد تضمن هذا العرض في هذين الفصلين تحليل ومناقشة المفاهيم الفلسفية والنفسية الواردة فيهما، وطرح التساؤلات بشأنها، واجراء بعض المقارنات الموجزة، وتوجيه الانتقادات المدعمة بالبراهين، والاستعانة ببعض الاقتباسات الشعرية والنثرية والقصصية ذات المضمون الداعم للتنظيرات الفلسفية والنفسية، ما دام الأدب هو المختبر التأريخي لعناصر الحياة العقلية للأنسان .

إن المضمون النفسي للحب، لا بدّ أن يرتبط جدلياً بالمحددات السوسيولوجية* لنمط الحضارة التي يقع فيها أى حب، بل أن أى بحث شامل حول أية ظاهرة نفسية بشرية لا بدّ أن يبحث في الشروط البيئية

المحيطة بها زماناً ومكاناً؛ الاّ أنه لم يكن من بين أهداف هذه الدراسة البحث عن الجذور الاجتماعية والتأريخية لعلاقة الحب بين المرأة والرجل، وعـن الكيفية التي يرتبط بها مضمون الحب بخصائص الحضارة التي ينتمي اليها، أو كيف تطور مفهوم الحب خلال التأريخ بموازاة الأنماط العقلية والنفـسية الأخرى للأنسان، فتلك مهمة أوسع يمكن أن تضطلع بها دراسات وبحـوث أخرى لاحقة تتصدى لهذه الظاهرة الفريدة من زواياها الأخرى الكثيرة.

تتشابه الدراسات الرائدة حول أي ظاهرة نفسية في أنها لا بدّ أن تبـدأ أولاً بتحديد تعريف ابتدائي لتلك الظاهرة وفق منظور فكري محدد. ثـم يجـرى تفكيك الظاهرة الى عناصر وعلاقاتٍ دينامية وظيفية، تكون قابلـة للقيـاس باستخدام أداة عملية علمية منهجية محددة كالملاحظة أو المقابلة أو الاستبيان أو الأختبار ضمن استراتيجية منهجية متكاملة. وهذا هـو المـستوى الأول الضروري من مستويات البحث العلمي النفـسي، الـذي لا بـدّ أن تعقبـه مستويات أخرى لإغنائه تدريجياً، تصحيحاً وحذفاً واضافةً وتطويراً، حتـى يستقر مفهوم تلك الظاهرة نسبياً من الناحية العلمية على عدة محاور فكريـة أساسية تكون منطلقاً لبحث علاقة تلـك الظـاهرة بـالظواهر الأقتـصادية والأجتماعية والثقافية والفزيولوجية الأخرى الملازمـة لهـا. ولأن البحـث العلمي النفسي في الحب الرومانسي ما يزال حديث العهد، بل أنه من أحدث الظواهر النفسية التي دخلت الى المختبر، و لاتوجد بعد محددات مستقرة له يمكن الاعتماد عليها في التفسير والتنبؤ والتحكم والقياس نظراً لتنوع وتعقـد وغموض وعدم استقرار هذه الظاهرة في أى مجتمع بشري بل في أي نفس بشرية، فقد وجدت هذه الدراسة نفسها مقيدة سلفاً بحدود ضيقة مـن حريـة الحركة، فاكتفت بتحقيق أهدافها المحدودة.

الهدف الخاص

نفترض بدءاً أن كل أنواع الحب بين المــرأة والرجــل التـــي تــم استعراض مفاهيمها ومسمياتها في هذه الدراسة، هي تنويعات اصـــطلاحية وتأريخية وفلسفية على مضمون نفسي واحد هــو " الحـــب الرومانـــسي" ، والذى سنتعرف على خصائصه وعناصره ومحدداته في الفــصلين الثـــاني والثالث. وللتحقق من صحة هذه الفرضية، سنطرح مشكلة هــذه الدراســة بصيغة السؤال الآتي، ساعين الى التوصل الى اجابة محددةٍ عنه في الفصل الرابع محققين بذلك الهدف الخاص :

((هل يصح استخدام مصطلح " الحب الرومانسي" بوصفه مصطلحاً نفسياً (وليس لغوياً أو تأريخياً) شاملاً وعنواناً مشتركاً لكل مسميات الحب الأنثوي – الذكري المتحققة فعلاً، والتي تصدّت لها هذه الدراســـة فلـــسفياً ونفسياً منذ عصر الأغريق وحتى الوقت الحاضر في البلدان الغربيـــة؟ أي هل ظلت الخصائص النفسية الداخلية للحب الانثوي – الذكري خـــصائص رومانسية ثابتة نسبياً منذ عصر الأغريق، مع تبدل مستمر فـــي شـــروطه الـــسوسيولوجية الخارجيـــة بفعـــل التحـــولات الاجتماعيـــة الحـــضارية المتلاحقة؟)) .

حدود الدراسة

نظراً لأن علم النفس الحديث والمعاصـــر بتنظيراتـــه ومناهجـــه البحثيـــة وإجراءاته هو علم غربي المنشأ، يعود في جذوره التأسيسية إلـــى الفلـــسفة الغربية إبتداءً من "أرسطو" ومروراً بالمدرستين "العقليـــة" Rationalism و "التجريبية" Empiricism في المعرفة خلال القرن السابع عشر المـــيلادي ومابعده، وصولاً إلى المذاهب الهيغلية والوضعية والماركسية والداروينيـــة خلال القرن التاسع عشر، ولأن المرتكز النظري الأساسي في هذه الدراسة

– تحليلاً واستنتاجاً وتفسيراً – هو بعض الحقائق والمنظورات العلمية المعاصرة التي جاءت بها مدارس علم النفس الغربية، فقد كان من المنطقي أن تقتصر حدود الدراسة على المنظورات الفكرية الغربية (الفلسفية والعلمية) لظاهرة الحب الأنثوي – الذكري حصراً، لكي يظل التتابع الفكري متسلسلاً ومنسقاً تاريخياً ضمن خط التطور العقلي الذي مر به الفكر الغربي ابتداءً من مدارس الإغريق الفلسفية وانتهاءً بمدارس علم النفس المعاصرة. ولذلك لم يتم التطرق إلى مفهوم الحب بين الجنسين داخل حدود الفكر الشرقي القديم والحديث، بالرغم من الأهمية والغنى اللذين ينطوي عليهما هذا المبحث، لأن حدود وأهداف ومنهجية دراستنا هذه لا تسمح بالتوسع خارج حدود الفكر الغربي، وإلا أصبحنا في دائرة أوسع لم نخطط لها أصلاً. فلم نشأ أن نطبّق حقائق وتنظيرات نفسية نابعة من صميم الفكر الغربي ومدارسه الفلسفية والنفسية على مجتمعات شرقية أو إسلامية لها ظروفها النفسية والسوسيولوجية والحضارية الخاصة، في بحث ظاهرة نفسية اجتماعية حساسة لها مضامينها القيمية والدينية كظاهرة الحب الأنثوي – الذكري، دون التأكد العلمي من صواب هذا التطبيق (أي تطبيق هذا التنظير النفسي الغربي على الشخصية الشرقية)، مادمنا لم نمتلك بعد في مجتمعاتنا علماً نفسياً متكاملاً بكل مواصفاته الاصطلاحية والمنهجية ذا قاعدة أكاديمية واجتماعية واسعة. فكلما تعقدت الظاهرة الاجتماعية المدروسة كلما وجد الباحث العلمي نفسه متريثاً في تبني تنظيرات أُبدعت خارج حدود مجتمعه، ودون أن يلغي من حسابه احتمال انطباق ذلك التنظير بهذه الدرجة أو تلك داخل حدود مجتمعه. ويتطلب التأكد من احتمال الانطباق هذا في مجال دراسة الحب في مجتمعاتنا إجراء دراسات ميدانية

وتجريبية أكثر شمولاً في ميدان علم النفس، وبالتنسيق مع ميادين مجـــاورة أيضاً كعلم الاجتماع والتاريخ والأنثربولوجيا، والتقـــويم النفـــسي العلمـــي للنصوص الأدبية والأعمال الفنية؛ وتلك مهمة قد تضطلع بها مؤسسة علمية كاملة، وبالتالي فأن متطلبات تحقيقها تتجاوز إمكانات هذه الدراسة.

لكن ذلك لا يعني أن ما تم التوصل إليه من استنتاجات في الفصل الأخيـــر من هذا الكتاب، ينطبق حصراً على الإنسان الغربي دون غيره؛ فالكثير من القوانين والحقائق النفسية العلمية الخاصة بالـــسلوك المعرفـــي والانفعـــالي للإنسان أصبحت شاملة لكل الناس بمختلف أجناسهم وأديانهم وحـــضاراتهم؛ غير أن هذه القوانين لا تعمل بالكيفية ذاتها في كل زمان ومكـــان بـــسبب الشروط الاقتصادية والاجتماعية المتباينة المحيطة بعمل تلك القوانين. فـــإذا افترضنا مثلاً أن "اللاشعور" هو إحدى مكونات العقل المشتركة بـــين كـــل البشر، فأن ذلك لا يعني أن المضامين النفسية اللاشـــعورية للإنـــسان فـــي مجتمع محافظ هي ذاتها في مجتمع متحرر. وهذا هو جدل التفاعـــل بـــين الثبات النسبي لآلية (ميكانزم) عمل المفهوم وبـــين التغيـــر المـــستمر فـــي مضمونه الوظيفي. فكل ظاهرة (نفسية مثلاً) تبقى محافظة على اســـتقلالها وانضباطها الذاتي داخل بنيتها، أي أنها لا تتجاوز قوانينها البنائية بـــالرغم من دخولها في ذات الوقت في علاقات تفاعلية تكوينية مركبة مع ظـــواهر أخرى (فيزيائية أو فزيولوجية أو سوسيولوجية أو اقتصادية) مولدةً ظـــاهرة أكبر ذات مضمون كلي مختلف عن مضامين أجزائها قبل دخولها التفاعل. ويتنوع هذا المضمون من حالة إلى أخرى تبعاً لتنوع أنماط تلك العلاقـــات التفاعلية مكانياً وزمانياً.

وينطبق هذا كله على مشكلة الحب. فالحقائق القوية التي توصل إليها علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الشخصية اليوم في الجامعات والمؤسسات الغربية (والتي تم استعراض ومناقشة أجزاء مهمة منها في الفصل الثالث) بشأن الأسس البيولوجية والفزيولوجية والنفسية والاجتماعية للحب، يمكن أن تعد – ابتدائياً وليس نهائياً – مصدراً علمياً مقبولاً لإجراء الدراسات في البلدان الأقل تطوراً، على أن يجري اختبارها وتعديلها وإغناؤها في حياة كل مجتمع مع مراعاة كل الشروط الاقتصادية والسوسيولوجية والحضارية المرافقة لعلاقة الحب؛ إذ تبقى الحقيقة العلمية الاجتماعية أقل ثباتاً من الحقيقة العلمية الطبيعية، مادامت الظاهرة الاجتماعية أقل استقراراً واكثر تقلباً من الظاهرة الطبيعية.

لذلك نأمل إجراء دراسات أخرى أو من خلال باحثين آخرين للتصدي لسايكولوجية الحب الأنثوي – الذكري في المجتمعات الشرقية قديماً وحديثاً، بالاستناد إلى المكتشفات الحديثة لعلم النفس، وصولاً إلى استنتاجات تقويمية بشأن انطباق هذه المكتشفات على مجتمعاتنا، وبشأن مفهوم هذا الحب ونمطه، وهل يختلف بعناصره النفسية المكونة لمضمونه أو بالعوامل المؤثرة في درجته، عن الحب الرومانسي في الشخصية الغربية ؟!

هامش:

* تقتضي الدقة في استخدام المصطلحات العلمية أن نوضح الفرق بين مصطلحي "السوسيولوجية" Sociological و"الاجتماعية" Social، كي يتسنى للقارئ الانتباه والتمييز بينهما في الصفحات القادمة من هذا الكتاب.

"سوسيولوجي" Sociology أو "علم الاجتماع" هو ((دراسة وصفية تفسيرية مقارنة للمجتمعات الإنسانية كما تبدو في الزمان والمكان، للتوصل إلى قوانين التطور التي تخضع لها هذه المجتمعات في تقدمها وتغيرها. كما يقوم علم الاجتماع على الدراسة

الموضوعية للظواهر الاجتماعية وتحليلها تحليلاً علمياً صحيحاً)) (بـدوي، ١٩٨٢، ص ٤٠٢). ومن أهم هذه الظواهر والمشكلات الاجتماعية التي يبحثها علم الاجتماع (تحلـيلاً وتفسيراً وتنبؤاً): الحروب، والثورات، والصراع الطبقي والقـومي والـديني والعرقـي، والحراك الاجتماعي، وأنماط العلاقات والعادات والقيم الاجتماعية، والفقـر، والجريمـة، والهجرة، والبطالة، والتعصب، والتي تعد جميعاً متغيرات "سوسيولوجية" لأنها تقع ضمن دائرة اهتمام علم الاجتماع وتخضع لمنهجيته في البحث الأكاديمي؛ وهو تحديد اصطلاحي لا يتناقض مع كونها متغيرات "اجتماعية" في الوقت ذاته.

أما مصطلح "الاجتماعية" أو "الاجتماعي" Social فيعني ((كـل مـا يتعلـق بالعلاقـات المتبادلة بين الأفراد والجماعات. ويوجد العامل الاجتمـاعي Social Factor إذا تـأثر السلوك حتى لو كان متعلقاً بفرد واحد بشخص آخر أو بجماعة سواء كان هذا الشخص أو هـؤلاء الأشـخاص موجـودين مـن الناحيـة الماديـة أو غيـر موجـودين.)) (بدوي، ١٩٨٢،ص ٣٧٩، ٣٨٠)

نستنتج إذن أن مصطلح "السوسيولوجية" يتخذ معنـى أكثـر تخصـصاً وتحديـداً مـن "الاجتماعية" بسبب تعلقه حصراً بالميدان البحثي لعلم الاجتماع، فيما يتـضمن مـصطلح "الاجتماعية" بشموليته كل المتغيرات الناتجة عن النشاط الجماعي للبشر (فـي الاقتـصاد والسياسة والتاريخ والأنثربولوجيا والنفس والاجتماع) دون ارتباط أكاديمي بعلم بحد ذاته، فنراه يستخدم في كل الأدبيات العلمية والأدبية وأينما إقتضت الـضرورة للدلالـة علـى المفاهيم الفكرية والسلوكية الناتجة عن تجمع الأفراد ودخولهم في علاقات إتـصال مـع بعضهم ومع الطبيعة في آنٍ واحد.

فإذا ما قلنا "محددات سوسيولوجية" نعني تلك العوامل الاجتماعيـة التـي يبحثهـا علـم الاجتماع حصراً. وإذا قلنا "محددات اجتماعية"، فسنكون في دائرة أوسع تضم كل العوامل الاجتماعية المؤثرة في الظاهرة المدروسة، سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو ثقافيـة أو تاريخية أو انثربولوجية أو نفسية أو سوسيولوجية.

الفصل الثانـــي

الحـب الأنثـوي – الذكـري والفلسفـة

الإغريق والحب

الحب ولادة في الجميل بدناً وروحاً !

سقراط

إذا كانت كلمة الفلسفة philosophy المشتقة من اليونانية تعني باجتماع مقطعيها "حب الحكمة" [Philo =حب ، Sophy = حكمة] ، فلنا أن نتأمل أن سعي الانسان للحكمة ولاكتشاف أصل الوجود قد ارتبط بنزوع نفسي سمّاه الاغريق بـ " الحب " Philo . ومن هنا ارتبطت الفلسفة منذ انبثاقها الاول بالحب، بوصفها شكلاً من أشكاله العليا .

"ايروس " Eros هو اله الحب عند الاغريق. هكذا سمّوه في أساطيرهم بعد أن صوّروا كيفية انبثاقه وخصائصه الالهية والبشرية، مستمدين ذلك من تصوراتهم العقلية التي أملاها التطور الاجتماعي لعصرهم. فقد دأبوا على استعمال ((كلمة "إيروس" Eros للاشارة الى الحب الجسدي، في حين جرت العادة على استخدام كلمة "اجابيه" Agape للاشارة الى الحب الروحي)) (ابراهيم،١٩٨٤، ص١٤٣). وكانوا يرون في ايروس رمزالقوة المبدعة في حياة البشر، وباني المدن، وموثق الصداقات. وعدّوه اله الرغبة الجنسية، ولذلك وصفوه بالقسوة والصلف والاعتداد. وكان دوره في حكومة الآلهة تنظيم عناصر الكون. وهو الذي كان يحلّ التناسق محل الفوضى، وكان دائماً يزهرُ الحياة ويبعث فيها التناغم والخلق (الحفني (أ) ، ١٩٧٨، ص ٢٧٨). وكانوا يجمعون بين "ايروس" اله الحب و "ديو نسيوس" اله الخمر، فيسرفون في الحب والشراب، ويتخذون من الخمرة وسيلة الى الاستمتاع بمباهج الحب. ومن هنا فقد أصبح " الايروس " لفظاً جنسياً يشير الى معاني العشق الحسي العنيف (ابراهيم، ١٩٨٤، ص١٤٣). وسنرى في

الفصل الثالث أن "سيجموند فرويد" وزملاءه في مدرسة التحليل النفسي بعد اكثر من عشرين قرناً، سيستخدمون هذا المصطلح على نطاق واسـع فـي تحليلهم لمشكلة الحب الجنسي.

لكن "ايروس " لابدّ له من مـصدرٍ أولٍ انبثـق منـه. وطبقـاً لتـصورات "هزيود" Hesiod الشاعر الملحمي الاغريقي الذي عاش في القـرن الـسابع قبل الميلاد ((فإن العالم في البدء كان فوضى. فقام روح الزمن" كرونـوس" بوضع بيضةٍ خرج منها "ايروس" ومعناه الحب، وخـصّه بفعـل التـآلف والتناغم نقيض الفوضى)). ثم أصبح رمزاً للرغبة عند الكاتـب المـسرحي المعروف "أسخيلوس" (٥٢٢ - ٤٥٦)ق.م (صالح (ج) ١٩٨٨، ص٢٢٣).

ويرى "شوارز" Shwarz 1956 أن مفهوم " افلاطون" للحب كان هو الأقدم والاكثر شيوعاً. فهو ينظر الى الحب في مؤلفه " المائـدة " أو " الوليمـة" Symposium على انه التمتع بالجمال، لكون الجمال هو الحقيقة الـسامية. وإننا من خلال تحقيقنا للاشياء الجميلة نصلُ الى حالة ذوبان كياننا في هـذه الحقيقة السامية الشاملة والى اتحاد كامل بها. وإن الحب هو ((تـصاعدُ مـا ليس بكائن الى مرتبة ما هو كائن)). ويرى ((أن للحب مصيراً لايقاومُ وقوةً تدفعُ بالعاشقين الى أن يكون كل منهما في أحضان الآخر. فإذا مـا اتـصل العاشق بنصفه الآخر أحسّ بشعور الصداقة والقرابـة والحـب، ورفـضَ العاشقانِ الانفصالَ كل منهما عن الأخر ولو لمدةٍ قـصيرة)) (صـالح (ج) ١٩٨٨،ص٢٢٤). لقد استطاع "افلاطـون" Plato (٤٢٧-٣٤٧)ق. م. أن يخلع على " الايروس " صبغةً فلسفيةً لكي يجعل منه اداةً نابعةً لخدمة الحياة الروحية. وربما كان هو السبب في تسمية الناس للحب السامي باسم "الحـب الافلاطوني" (ابراهيم ،١٩٨٤،ص ١٤٤).

إن النظرة الفلسفية الثنائية التي اشـــتقها " افلاطـــون " للوجـــود، انـــسحبت بالضرورة على رؤيته للحب. فالحب يقع لديه في احد موضعين: الجـــسد أو الروح. فاذا ارتبط بالجسد كان ادنى مرتبةً من الحب المرتبط بالروح الـــذي يكون صادقاً يوصلُ صاحبه الى السعادة الحقيقية. ولهذا شاع بين الناس بأن الحب الأفلاطوني هو تلك العلاقة التي تربط بين شخصين بدون أن يكـــون لها غرض جسدي (صالح (ج) ١٩٨٨،ص٢٢٥). وبعبارةٍ ادق أن للحـــب في نظر "أفلاطون" اتجاهين مختلفين: ((اتجاهاً زمنياً أفقياً تعبّر عنه الرغبـــة في توليد الأجسام لخدمة المجتمع، واتجاهاً أبدياً رأسياً تعبّر عنه الرغبة في توليد الأرواح من أجل التسامي بها نحو الله. واذا كانت أفروديت الأرضـــية (أو الشعبية) هي التي تهتم بالتناسل أو تخليد النسل، فأن أفروديت الـــسماوية (أو الإلهية) هي التي تأخذ بيدنا من أجل مساعدتنا على التفلـــسف)). الاّ أن الصلة ليست معدومةً بين هذين الوجهين المختلفين للحب، فالايروس لـــدى " أفلاطون" ((ينزع نحو الخلود في كلتا الحالتين، سواء أكان غرضه التناسل أم التصاعد)). وهنا تبرز عناصر جدلية واضحة في فكره المثـــالي، فكـــأن الحبّ الأفلاطوني عمليةٌ جدليةٌ تستمدُ صيرورتها نحو الجمال الأسمى من صراع النقيضين في أحشائها: الجسد والروح. إنه ينتقلُ ((من حب الأجساد الجميلة الى حب النفوس الجميلة، ثم من حب النفوس الجميلة الى حـــــــب المعارف الجميلة، حتى ينتهي في اخر المطاف الى حب "الخيـــر الأســـمى" الذى لا شكل له و لا صورة)). فالإيروس اذن ((سورةٌ ديناميكية لا تهـــدأ، وحركة ديالكتيكية لا تتوقف، ونزوع مستمر لا يعرف الأعيـــاء أو الكلـــل)) (ابراهيم ،١٩٨٤،ص ١٥١ ، ١٥٤ ،١٦٣).

كما أن لنظرية " أفلاطون" في الحب ارتباط عضوي وثيق بنظريته في المعرفة. فهو ينكر المحددات الحسية والاجتماعية والتأريخية للفكر، ويرى أن المعرفة ما هي الاّ انعكاس لـ"عالم المثل"، هذا العالم الفوقي الماورائي، عالم الروح الذى تسعى كل الموجودات أن تلحق به حسياً وأخلاقياً بوصفه مصدرها الأول. وهكذا الامر بالنسبة الى الحب، ((فأن ما أحبُه في هذا الموجود الجميل الذى أتعلق به ليس هو تلك الصورة الزائلة التي ينطوى عليها شخصه الجزئي (أو الفردى)، بل هو "مثال الجمال" على نحو ما يتجلى فيه، أو على نحو ما يهيؤني هو نفسه لأن أراه ! وتبعاً لذلك فأن الشخص المحبوب لا يُحَبّ مطلقاً في ذاته أو لذاته، بل هو يحبّ بوصفه ماهيةً لا شخصيةً، أو بقدر ما يشاركُ في ذلك المثال الأسمى الأزلي الأبدي، ألا وهو مثال الجمال)) (ابراهيم ،١٩٨٤،ص١٥٤).

لكن المتحدثين في محاورة أفلاطون "الوليمة" السابقة الذكر يختلفون فيما بينهم حول إلوهية إيروس. فنجد أن " فيدروس" وهو أول المتحدثين في المحاورة يسلّم مع " هزيود " وغيره من الشعراء بأن إيروس اله عظيم من أقدم الآلهة، وانه لم ينحدر عن أمٍ و لا عن أب. وحين يجيء دور "أجاثون" للكلام ينكرُ قدمَ هذا الإله، لكي يؤكد أنه ((أصغر الالهة وأحدثها وإنْ كان أجملها وأقدرها على هدايتنا)). ثم يجيء دور " سقراط " (٤٧٠-٣٩٩) ق. م Socrates فنراه ينكرُ تماماً الوهية إيروس، لكي يجعل منه مجرد مساعدٍ قديرٍ أو موجه حكيم يستطيعُ أن يقتادنا الى الجمال الأزلي المطلق. وحجة "سقراط" في أنكار الألوهية على " ايروس " ((أن الآلهة تمتاز بصفتي السعادة والجمال، في حين أن " أيروس " لا يتمتع بأى من هاتين الصفتين)). فالحب في نظره ((انما هو ضرب من الشوق أو الرغبة

في شيء يعدمه المرء؛ ولما كانت الرغبة انما تعني الحاجة أو الأفتقار، فأن الايروس يسعى نحو امتلاك الجميل، دون أن يكون هو نفسه جميلاً))

ويقول " سقراط ": ((إن الحب جني عظيم أو روح كبير يحتل منزلةً وسطى بين الآلهة والبشر. وهو ليس خالداً و لا فانياً، وهو ليس حكيماً وليس جاهلاً، وهو ليس خيراً وليس شريراً، وهو ليس قبيحاً أو جميلاً، وانما هو في مرتبة وسطى بين الخلود والفناء، بين الحكمة والجهل، بين الخير والشر، بين الجمال والقبح)) (ابراهيم،١٩٨٤،ص ١٤٤، ١٤٥).

ويختلف "سقراط" مع "هزيود" حول ميلاد "ايروس" . فيرى أن ذلك قد تم ليلة مولد "أفروديت" (أو آلهة الجمال عند الأغريق). وخلاصة أسطورة " سقراط " أن الآلهة شاءت أن تحتفل بميلاد "أفروديت"، فأقامت وليمةً كبرى كان من بين الذين حضروها "بوروس" Poros (أو الغنى). وبعد أن سكر " بوروس " لفرط ما شرب، خرج الى حديقة " زيوس " وغطّ في نوم عميق. وهناك لمحته "بنيا " Penia (أو الفقر) التي جاءت لتستجدى، فشاءت أن تُرزق منه مدفوعةً الى ذلك بما كانت عليه من فقر وعوز. فرقدت " بنيا " الى جوار " بوروس"، ونشأ من تزاوجهما "ايروس" ! ونظراً لأن عملية حبل "بنيا " تمت في ليلة مولد "أفروديت"، فقد نشأ " ايروس " محباً للجمال، فأصبح عاشقاً لأفروديت وخادماً لها. ولأنه كان ثمرةً لتزاوج الغنى والفقر أو الثراء والحاجة، فقد ورث عن أمه "بنيا " الفقر والجهل والضعة، كما ورث عن أبيه "بوروس" الغنى والحكمة والشجاعة. إن "سقراط" يريد أن يقول من وراء تصوره الأسطورى هذا لميلاد أيروس: إن الحب حاجةٌ وافتقارٌ وعوز من ناحية، وهو نزوع نحو الخير والجمال والكمال من ناحية

أخرى، وان حنينه الدائم الى الأمتلاء أو الأمتلاك انما هو الباعث الذى يهب الديناميكية لرغبته واشتياقه (ابراهيم ،١٩٨٤،ص١٤٥ ، ١٤٦).

أما "أرسطوفانيس" Aristophanes الذي وضع "أفلاطون" على لسانه نظرية عن أصل الحب في مؤلفه "الوليمة"، فيقول: ((إن طبيعة الإنسان لم تكن على هذا الحال ولكنها كانت مختلفة قديماً. كان الناس ينقسمون إلى ثلاثة أجناس لا إلى اثنين كما هم الآن، وكان كل شيء في هذا الجنس الثالث ضعف عدده الآن، بحيث كانت له أربع أيدٍ وأربعة أقدام ووجهان وعورتان، ثم أمره الإله "زيوس" أن ينشطر، فصار كل شطر فرداً، واشتهى الواحد منهما الآخر، وكانا إذا التقيا التفت الأذرع منهما وتعانقا عناقاً عنيفاً يطول ليستعيدا وحدتهما، وكانا يتركان نفسيهما على هذه الحال حتى يموتا من الجوع والسكون، لأن كل نصف يأبى أكل شيء لا يشاركه فيه النصف الآخر)) (فرويد، ١٩٧٦، ص٧٥، ٧٦). ثم يعرّف "الحب" بقوله: ((إنه ببساطة الاسم الذي نطلقه على الرغبة والسعي نحو الوحدة الكاملة)) (**Storr,1977,p. 120**).

ويعدّ تسليم الإغريق بوجود هذه الأجناس الثلاثة الأصلية المختلفة من الناس أمراً ضرورياً يبرر اعترافهم وقبولهم بالشذوذ الجنسي Homosexuality. فالرجل الإغريقي في سعيه لإيجاد عشيق له، إنما كان يكتشف الجانب الآخر من نفسه، ويصح الأمر على المرأة أيضاً. كما أن القيمة السامية التي منحها الإغريق للذكورة مقارنة بالمكانة الواطئة للمرأة في مجتمعهم، قد تفسر لنا لماذا كان الحب الجنسي الشاذ الموجه نحو الذكور ذا قيمة أعلى من الحب الموجه نحو النساء(**Storr,1977,p 121**) .

إن تخيل " أرسطوفانيس " لعملية الأنشطار المادية لهذا الجنس الخرافي الخنثي ومعاناته من الوحدة والعزلة والأغتراب عن ذاته، وحنينه

الهائل حدّ الموت جوعاً للاندماج من جديد مع بني جنسه الأول، إن هذا التخيّل سيجد صداه الواقعي الأجتماعي العميق (كما سنرى تباعاً) في التنظيرات الفلسفية والنفسية الحديثة عن حاجات الانسان للحب والأمان والانتماء والتبادل والعطاء والجذور والتعاون. ويلخص الفيلسوف الالماني " فردريك انجلز" Frederick Engels (١٨٢٠-١٨٩٥) هذه المسألة اللافتة للنظر في كتابه " جدليات الطبيعة " Dealectics of Nature بقوله: ((إن الاشكال المتنوعة للفلسفة اليونانية تحتوي جنينياً وفي حالة التوليد، على معظم أساليب النظر التي أتت لاحقاً)) **(Engels,1954,p. 63)**.

الحب في العصور الوسطى وعصر النهضة [١]

ما أشبه حبي بحمى تتوق دوماً
الى مايطيلُ تغذية المرض ،
مقتاتةً على ذاك الذي يبقى على الداء فيها،
إرضاءً لشهوتي الممروضة الحائرة" !
وليم شكسبير
(السونيتات)

اذا كان "أفلاطون" قد اقتصر في نظرته الجدلية للحب على اعتبار أن هـذا الجدل يتفاعل بأتجاهٍ واحد فحسب هو الصعود من الأنسان الـى الله، فـإن الفيلسوف اليوناني المثالي " أفلـوطين" (٢٠٥-٢٧٠)م Plotinus – زعـيم مدرسة الأسكندرية ومؤسس الأفلاطونية الجديدة – قد طوّر محاولةً جديـدةً في الجدل الصوفي ((من أجل التوفيق بين جدل الحب الصاعد وجدل الحب الهابط عن طريق فكرة السلم الإلهي الذي يسمح بالصعود والهبوط معـاً)). فالوجود لدى " أفلوطين " يتضمن حركة متبادلة بين الانسان والله، وتكمـن اضافته الى الافلاطونية التقليدية في ((إن الكل قد صدر عن الواحـد، وإن الصدور هو في صميمه ضرب، من الهبـوط)). ونجـده يقـرر بـصريح العبارة: ((الأعلى يهتم بالأدنى، ويعمل على تزيينه)) .وقد كان لهذه الفكرة (أي السلم الإلهي) والتي اقترنت بنظرية "أفلوطين" في الايـروس، أثرهـا الفعّال فيما بعد لدى الآباء المسيحيين والمشتغلين في علم اللاهوت، ((وقـد أغرت المدافعين عن العقيدة المسيحية باستخدامها في تقريب فكـرة "الحـب المسيحي"[٢] الى أذهان الناس)) (ابراهيم ،١٩٨٤،ص١٥٦).

إن "الايروس" بكل أشكاله لدى "سقراط" و "افلاطون" و "افلوطين" ((لم يكن يعني المشاركة المتبادلة بين شخصين متساويين، بل كان يعني الهوى الجامح الذى يذيب فردية العاشق في حالة من الأتحاد الصوفي مع المطلق أو الله. ومن هنا فإن الحب لم يتوقف عند " محبة القريب" بل كان يمضي مباشرةً نحو الحقيقة الإلهية)). ولعلّ جذور "الحب الرومانسي" Romantic Loveالذي نشأ فيما بعد في العصور الوسطى وما بعدها، تمتد الى "الحب الايروسي" الاغريقي الباحث عن التسامي والكمال المطلق، ذلك أن الحب الرومانسي ((قد تجلى على صورة هوى عنيف لا يقوم على التبادل أو المشاركة بقدر ما يقوم على التمركز الذاتي وحب الجسد! وكما بقى الايروس اليوناني خارج أسوار الزواج، فقد بقى الحب الرومانتيكي(٣) أيضاً متحرراً من سائر قيود الزوجية)). لكن عنصراً جديداً أصبح يميز الحب الرومانسي في العصور الوسطى وعصر النهضة عن الحب الايروسي الأغريقي، وهو اقترانه الحتمي بالشقاء والألم والتكفير. وقد كان للدعوة المسيحية الأثر الحاسم في هذا التمايز من خلال تبشيرها بنمط آخر من الحب: المحبة (أجابيه) Agape ، إذ اهتمت الكنيسة بمحاربة تعاليم الايروس ((ودعتْ الى اعتبار الزواج سراً مقدساً وجعلتْ من الوفاء الزوجي قضية مسيحية هامة)). فالأجابيه المسيحية انما ((هي اعترافٌ بالآخر واقرار بتساوى الأنا والأنت))، بينما يستند الإيروس ((الى التمركز الذاتي ويرتكز على فلسفة السعادة Hedonism)) (إبراهيم،١٩٨٤،ص١٥٦ – ١٥٧، ١٦٥،١٦٦).

بمعنى أدق ((إن ما يميز "الايروس" هو "التمركز حول الذات Egocentrism، وما يميز "الأجابيه" هو "التمركز حول الله"

Theocentrism)). ومعنى هذا ((إن "الايروس" ينشد خير الذات، في حين أن الأجابيه تهبُ نفسها للآخرين)). ولهذا يقرر "نيجرن" ((أن الايروس هو طريق الأنســـــان الى الله، في حين أن الأجابيه هو طريق الله الى الأنسان)). ولهذا السبب ((فإن الصوفي المسيحي لم يعد يعتقد بالرياضات العنيفة والانفعالات الصاخبة بل أصبح مثله الأعلى هو الوصول الى حالة السكينة القلبية التي تشبه الى حد كبير ما في الزواج من استقرار نفسي)). ولأن السيد المسيح قد افتدى البشرية بحياته الأرضية ليكفّر عن كل ذنوبها بتعليقها على صليبه الدامي، فإن طريق الحب صار من المحتّم أن يمــر بالتكفير عن الذنوب، وغدا الألمُ السبيلَ الوحيد نحو التسامي، فظهـــــــرتْ ((نزعــــــــة التطهير (أو التنفيس) Catharsis))(ابراهيم،١٩٨٤،ص ١٦٩، ١٦٥،١٨٥).

يتضح مما تقدم أن تأثر الحب الايروسي بنزعة التطهير المــسيحية كــان حتمياً ولكن دون أن يفقد خاصيته الأساسية المتمثلة في البحث عــن اطفــاء الشهوة وتحقيق المتعة، فكان أن ارتبط وريثه (أي الحب الرومانسي) وليــد العصور الوسطى بنزعة لا شعورية للتطهّر والتكفير بالألم حتى الموت، مع حفاظه على جوهره الايروسي المتقد دوماً خـــارج أســوار الــزواج. لقــد استحوذت فكرة الألم التطّهري على عقول الناس آنذاك، بل أنها تغلغلت في كل مفردات حياتهم الدينية والدنيوية. فالشعور المستحكمُ بالذنب إنمــا كــان نوعاً من حلٍ مريح يبرر للناس بؤسهم الاجتماعي تحت ســياط الاقطـــاع. وكثيراً ما يضطر المظلوم في لحظةِ يأس أن يعلنَ نفسه مذنباً يستحق العذاب كي يستطيع أن يجد لنفسه مبررا يقبل به آثامَ الظالمِ، ما دامت ستحلّ عليــه في كل الأحوال.

تلك هي الماسوشية[٤] الاجتماعية للعصور الوسطى، والتي أصابت الحب بمعناه الايروسي، فأصبح رومانسياً مقترناً دوماً بمعاني (("النار" و "الاحتراق" و "الاكتواء" و "التلظي" و "التألم" و "الجراح" و "العذاب" و "الشقاء" و "الموت")) (ابراهيم ،١٩٨٤،ص١٥٨).

فهل كان الحب الرومانسي القروسطي والنهضوي بعد كل هذا، نتيجةً عقليةً منطقيةً لامتزاج النزعة الصوفية المسيحية الماسوشية بالشهوة الحسية الذاتية الطبيعية، في النفس الواحدة ؟!

هوامش

(١) يشير المؤرخون الى ان "العصور الوسطى " Middle Ages تمتد من سقوط "روما" على ايدي البرابرة الجرمان في العام ٤٧٦م ، وحتى سقوط "القسطنطينية" على يد السلطان العثماني "محمد الفاتح" في العام ١٤٥٣م. أما عصر "النهضة" Renaissance Age فهو عصر انتقالي بين العصور الوسطى والعصر الحديث في اوربا. وقد نشأ في ايطاليا في القرن الرابع عشر واستمر الى القرن السابع عشر.

(٢) "الحب المسيحي" هو ذاته "الحب الروحي" أو "الأجابيه".

(٣) "الرومانتيكي" تكافئ تماماً "الرومانسي" . وهذا الفرق في اللفظ يعود الى وجهات نظر المترجمين.

(٤) "الماسوشية" أو "المازوخية" أو "قبول التعذيب" Masochism: ((إنحراف جنسي يتميز بالرغبة في التعرض للألم الجسدي على أيدي الآخرين للحصول على الإشباع الجنسي. وبجانب المازوخية الجنسية توجد المازوخية الاجتماعية. ويستخدم هذا الاصطلاح للإشارة إلى أولئك الذين ينهجون في الحياة وقد أخذوا في التقليل من شأن أنفسهم، وهم يستشعرون لذة مرضية من كوارثهم وعللهم)) (بدوي، ١٩٨٢، ص: ٢٥٩). وقد تنتاب الماسوشية قطاعات واسعة من المجتمع نتيجة دوافع لا شعورية طاغية في فترات تاريخية معينة. لمزيد من الإطلاع، راجع (اريك فروم، الخوف من الحرية، ١٩٧٢).

الحب في العصر الرومانسي*

لا أفهم أحياناً كيف يقدر إنسان آخر أن يحبّها، أو يجرؤ أن يحبّها، وهي التي سكنتْ قلبي، واستأثرتْ بحبي، فــلا أعرفُ ولا أحسُ ولا أرى غيرها في هذا العالم !

يوهان غوته

(آلام فارتر)

إن أفضل ما يمكن الاستعانة بـــه في شرح خصائص الحب الرومانسي في هذه الحقبة، هو الآثار الأدبية التي جاء بها العصر الرومانسي اواسط القرن الثامن عشر وما بعده.

ويبدو أن نجاح الكتاب الرومانسيين آنذاك في التأثير على عواطف الجمهور الأوربي يرجع ((الى أن الانسان الاوربي يـــستجيب للمـــؤثرات العنيفـــة، ويؤثرُ الشقاء على كل ما لديه)). فتلك التركيبة النفسية الخاصة التي ميـــزت الشخصية الاوربية آنذاك، والتي نتجت عن التلاقح الانفعالي والفكري الذي تم بين الفلسفة الاغريقية والتطهرّ المسيحي (كما أشرنا في الفقرة السابقة)، قد أدت الى أن العقلية الاوربية صارت تـــربط ((الفهـــم بـــالألم، والـــوعي بالموت، فتصورتْ ان الآلام بصفة عامة، وآلام الحب بصفة خاصة، انمـــا هي ميزة كبرى تصحبُ كل فهم عميق لحقيقة أمر هذه الحيـــاة الانـــسانية. واذن لابدّ للعاشقين أن يجتازوا تجربة الألم اذا كان لهم أن يفهموا يوماً ســـر الوجود الانساني، الذي يمضي نحو الموت)) (ابراهيم، ١٩٨٤،ص١٥٩).

ويعد فيلسوف الطبيعة الفرنسي "جان جاك روسو " J.J.Rousseau (١٧١٢ – ١٧٧٨) م بحق ((أبَ الرومانتيكيين في وصف الحب)). ففي قصة "هيلويز الجديدة" يصفَ حياةَ مربٍ أحب تلميذته، التي مُنع من زواجها لأنه أقل منها طبقياً، فتزوجت غيره. وقد حاول اغراءها بالهرب معه فرفضت، ولكنه ظلّ على حبّها؛ ثم عرض عليه زوجها أن يقيم معهما، فتجدد الحب القديم الذي ظلّ طاهراً؛ وحين توفيت اثر حادثٍ تركت لحبيبها كلمةً تقول فيها: ((.. فعلتُ ما وجبَ أن أفعلَ، وظللتُ على خلقٍ طاهرٍ لم يدنس، وقد احتفظتُ بحبٍ لم يشبهُ ندمٌ ولا تأنيب من الضمير ... وهذه الفضيلة التي فصلتْ ما بيننا في هذه الأرض ستجمعنا في مقام الخلد)). وقد أثارتْ هذه القصة حينذاك عاصفةً من النقد من جانب انصار الكلاسيكية المحافظين، فقد كانت حدثاً جديداً ((تجلّتْ فيه الدعوة الى حقوق الفرد، وتقديمها على نظم المجتمع، والسمو بعاطفة الحب وحسبانها فضيلة من الفضائل، وأن من حقها التقديم على كل ما يعتدّ به المجتمع من فضائل موضوعة، لأن الانسان فيها يطيعُ ناموس الطبيعة، وهو من وحي الله)) (هلال،١٩٨٦، ص١٨٤).

لقد أصبح الحب عند رومانسيي القرن الثامن عشر وما بعده، ليس مجردَ فضيلةٍ ((بل هو على رأس الفضائل. وهو وسيلة تطهير النفوس وصفائها، وحتى اذا احبت البغي وأخلصت في حبها، كفرّتْ بذلك عن ماضيها)). وهم لا ينشدون تحقيق المتع الجسدية بالضرورة من خلال الحب، فهذا "روي بلاس " بطل مسرحية " ماريون ديلورم " للاديب الفرنسي "فكتور هيجو" Victor Hugo (١٨٠٢ – ١٨٨٥) م يعترف بحبه للملكة: ((أحبكِ حباً صادقاً، وأسفاه ! اني أحلم بكِ حلم الأعمى بالضوء. سيدتي! إصغي اليّ:

عندي احلام لاعداد لها، أحبكِ من قريب ومن بعيد وفي جوف الظــلام، ولا أجرؤ على لمس طرف أصبعك)). كما عدّ الرومانسيون أن الزواجَ بلا حب زواجٌ غير مشروع، ولا معنى له. فقد رأى الفيلسوف "فريــدريش شــليجل" (١٧٧٢ – ١٨٢٩)م، وهو رائد الحركة الرومانسية الالمانية ((إن الحكومــة حين تحيط هذا الزواج بقوة القوانين انما تعوق الزواج الحــق)). فيمــا رأى الشاعر الانكليزي "شــيلي" Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢)م ((إن الحــب هــو الفضيلة، وإن كرامة الانسان تأبى أن ترسف في قيود قوانين تجعلــه يمثــل دور المحب حين لا يكونه، فما بالك بقوانين تجعل مــن الــزواج صــداقةً أبديةً؟)). أما "جورج صاند" (١٨٠٤-١٨٧٦)م الروائية الفرنسية فقد ثــارت على قوانين الزواج المــسيحية وســمتها ((قــوانين البــؤس والعبوديــة)) (هلال،١٩٨٦، ص ١٨٧-١٨٩).

وهكذا اضاف "العصر الرومانسي" بتحولاته الاجتماعية الثوريــة العميقــة عنصراً جديداً الى "الحب الرومانسي" وليد العصر الكلاســيكي، ذلــك هــو عنصر "التمرد" على القيم الدينية والاجتماعية القائمة الى حدّ اعتبار الحــب فضيلةً تسمو بمشروعيتها على كل القوانين الاجتماعية المرعية آنذاك، ومن ضمنها قوانين مؤسسة الزواج البرجوازي (الذى ســنتابع تحليــل جــذوره الاقتصادية والنفسية في الفقرة القادمة من هذا الفصل). لقد كانتْ ثورة العقل وارهاصات انفصاله النهائي عن الكنيسة، فكان لزاماً أن تلحق العاطفة بــه كي يتسنى للنفس الاوربية أن تنسجم وتتوحد في صراعها العنيف مــع أرثٍ سكوني ثقيل. فأصبح "الحب الرومانسي" مزيجاً ديناميا من ثلاث مكونــات: الايروس، ونزعة التطهر بالألم، ونزعة التمرد على القــيم الــسائدة. لقــد ازدادت جدليته وغاياته النفسية الاجتماعية، فصار نوعاً من حلٍ داخلــي ذى

نزعة تطهريةٍ وتمرديةٍ في الوقت ذاته للنفس المعذبة التي أشقاها اضطرابُ الخارج وعنفُه وخواؤه، فراحتُ تضمّدُ جراحَ العالم بشقاءِ النفس فـــي دورةٍ جدليةٍ لا تنتهي، محورها الايروس.

وها هو الشاعر الأنكليزى الرومانسي المتأخر "ماثيو أرنولـــد" M. Arnold (١٨٢٢– ١٨٨٨) م يلوذ بالحب، منسحباً بعذوبةٍ مريرةٍ من عالم الكراهية: (الموسوي، ١٩٧٢ ،ص٧٤)

((إيه أيها الحب! دع الواحد منّا
يأتمنُ الآخرَ ، لأن العالم الذى يبدو أمامنا
كأرضِ أحلامٍ في تنوعه وجماله وجدّته
عند الحقيقة يفتقر الى المتعة والحب والنور
فلا تأكيد و لا سلام و لا مواساةَ لألمٍ :
إننا هنا في هذا السهل المظلم
نُكتَسحُ مع انذاراتِ صراعٍ أو هزيمةٍ مرتبكةٍ
حيث تتصادم الجيوشُ الجاهلةُ في الليلْ !)).

هامش

* يستخدم مؤرخو الادب مصطلح العصر "الرومانـــسي" The Age of Romanticism كأشارة الى عصر أدبي ابتدأ في اوربا اواسط القرن الثامن عشر (وهو القرن الذي شـــهد صعود البرجوازية الصناعية كطبقة فتية قويـــة، وصـــراعها الاقتـــصادي والاجتمـــاعي والفكري مع الاقطاع، واستيلائها التدريجي على السلطة في مختلف بلدان اوربا، وبالتالي انتشار وسيادة اخلاقياتها وقيمها وفلسفتها وادابهـــا وفنونهـــا كوريـــث تقـــدمي للعـــصر الكلاسيكي) وامتد الى الثلث الاول من القرن التاسع عشر. وقد اتسم ادب هـــذا العـــصر بالعاطفة الجياشة والتوق الوجداني المتحرر نحو مختلف رموز الحياة بعد عـــصور مـــن

الممارسة الجامدة للقواعد الكلاسيكية المحافظة. فأصبح كل شيء موضع تساؤل وشـــك. وانقسم الرومانسيون الى رجعيين يحنون الى الماضي الاقطـــاعي الـــضائع ("شـــليجل" ، و"نوفاليس" ، و"لامارتين") والى مناهضين للبرجوازية ينزعون الى مـــستقبل فردوســـي يخلصهم من عذابات الحاضر ("بايرون" ، و"شيلي" ، و"هيجو" ،و" شوبان" ، و"غوته " في شبابه).

المنظور الماركسي للحب

إن الغنى الحقيقي هو تلك الحرية الداخلية التي تسمحُ للطبيعي في كل وقت بالتعبير عن نفســه، وتسمحُ بأن يجرفك الهـــوى دون أن تخون نفســـك!

روزا لوكسمبورغ (١)

(رسائل حب)

كتـــــب " كـــارل مـــاركس" Karl Marx(١٨١٨-١٨٨٣) م فـــي "المخطوطات الأقتصادية والفلسفيــــة ١٨٤٤": ((إن الرابطـــة المباشـــرة والطبيعية الضرورية للانسان هي علاقة الرجل بالمرأة ... وفي ضوء هذه العلاقة يمكن للمرء أن يصدر حكماً عن درجة التطور الكلي للانسان. ويتبعُ ذلك أن خاصية هذه العلاقة هي التي تقرر الى أي حدٍ قــد اقتــرب الكـــائن البشري من نفسه كإنسان، والى أي حد قد استوعبها؛ إن العلاقة بين الرجل والمرأة هي الرابطة الأكثر طبيعيةً بين مخلوق بشري وآخر. ولذلك فأنهـــا تُظهِرُ الى أي مدى يصبح فيه السلوك الطبيعي للإنسان انسانياً، أو الـــى أي مدى يصبح فيه الجوهر الإنساني في الأنسان جوهراً طبيعياً ... وفي هـــذه العلاقة ينكشف أيضاً الى أي مدى يصبح فيـــه احتيـــاج الانـــسان احتياجـــاً انسانياً؛ والى أي مدى يصبحُ فيه الإنسانُ الآخرُ ضرورةً بوصـــفه انـــساناً، والى أي مدى يكون فيه الانسان في وجوده الفردي كائناً اجتماعياً في الوقت ذاته)) **(Marx, p.101)**.

لا تختلفُ نظرة الماركسية الى علاقة الحب عن نظرتهـــا الـــى العلاقـــات الاجتماعية الأخرى. فمقدار انسانية العلاقة يحدده مدى تجرد تلـــك العلاقـــة

من صفتها السلعية، ومدى قدرة طرفي أو أطراف العلاقة على النظر الى بعضهم بوصفهم بشراً فحسب غير مغمورين بالقيمة التبادلية الأقتصادية التي تحكم علانيةً أو سراً كلّ علاقةٍ اجتماعية حتى علاقة الحب. فالحب اذن في المنظور الماركسي مضمون اجتماعي، وهو بناء عقلي فوقي أيضاً، شأنه شأن السياسة والدين والأخلاق والعلم والفن. وهو انعكاس جدلي للتفاعلات الدينامية للبناء التحتي، أي للعملية الاقتصادية. وبالتالي فلا يمكن أن ننظر الى محتوى العلاقة بين المرأة والرجل الا بوصفها درجةً من درجات التطور الاجتماعي البشري، ونتاجاً للحركة الفسيولوجية والسوسيولوجية للإنسان وليست مثالاً مسبقَ التصوّر علينا بلوغه وصولاً الى تجلياتٍ صوفيةٍ أو مسلّماتٍ فلسفيةٍ مثاليةٍ عن عالمٍ علويٍ سامي. كما إن مضمون هذا الحب سيظلّ مرتبطاً بنضال المرأة في سعيها للمساواة الاجتماعية والاقتصادية بالرجل؛ فلا يوجد حبٌ أصيلٌ بين أعلى وأدنى .

وقد عرض "ماركس" أفكاره عن المرأة والزواج لأول مرة في "الصحيفة الرينانية" في العام ١٨٤٢م. وحدد موقفه في المقالين اللذين نُشرا في هذه الصحيفة من قضيتي الزواج والطلاق ((مؤيداً وحدانية الأول وحرية الثاني)). وبعد عامين عدّ "ماركس" أن موقف الرجل من المرأة يحددُ ((درجة تحوّل سلوك الانسان الطبيعي الى سلوك انساني)). كما هاجم "ماركس" الزواج البرجوازي بعنف بوصفه شكلاً من أشكال الاضطهاد الاجتماعي والاقتصادى مؤكداً ((أن الزواج ليس مفهوماً من المفاهيم كما يزعم "هيغل"[٢]، بل هو واقعة اجتماعية)) (فريفيل، (في) لينين ،١٩٧٣، ص٢٧، ٢٦، ٣١).

وقد أراد "ماركس" أن يكتب كتاباً عن تأريخ الأسرة البشرية، الا أنه توفي، فتولى رفيق مسيرته الفكريـــة "فردريـــك انجلـــز " F .Engels (١٨٢٠ – ١٨٩٥)م تنفيذ ذلك المشروع، فوضع كتابه المهم ((أصل العائلـــة والملكيـــة الخاصـــة والدولـــة)) ١٨٨٤ م The Origin of the Family Private Property and the State ، والذى بيّن فيه ((ارتباط عبودية المرأة بظهور الملكية الخاصة)) (فريفيل، (في) لينين،١٩٧٣، ص٣٠).

يعدّ هذا الكتاب أحد أهم المؤلفات في النظرية الماركسية في المجتمع. وقـــد اعتمد فيه "أنجلز" على المعلومات الـــواردة فـــي كتـــاب "مورجـــان" [٣]: ((المجتمع القديم))، وكذلك على معطيات العلم الأخرى. وبيـــّن التغيـــرات في أشكال الزواج والعائلة عبر التاريخ في علاقتهـــا بالتقـــدم الاقتـــصادي للمجتمع. وحلل عملية تدهور النظام القبلي (المشاعي البدائي) وتحلله ونمـــو النظام الطبقي القائم على تقسيم العمل والملكية الخاصة، وكيف أن ظهـــور التناقضات الطبقية أدى إلى نشوء الدولة كأداة للدفاع عن مـــصالح الطبقـــة الحاكمة (روزنتال، ١٩٨٥، ص ٣٨).

حدد "أنجلز" ثلاثة أشكال للزواج تعاقبت بالتدريج خلال المراحـــل الرئيـــسة الثلاث من تطور البشرية. "المرحلة الوحشية" اتسمت بـــ"الزواج الجماعي"، و "المرحلة البربرية" اتسمت بـــ"الزواج الثنائي، و "مرحلة الحضارة" اتسمت بـــ"الزواج الأحادي" المقرون بالخيانة الزوجية والبغـــاء (أنجلـــز، ١٩٧٠، ص٢٦٨). وفسر ظهور أشكال الزواج هذه بالمتطلبات الاقتـــصادية التـــي اقتضتها حياة المجتمعات البشرية خلال كل مرحلة من مراحـــل تطورهـــا الاجتماعي والفكري.

وقد أدى "الزواج الجماعي" في المرحلة الوحشية إلى ظهور نوعين من العوائل (أنجلز، ١٩٧٠، ص ٢١٤-٢١٨):

(١) **عائلة قربى الدم:** هنا تنقسم الجماعات الزواجية حسب الأجيال. فلا تنتفي العلاقات الزوجية إلا بين الأسلاف والأخلاف بين الآباء والأولاد؛ أما الأخوة والأخوات من أي درجة فإنهم أزواج وزوجات فيما بينهم. وهذا يعني أن علاقة القربى بين الأخ والأخت تشمل العلاقة الجنسية فيما بينهما كشيء بديهي.

(٢) **العائلة البونالوانية:** تعني "بونالوا" Punalua رفيقاً قريباً أو شريكاً. فكانت مجموعة من الأخوة (من أم واحدة أو من علاقة قربى أبعد) تدخل في زواج مشترك مع عدد معين من النساء، ولكن من غير أخواتهم. وكانت هؤلاء النساء يسمين أنفسهن بـ"البونالوا". وبذلك تم تحريم العلاقة الجنسية بين الأخوة والأخوات وبصورة متدرجة تاريخياً.

وفي جميع أشكال العائلة الجماعية، لا يمكن معرفة والد الطفل بدقة، ولكن يمكن معرفة أمه بدقة. ولا يمكن إثبات الأصل إلا من ناحية الأم، وبالتالي فقد ارتبطت علاقات الإرث بالأم حصراً. وكان هذا الحال سائداً فعلاً عند جميع الشعوب المتوحشة وعند جميع الشعوب التي بلغت الدرجة الدنيا من البربرية (أنجلز، ١٩٧٠، ص ٢٢١).

أما "الزواج الثنائي" في "المرحلة البربرية" فقد أدى إلى ظهور "العائلة الثنائية". وقد ترسخ هذا النوع من الزواج تدريجياً بقدر ما كانت العشيرة تتطور وبقدر ما كانت تتزايد جماعات "الأخوة" و"الأخوات" التي غدا الزواج مستحيلاً فيما بينها. وفي هذا الطور يعيش الرجل مع امرأة واحدة، لكن تعدد الزوجات والخيانة الزوجية لا يزالان من حق الرجل بالرغم من أن تعدد

الزوجات نادر الوقوع بحكم الأسباب الاقتصادية. وكانت الزوجة تعاقب على خيانتها عقاباً قاسياً. ويحق لكل من الطرفين أن يحل الرابطة الزوجية بسهولة فيعود الأولاد إلى الأم فقط، كما من قبل (أنجلز، ١٩٧٠، ص٢٢٨).

وأخيراً حل "الزواج الأحادي" أو العائلة الأحادية كإحدى العلائم على بداية عصر الحضارة. وقد كان هذا الزواج إسقاطاً للحق الأمومي، وبالتالي هزيمة تاريخية للجنس النسائي، وتثبيتاً لشكل جديد من أشكال العائلة هو "العائلة البطريركية" (الأبوية). وكان شكل العائلة هذا يعني الانتقال من الزواج الثنائي إلى أحادية الزواج. فلأجل ضمان أمانة المرأة، وبالتالي لأجل ضمان أبوة الأولاد، توضع تحت سيطرة زوجها المطلقة؛ فإذا قتلها فإنه لا يفعل غير أن يمارس حقه. وثبوت الأبوة هذا ضروري لأن الأولاد سيملكون أموال والدهم ذات يوم بوصفهم ورثته المباشرين. ويمتاز هذا الزواج الأحادي عن الزواج الثنائي بكون عرى الزواج فيه أمتن بكثير، وبأنه لم يعدّ من الممكن فسخ هذه العرى كلما طاب لأحد الزوجين. فالزوج وحده على العموم هو الذي يسعه الآن أن يفسخ هذه العرى ويطلق امرأته، كما أن حق الخيانة الزوجية ما يزال مضموناً له شرط ألا يأتي بعشيقته إلى المنزل العائلي. وإذا تذكرت الزوجة الممارسة الجنسية القديمة وأرادت أن تستأنفها، فإنها تتعرض لعقاب أقسى من أي وقت مضى (أنجلز، ١٩٧٠، ص ص: ٢٤٣-٢٥٠).

ولاحظ "أنجلز" أن شكل الزواج الجديد هذا يظهر بكل صرامة عند الإغريق. إلا أن هذا الزواج الأحادي لم يكن ثمرة للحب الجنسي الفردي، لأن الزواج ظل كما كان من قبل زواج انتفاع. فكانت أحادية الزواج أول شكل للعائلة لم يرتكز على الشروط الطبيعية، بل ارتكز على الشروط

الاقتصادية، أي انتصار الملكية الخاصة على الملكيـــة المــشتركة البدائيـــة العفوية. فسيادة الزوج في العائلة وولادة أولاد لا يمكن لهـــم أن يكونـــوا إلا من صلبه ودمه، ولا بد لهم أن يرثوا ثروته في المستقبل، ذلك كان الهـــدف الوحيـــد مـــن الـــزواج الأحـــادي الـــذين نـــادى بـــه اليونـــانيون (أنجلز، ١٩٧٠، ص ٢٥٥).

وبالرغم من تأكيد "أنجلز" على أن الزواج الأحادي ((لا يدخل إطلاقـــاً فـــي التاريخ بوصفه اتحاداً اختيارياً بين المرأة والرجل، ولا حتى بوصفه الـــشكل الأعلى لهذا الاتحاد، بل بالعكس، فهو يظهر كاستعباد جنس من قبل الآخر، كإعلان لتناقض بين الجنسين لم يعرفه التاريخ كله من قبل))؛ إلا أنه يعـــدّه ((تقدماً تاريخياً كبيراً، ولكنه يدشن في الوقت نفسه إلـــى جانـــب العبوديـــة والثروة الخاصة، تلك المرحلة التي ما تزال مستمرة حتى أيامنا، والتي يعني فيها كل تقدم تراجعاً نسبياً، والتي يتحقق فيها ازدهار وتطور البعض بـــآلام البعض الآخر وقمعه. إن الزواج الأحادي إنما هو هذه الخلية من المجتمـــع المتمدن التي تمكننا من دراسة طبيعة التناحرات والتناقضات المتطورة تماماً في قلب هذا المجتمع)) (أنجلز، ١٩٧٠، ص ٢٥٥، ٢٥٦).

ومن جهة أخرى، ينظر "أنجلز" إلى الزواج الوحداني على أنه المقدمة التـــي استطاع على أساسها أن يتحقق ((أعظم تقدم أخلاقي نحن مدينون بـــه لهـــا، عنيت به الحب الفردي العصري بين الجنسين الذي كان العالم القـــديم كلـــه يجهله)). لكن هذا لا يعني أن الحب الجنسي الفردي قد تطـــور فـــي قلـــب أحادية الزواج حصراً، ((فإن طبيعة الزواج الأحادي المتـــين ذاتهـــا كانـــت تستبعد ذلك في ظل سيادة الزوج. وعند جميع الطبقات النشيطة تاريخياً، أي

عند جميع الطبقات السائدة، بقي عقد الزواج كما كان عليه منذ الزواج الثنائي، أي صفقة يعقدها الآباء)) (أنجلز، ١٩٧٠، ص ٢٦١، ٢٦٢).

عندما ظهر الحب الجنسي للمرة الأولى في التاريخ بشكل عشق، بوصفه أعلى شكل للغريزة الجنسية، لم يكن حباً زوجياً على الإطلاق. فالحب الفروسي في القرون الوسطى والحب الرومانسي في المرحلة البرجوازية اللاحقة كانا يسعيان بكل قوتهما إلى انتهاك الأمانة الزوجية، ذلك أن الزواج في هذه الحالة كان قائماً على وضع الطرفين الطبقي، ولذا كان دائماً زواج انتفاع يتسم بالرياء والملل اللذين يؤديان إلى الخيانة الزوجية. بل أن "أنجلز" يذهب إلى مدى أبعد، فيكتب: ((يتطلب زواج الانتفاع هذا في أحيان كثيرة إلى بغاء في منتهى القذارة والخساسة من جانب الطرفين أحياناً، وفي أحيان أكثر بكثير من جانب الزوجة التي لا تختلف عن البغي الممتازة الذكاء والأناقة إلا بكونها لا تؤجر جسدها بالقطعة كما تؤجر العاملة عملها، بل تبيعه دفعة واحدة وإلى الأبد كالعبدة (أنجلز،١٩٧٠، ص ٢٦١-٢٦٤).

ولحل إشكالية العلاقة المتنافرة بين الحب والزواج، يكتب "أنجلز": ((لا يمكن للحرية التامة في عقد الزواج أن تتحقق بصورة تامة إلا بعد أن يقضي إلغاء الإنتاج الرأسمالي وعلاقات الملكية التي خلقها الإنتاج الرأسمالي على جميع الاعتبارات الثانوية الاقتصادية التي لا تزال تؤثر الآن تأثيراً كبيراً في اختيار الزوج والزوجة. وآنذاك لن يبقى أي دافع غير دافع الميل المتبادل)) (أنجلز، ١٩٧٠، ص ٢٧٩)؛ أي أن الحب والزواج لن يمتزجا في علاقة طوعية حرة إلا في مجتمع لا طبقي تزول فيه كل علاقات الاستغلال بين الأفراد، وحينذاك لن يكون هناك معنى لحب خارج الزواج، أو الزواج دون حب كما كان يحدث في كل العصور السابقة.

ثم يرسم "أنجلز" بمنظوره الحتمي التاريخي المتفائل صورة للحب الجنسي الفردي المنشود: ((جيل من رجال لن يتأتى لهم أبداً في الحياة أن يشتروا المرأة بالمال أو بوسائل اجتماعية أخرى من وسائل السلطة، وجيل من النساء لن يتأتى لهن أبداً في الحياة أن يستسلمن لرجل بدوافع غير دافع الحب الحقيقي، أو أن يمتنعن عن معاشرة الرجل المحبوب خوفاً من العواقب الاقتصادية. وحين يظهر هؤلاء الناس، فإنهم لن يأبهوا أبداً لما ينبغي عليهم أن يفعلوا حسب الاعتبارات الحالية؛ فإنهم سيعرفون بأنفسهم ما ينبغي عليهم أن يفعلوه، وسيرسمون وفقاً لذلك رأيهم العام في سلوك كل فرد بمفرده)) (أنجلز، ١٩٧٠، ص ٢٨٠، ٢٨١).

إن " انجلز" بأفكاره هذه عن أصل العائلة وأشكال الزواج ومشكلة الحب، إنما أغنى نوعياً ما جاء به "ماركس" في كتابات شبابه: ((كلّ تأريخ الحضارة الانسانية هو تحريرٌ متواصل للانسان من أغلال العالم الحيواني، أنسنة تدريجية لتلك الطبيعة التي كانت ما تزال تسيطر على الانسان في فجر التاريخ. إن انساناً اجتماعياً يأخذ مكانه محل الانسان القديم الطبيعي؛ فالوعي الاجتماعي يحل اكثر فأكثر محل وعي القبيلة القديم الطبيعي. والتأريخ الانساني يضيف الى اللامساواة الطبيعية أشكالاً مختلفةً من اللامساواة الاجتماعية. والمجتمع الرأسمالي يخلق جميع الشروط المادية والفكرية الضرورية لهدم اللامساواة الاجتماعية. ومؤكدٌ أن هذه المساواة التامة لا يمكن أن تلغي التمايزات الطبيعية التي توجد وستوجد كنتائج للفرق الفزيولوجي بين الجنسين، لكن تطور الحضارة اللاحق لابدّ أن يفضيَ الى زوال جميع العقبات التي يخلقها المجتمع والاقتصاد والسياسة في وجه تلك المساواة)) (ريازانوف، (في) لينين ، ١٩٧٣، ص٦٢).

وإذا كان مؤسسا الماركسية قد أدانا كل أنواع العلاقـــات البرجوازيـــة فـــي الاقتصاد والمجتمع، فإنهما أدانا أيضاً ((التمرد الفوضـــوي علـــى الـــزواج البرجوازي)) الذي طالعنا بعض تفاصيله في الفقـــرة الـــسابقة مـــن خـــلال علاقات الحب الرومانسي غير الشرعية خارج إطار الـــزواج، وكيـــف أن الشقاء والتمرد صارا خاصيتين ملازمتين للحـــب. كمـــا أدانـــا الـــدعوات المتطرفة المطالبة بمشاعة النساء كرد فعل على بؤس الزواج البرجـــوازي، وعدّا أن ذلك سيؤدى الى ((إباحةٍ معمقةٍ تفضي باسم الحب الحر الى بغـــاءٍ عامٍ)). وقد حددا بالاستناد الى نظرتهما المادية الطبقيـــة ((إن الحـــبَ ذلـــك التفتح الرائع للشخص الأنساني، مهدد بخطرٍ مزدوج، اجتمـــاعي وفـــردي: العبوديات الخارجية النابعة من علاقات الانتاج، ونداءات الغريزة الغاشمة)) . وبالتالي فأن الحب بمضمونه التحرري الانساني العميق لم يتحقق بعد على الارض، ((ففي كل المجتمعات الطبقية التي توالت علـــى مـــر العـــصور، أُضطهدت المرأة واُستغلت، وسُحـــِق الحـــب واُضـــطهِد وضُـــربَ عليـــه التحريم)). وتوصلا الى أن التغنّي بالنزوات الجنسية هو ردّ فعلٍ على الرياء البرجوازي الاخلاقـــي، وأن الاباحيـــة ((انمـــا تعكـــسٍ فـــسادَ المجتمـــع البرجوازي، اذ أن الفرد العاجز عن الانعتاق مـــن العبوديـــات الاجتماعيـــة يصبح عبدَ الغريزة)) (فريفيل، (في) لينين ،١٩٧٣، ص ٣١).

إن أرقى شكل للعلاقة بين الرجل والمرأة، يظلّ مشروطاً لدى "مـــاركس" و "انجلز" بالمساواة الاجتماعية الكاملة. ((فعندما يتحرر الحـــب مـــن جميـــع عناصره الحيوانية والاكراه المكشوف أو المقنّع، ويتحول في لحظـــةٍ مـــن الاتحاد الروحي المتحقق بفضل المساواة التامة بين الرجل والمرأة، آنـــذاك فقط تولدُ أسس شكلٍ جديدٍ هو اسمى أشكال الزواج الوحداني)) (ريازانوف، (في) لينين ، ١٩٧٣، ص٦٢).

◈ ◈ ◈

في خمسينات وستينات هذا القرن، حاول المفكر الامريكي الجنسية الألماني الأصل "هربــرت مــاركوز" Herbert Marcuse أن يمــزج المفــاهيم الماركسية في السوسيولوجيا بالمفاهيم الفرويدية في السيكولوجيا في وحــدةٍ توفيقيةٍ أثارت كثيراً من الجدال والانتقادوالاعجاب آنذاك، فكانــت بمثابــة الافكار الهادية للشبيبة الاوربية في احتجاجاتها الراديكاليــة ضــد الهيمنــة الرأسمالية أواخر الستينات. وكان بذلك أحدَ الآباء الروحيين لتلك الحركة .

قدم "ماركوز" مفهومين اساسيين في كتابه "ايروس والحضارة" هما: "فائض الكبت" Surplus Repression و "مبدأ الاداء" Performance Principle ، إذ يشير "فائض الكبت" الى ((القيود الكمية المفروضة على الجنسية والتي نجمتْ عن السيطرة الاقتصادية والسياسية))؛ أي إن "مــاركوز" أضــاف ((بعــــداً تأريخياً الى المعادلة التي قدمها "فرويــد" بــشــــأن الحــضارة والكبت)) وقد كان يستهدف من وراء ذلك أن ((يطابق بين مفهوم " فــائض الكبت" وبين مفهوم " فائض القيمة " عند "ماركس" – أي المعيــار الكمــي للاستغلال البشري في ظلّ الرأسمالية)). واذا كان "مــاركوز" يتفــق مــع "فرويد" بضرورة وجود حــــد أدنى من الكبت كإجراء لابــدّ منــه لقيــام الحضارة، أي الرابطة الاجتماعية المنظّمة لحياة الافراد، فإنه فــي الوقــت ذاته يؤكد ((إن القسط الاكبر من الكبت الجنسي في الحضارة الحديثــة هــو فائضُ كبتٍ، أي كبت في خدمة السيطرة)) (روبنسون ،١٩٧٤، ص ١٢٩).

و"فائض الكبت" هنا هو النتيجة النفسية للاستغلال الاقتــصادي الراســمالي لجسد الانسان وعقله ، كما هو الحال في "فائض القيمة" الذي يحدد النتيجــة الاقتصادية للاستغلال.

أما مفهوم "مبدأ الاداء" لدى "ماركوز" فهو مشتق بالاصل من "مبدأ الواقــع" Principle of Reality لــ "فرويد" والذي تعمل " الأنا " Ego من خلالــه

على التحكم بالنوازع الغريزية لـ "الهو" id طبقاً لمتطلبات الواقع الاجتماعي وشروطه الاخلاقية والحضارية. إن مبدأ الواقع هذا ((هو القاعدة التي ظهرت الحضارة في ظلّها)). ويتفق "ماركوز" في ذلك مع "فرويد"، لكنه يرى ((أن مبدأ الواقع في المرحلة الراهنة، أي في ظل السيطرة الرأسمالية قد اتخذ صورةً مميزةً اقتضت قدراً اكبر أو ضرباً مغايراً من الكبت أكثر مما هو لازم لاستمرار بقاء الحضارة في ذاتها)) (روبنسون ١٩٧٤، ص١٣٠). فكان أن أطلق مفهوم " مبدأ الاداء " على تلك الحالة المتضخمة من الواقع والمتضمنة لقدر كبير من الكبت الفائض.

كما المح "ماركوز" الى ((ان مفهوم "مبدأ الاداء" يطابقُ الوصفَ الكيفي الذي وصف به "ماركس" الوجود في ظل الرأسمالية ، أي مفهومي"الاغتراب" ، "والتشيؤ" [٤] Reification)). وتوصل الى ((إن الحب الجنسي في ظل النظام الرأسمالي عاطلٌ عن مظاهر التلقائية والرعاية ... لقد أصبح الحب مسألة واجب وعادة الى جانب الابقاء على النوع، وظيفةً صحيةً تبقي على القدر اللازم من الصحة البدنية والعقلية لضمان استمرار اداء الجهاز الاقتصادي)) (روبنسون،١٩٧٤، ص١٣٠).

◈ ◈ ◈

ويحدد النفساني الالماني " رايموت رايش " R. Reich ان" البرجوازية" هي التي ((جمّعت الحب والزواج والنشاط الجنسي في مثلث فولاذي شبه طبيعي، اصبحت العائلة في داخله حقاً " خلية الدولة" في عهد الرأسمالية عند ولادتها وفي ذروتها)). إن هذا "المثلث القمعي" كما يسميه "رايش" والذي فرض قسراً من البرجوازية الصاعدة لتثبيت نظامها الاجتماعي الجديد، لم يلبّ التوازن النفسي المنشود للعلاقات بين عناصره الثلاثة، فكان ضرورةً اقتصاديةً اجتماعية أملاها التطور السوسيولوجي أكثر منه

ضرورةً نفسية انسانيةً. ولذلك نلاحظ ((أن البرجوازيـــة نفـسها وباسـم الضرورة ذاتها، سرعان ما اظهرت عدم تضامنها في التـشريع كمـا فـي طريقـــة العيش مع جميع الحركات الطوباوية، الثورية أو الأخلاقية التـي ولدتْ مع الثورة الفرنسية وبعدها)) (رايش، ١٩٧١، ص٢٥٤).

ويصل "رايش " في بحثه الى أن المجتمع الغربي الحديث أصبح يعاني مـن ((عملية فصل متكررة الحدوث، وإنْ لم تكن منهجية بين الحنـان والحـس الشهواني. ولكن هذين الامرين ينبغي لهما أن يتطابقا بداهــةً واساسـاً فـي الزواج الاحادي)) . وأدى ذلك الفصل الى أن الرغبات الجنسية لم تعد قادرة ((أن تجد اشباعاً لها في اطار مؤسسة الزواج البرجوازي الاقتصادية قبـل كل شيء، الا في حالاتٍ وظروف سعيدة استثنائية)). ولأن تلـك الرغبـات غير مقبولة من القيم البرجوازية السائدة ((فلم يكن بوسعها أن تتجسّد إلا في شكل احتجاج. ولم تكن تجد مكاناً لها في المؤسسات الرسمية، بل كان عليها بالعكس، ان تلجأ الى حضيض المجتمع المفعم بؤساً، الى المواخير، والحياة البوهيمية)) (رايش، ١٩٧١، ص ١٥٣ ، ١٥٤).

◈ ◈ ◈

أما الكاتبة والطبيبة المصرية "نوال الـسعداوي" فإنهـا تلـوّن نظرتهـا الماركسية بصبغةٍ متشددةٍ لايقرّها منظّرو الماركسية أنفسهم. فهـي تـرى ((أن الحب الذي يحدث بين الرجال والنساء في عالمنا الحديث أو الذي كان يحدث في المجتمعات السابقة منذ أن امتلك الرجـلُ الارضَ وامتلـك معـه المرأة، ليس هو الحب. فالحب لا يمكن أن يحدث بين سيدة وعبـد أو بـين صاحب سلطة وخاضع للسلطة أو بين اقوى وأضعف أو بين أعلى وأدنى)). وهكذا يصبح كل التاريخ البشري على الارض خالياً من أي شكل من اشكال الحب بين المرأة والرجل ما دام هناك ملكية خاصة. أما "الحب الرومانـسي"

لديها فهي ((حبْ مريض، بغير فعل، محرومٌ يتغذى بالحرمان ويعيش على ردود الفعــل)) (السعداوي ، ١٩٧٧ ، ص ١٣٧،١٤٦).

وتضع "نوال السعداوي" شرطاً اساسياً للحب هو "التكافؤ". ومعنى التكــافؤ ((هو أن يكون المحبان متكافئين. إذا كان احدهما له جسم ونفس وعقل فلابد أن يكون الانسان الآخر إنساناً له جسم ونفــس وعقــل ... لكــن المجتمــع استأصل من المرأة عقلها ونفسها فلم يعد في إمكان الرجل أن يتبادل معهــا الحب. كل ما يمكن أن يحدث بينهما هو نوع من الاتصال الجنسي، ليس هو الحب بأي حال من الأحوال)). فالحب ((عملية واعية ترتكــز في اساســها على الاختيــــار الحر والارادة)). وعلى هذا الاساس لا يمكن للحــب ((أن يقوم على علاقةٍ يشوبها استغلال أو يشوبها احتياج من أي نوع. الحــب لا يقوم لأن الإنسان يريد ان يأكل أو يشرب أو يتناسل. الحــب لا يقــوم لأن الانسان يريد أن يحصل على حمايةٍ أو وصاية . الحبُ لــيس هروبــاً مــن مشاكل الحياة، وليس رغبةً في الحصول على المأوى أو الامان أو الضمان الاجتماعي. الحب ليس تبادلاً للمنفعة، وليس بحثاً عن الراحة فــي الحيــاة والتكيف المريح معها. الحبُ ليس هروباً من وحدةٍ أو ملل أو فشل)). أمــا الجنس فإنه ((ليس رغبة الجسم وحده، ولكن رغبة الجسم والعقل والــنفس. ولهذا لا يمكن أن نفسر الجنس بيولوجياً فنقول إنه ضــروري للتناســل، أو نفسره فزيولوجياً فنقول إنه بــسبب التغيــرات التــي تحــدث فــي نــسبة الهورمونات في الدم .... الجنس عمل إنساني يرتبط بكيان الانسان لا مــن أجل التناسل وإنما من أجل النمو الروحي في الانسان)). وأخيراً فإن الحــب ((أرقى عملية يمارسها الإنسان لأنه من خلالها تستطيع مكوناتــه الجــسمية

والنفسية والعقلية جميعاً أن تمارس أعلى وظائفها وأعمقها تغلغلاً في كيان الانسان)) (السعداوي، ١٩٧٧ ، ص ١٤٠،١٤٢،١٣٨، ١٣٩، ١٦٢).

وهكذا تفلح "نوال السعداوي" في طرح مشكلة الحب ضمن إطارها الاجتماعي والنفسي والطبقي، إلا إنها تخفق في صياغة رؤيةٍ نظريةٍ متماسكة لمعالجة المشكلة؛ فنراها تتذبذب بين افتراض صورةٍ طوباويةٍ وحدانيةٍ للحب وهو الحب اللاطبقي المتجرد من أي شكل من أشكال الحاجة أو الملل أو الوحدة أو الحماية، وبين تشخيصاتٍ هادئةٍ وموضوعيةٍ لجدلية الحب والجنس وشروط المجتمع! كما إنها في فورة حماسها لقضية المرأة، وتحت وطأة تطلعاتها القوية لنمط من حبٍ جديدٍ مغاير للنمط السائد، كثيراً ما تمزج الرؤية الماركسية المادية بمفاهيم مثالية شاعرية ضمن اطار فكري قلقٍ، يمكن أن نسميه إن جاز التعبير بـ " طار ماركسي مثالي" !



نستدل مما تقدم أن الماركسيين يحددون محتوى كل ظاهرة اجتماعية بنمط علاقات الانتاج السائدة في مكان وزمان تلك الظاهرة، وبالتالي فإن الحب لا يمكن أن يكون انسانياً حقاً إلا في ظروف علاقات انتاجٍ حرةٍ تماماً وخاليةٍ من مفهوم "الانسان السلعة" الذي يستتر خلف كل بناء حضاري طبقي.

ولذلك نراهم في سعيهم لبناء نظريةٍ أخلاقيةٍ في الحب، قد جرّدوا "الحب الرومانسي" البرجوازي من عنصري: الألم والتمرد الفردي، وابقوا على "الايروس" أي العنصر البيولوجي، بعد أن أضافوا اليه شرطاً اجتماعياً اساسياً جديداً وهو المساواة الاقتصادية وتحرر الحياة الاجتماعية من كل أشكال الملكية الخاصة التي جاءت بها علاقات الانتاج غير العادلة. فأصبح

الحب الجنسي بين المرأة والرجل في نظرهم، ظــاهرة اجتماعيــة واقعيــة مرتبطة بالضرورة بالبناء التحتي للمجتمعات، وإنْ كان هذا الارتباط لــيس خطياً أو سكونياً بسيطاً وكأن الحب نتاجٌ ميكانيكي مباشر لعلاقات الانتــاج دون ادخال العناصر الفكرية الأخرى في معادلة تكوينه. وذلك ما أكد عليه " فلاديمير لينين " V. Lenin (١٨٧٠- ١٩٢٤) م مؤسس الدولة الــسوفياتية بقوله: ((إن الميل الى ارجاع تبدل هذه العلاقات "بين الجنسين" الى أســاس المجتمع الاقتصادي بغض النظر عن كل صلة بالايــديولوجيا، لــيس مــن المذهب الماركسي وإنما من المذهب العقلاني)) (دوبــون، (فــي) لينــين ، ١٩٧٣، ص ١٠٧).

وهذه الظاهرة (أي الحب الجنسي) تتــألف فــي بنيانهــا مــن عنــصرين: البيولوجي والاجتماعي؛ الا أن البيولوجي هنــا يتبــع الاجتمــاعي ويلبــي متطلباته، لأن الاجتماعي نجح في ترويضه واعادة إنتاجه طبقــاً لاشــكال الوعي الناجمة عن الأنسنة المستمرة لطبيعــة الانــسان، وعــن الابتعــاد التدرجي عن الخصائص الحيوانية البدائية له. فأصبح الحب الجنسي الفردي المنشود رابطةً حرةً بلا ألم ولا شقاء ولا موت. بل إنه صار يهدف الى اللذة والسعادة في هذه الحياة الأرضية بالذات، بعيداً عن أي تجليات صــوفية أو نوازع تطهرّية تتعلق بعالم آخر مفتــرض. ولا تتحقــق هــذه الرابطــة إلا بالاتصال المتكافيء مع شريكٍ من الجنس الآخر ذي فردانيةٍ متحررةٍ مــن كل أشكال الاستغلال والتملك.

ولنستمع الى الشاعر الفرنسي "بول ايلوار" (١٨٩٥- ١٩٥٢)م الــذي بــدأ سريالياً وانتهى ماركسياً ، وهو يحدد ملامح هذا الحــب (ايلــوار، ١٩٨٤، ص ٨):

((تلك التي أحبُّ ،

تجسّدُ رغبتي في الحياة

الحياة التي ألتقيها الآن فاذا هي أبــداً الآن

رغبتي في حياةٍ بلا حسرةٍ

في حياةٍ بلا ألمٍ ، في حياةٍ بلا موت

ولأنه ليس ثمة حياة أخرى فإنها حياة رائعة !)).

◈ ◈ ◈

لاشك أن العلوم النفسية والاجتماعية الحديثة تتفق الى حد كبير مع الفلسفة الماركسية في تنظيرها المتعلق بالأثر الحاسم للبيئة الاجتماعية في تحديد سلوك الانسان وافكاره ومشاعره. ولا تكاد تخلو نظرية نفسية حديثة من التوكيد في أحد مضامينها على دور المحيط الخارجي في توجيه سيكولوجية الانسان. لكن النقطة التي ينبغي التوقف عندها هي أن مؤسسي الماركسية يقرّان بوجود فروق بيولوجية بين الجنسين، إلا انهما يصرّان بحتمية قويةٍ على أن التطور الاجتماعي للحضارة في المستقبل كفيلٌ بالتغلب على كل اللامساواة التأريخية بين الجنسين، وبما يحقق حباً حراً راسخاً بين طرفي كل علاقة. إن نظرتهما التبسيطية هذه للعاملين البيولوجي والاجتماعي (والتي لا تتفق مع منهجهما الجدلي الشمولي) وتغليبهما للعامل الاجتماعي بوصفه مفتاح التغيير المؤكد، كان نتيجةً منطقيةً للحرب الفكرية التي وجدت الماركسية نفسها تخوضها ضد التيارات المثالية والغيبية والمادية الميكانيكية في القرن التاسع عشر، فكان ان أولتْ جلّ اهتمامها لعاملٍ واحدٍ: "العامل الاقتصادي الاجتماعي"، شأنها في ذلك شأن التيارات الفلسفية والعلمية المهمة التي ظهرت في المرحلة الواقعة بين منتصفي القرنين التاسع عشر

والعشرين، والتي ركزت اهتمامها على عاملٍ واحدٍ أساسي وجدته محـور التفسير والتنبؤ ، كالداروينية (عامل التكيف البايولوجي)، والفرويدية (عامل الجنس)، والحيوية Vitalism (عامل الحدس).

إن الغاء الطبقية وتحقيق التوازن بين المتطلبات الاقتـصادية والبايولوجيـة للانسان ، لا يمكن أن يحقق منظوراً كاملاً لحل مشكلة الحـب دون النظـر والبحث في خفايا وميكانزمات عمل الجهاز العصبي المركـزي للانـسان. فالحب بكل أشكاله اداء نفسي يعكسُ آليةً ماديةً فزيولوجيةً هي " الانفعـال" Emotion (كما سنتعرف على ذلك في الفصل الثالث)، ولكنه لا يعكس ذلك بطريقة مباشرة أو بسيطة. فالمسافة العصبية العقلية الواقعة بين ذلـك الاداء النفسي وتلك الالية الجسمية، تكتظ بـالمتغيرات الاجتماعيـة والحـضارية والنفسية للفرد . الإنسان هو الكائن الحي الوحيد القادر على اعطاء الانفعال الهرموني معانٍ معرفية ! فما هي نوع ودرجة الانفعال التي تحقق مفهـوم الحب لدى الانسان؟ وما هي نقاط الاستمرارية أو الانقطاع في هذا الحـب والمرتبطة حتماً بايقاع الجهاز العصبي المركزي الخاضـع لكـل مثيـرات الطبيعة والمجتمع. إن تجارب وشواهد كثيرة تدلنا أن الحـب الرومانـسي توقف عن الديمومة بين اناسٍ متكافئين ثقافياً واجتماعيـاً واقتـصادياً . ألا يخلق الاستقرار والهدوء واللاتمايز بين شخـصين وضـعاً يتـسم بالملـل ونقصان الانفعال والاثارة الى حد هبوط شحنة الحب الرومانسي (أو الحـب الجنسي الفردي كما كان يسميه "انجلز") عن ذروتها المنشودة، بـل ربمـا استحالته الى تمثال جميل قديم؟!

إن حلّ المعضلة الاقتصادية للبشر، وتجريد علاقاتهم من طابعهـا التملكـي الظالم، واقامة نمط مـن النظـام الاجتمـاعي الملبّـي للحاجـات العقليـة

والفزيولوجية للانسان والمرتكز على المنطق العلمي في ادارة شؤون الحياة وعلى الادراك السليم لغايات الوجود البشري، ومنع تغريب الانسان واعـــادة توحيده مع ذاته ومع المجتمع، إن كل ذلك ضروري حتماً لظهور نمط جديد من الحب الأصيل الحر بين المرأة والرجل، إلا أن الامــر لابــد أن يظــل مرتبطاً بالتحليل الفزيولوجي والنفسي لا الاجتماعي فحسب لظاهرة الحــب، وصولاً الى تحديد مفهوم أرقى له يتضمن كــل متغيراتــه دون اســتثناء. فغموض مشكلة الحب تجعلنا نتريث في اطلاق احكام نهائية عــن اصــولها وعن تحولاتها وعن مستقبلها، ولا بدّ أن نبدأ بتجزئتها الى مشكلات فرعيــة اولية قريبة أو الى مستويات اكثر دقة وتفصيلاً، دون أن نفقدَ نظرتنا الشاملة الى الظاهرة بوصفها كلاً فزيولوجياً نفسياً اجتماعياً حــضارياً لا يتجــزأ إلا لأغراض البحث العلمي المصطنعة. وإن التراكم المعرفي لمستويات البحث هذه على بعضها قد يولّد نظرةً كليةً جديدةً نسبياً للحب، يكــون لهــا أثرهــا المهم في العلوم الاجتماعية الأخرى فضلاً عن علم النفس، فنقرر عنــد ذاك هل الحب ضرورة طبيعية لابدّ منها تتعلق بالتجاور البيولوجي بين الكائنات الحية عموماً وبين بني الانسان خصوصاً؟ أم هو تعبير عن حاجــة الفــرد لكسر طوق عزلته الكونية والاجتماعية بتوجيه مشاعره نحو موضوع يخفف عزلته؟ وهل الحب الرومانسي نغمُ يَعزفُ على اوتار الجهاز العصبي فــي كل مكان وزمان، وبالتالي لا فرق جوهري بين انماطه عبر العــصور؟ أم شأنه شأن الغيرة والخوف والغضب هو نتاج فوقي من المشاعر والافكــار المتغيرة في ماهيتها ودرجتها حسب درجة تطــور العلاقــات الاقتــصادية والاجتماعية المحيطة به؟ ومتى يضعف العامل البيولوجي في الحب ويقوى

العامل الاجتماعي؟ ولماذا يفشل الحب الرومانسي في ظــروف الاســتقرار والأمان، فيما ينجح ويتطور ويتقد في الظروف القاسية غير المؤاتية؟

يتطلب الامر اجابةً دقيقةً تستوعب في طياتها كل هذه الاسئلة مرةً واحــدة، كي تنطفيء أوهام التنظير لدى الفلاسفة والعشاق، وينيــر يقــينُ الحقيقــة العلمية!

هوامش

(١) **روزا لوكسمبورغ** Rosa Luxemburg (١٨٧١-١٩١٩)م:

ثورية ألمانية يسارية متطرفة. ولدت في بولندا. تزعمت رابطة "سبارتاكوس" بالاشــتراك مع "كارل ليبكنيخت" Karl Liebknecht، واغتيلت معه في برلين. ألفت كتاب "تــراكم رأس المال" ١٩١٣ (Thorne,1961 ,p818) .

(٢) **جورج فيلهيلم فريدريش هيغل** G. W. F. Hegel (١٧٧٠-١٨٣١)م:

فيلسوف ألماني مثالي موضوعي. من أعظم الفلاسفة تأثيراً في تاريخ الفلسفة. ولا يمكــن أن نفهم الماركسية والوجودية والبراجماتية دون أن نفهم "هيغل" وتــأثيره فيهــا جميعــاً بالسلب والإيجاب. أصدر أهم كتبه "فينومينولوجيا العقل" أو "علم ظواهر الروح" ١٨٠٧م. يتميز أسلوبه بالتجريد والتعقيد والاصطلاحات الكثيرة. يقول أن الوجود الحقيقي هو وجود العقل دون أن ينفي وجود الماديات، فالعقل الواعي هو الموجود الحقيقي وهو الذي يفعــل في حرية ويزيد من وعي الناس بماهية ما يقومون به. يقوم منهجه على تطــور جــدلي ثلاثي (أثر كثيراً في أفكار "ماركس" لاحقاً) يبدأ بالموضوع أو القضية التي تنقلــب إلــى نقيضها ثم تأتلف مع النقيض، ويطبقه على مظاهر الوجود: الطبيعة والتــاريخ والــروح. وليس التاريخ البشري بالمفهوم الفلسفي الهيغلي إلا تجسيد العقل الكلي أو المبــدأ المــنظم للخلق الذي لا يبلغ وعيه بذاته إلا في الإنسان وحده. وبدون هذا التطور التاريخي للإنسان لا يكون هناك إله؛ أي أنه لا يؤمن بوجود إله مفارق، لكنه يعتقد أن القوة التي تعمل على تطوير الكون وتشكيل الإنسان يمكن أن تتــسمى باســم آخــر صــورة تتبــدى عليهــا. (الحفني، (ب)، بلا تاريخ، ص ٥١١-٥١٣).

(٣) **لويس هنري مورجان** L. H. Morgan (١٨١٩-١٨٨١)م:
عالم أمريكي من علماء الأجناس والآثار. درس طريقة حياة الهنود الحمر، وجمع قـدراً هائلاً من المعلومات عن تاريخ المجتمع المشاعي البدائي. وقد عمم هذه الحقائق في كتابه "المجتمع القديم" ١٨٧٧. كان من بين أول من أثبتوا أن العائلة ظاهرة تاريخية تتغير مـع تغير المجتمع (روزنتال، ١٩٨٥، ص: ٥٠٩).
(٤)
* **الاغتراب** Alienation: الغربة والاغتراب والاستلاب بمعنى أن لا يكون الشيء في مكانه أو الشخص في بيئته وموطنه. والاغتراب لفظة كثر استخدامها في الفلسفة والعلوم والقانون بمعان متباينة. ويكاد يكون "هيغل" هو أول من أدخلها كاصطلاح في لغة الفكر. وعنده أن العقل المطلق أو الله بخلقه للطبيعة والإنسان قد طـرح جـزءاً منـه خارجـه فاستحال هذا الجزء غريباً عنه. وليس التاريخ سوى محاولة الإنسان الدائبـة أن يتعـرف على الطبيعة ومن ثم تنمية وعيه بالمطلق. وقد انتقد "ماركس" فكرة "هيغل" هذه، وأضاف إليها أن الغربة الدينية ليست إلا أحد أشكال غربة الإنسان عن ذاته، فالإنسان لا يخلق الله فقط من نفسه، وإنما يخلق من نفسه كذلك قوانين ومبادئ ومؤسـسات وسـلعاً ورؤوس أموال وينفرق عنها مغترباً وكأنها لم تكن له وليس هو مصدرها، ويبث فيها من روحـه حتى تدب فيها الحياة وتستحيل مخلوقات مستقلة تستعبده وتجعله كالرقيق. وكل هذه الغربة ليست إلا ابتعاداً عن جوهره أو طبيعته الإنسانية. فالإنسان المغترب عن ذاته لـيس فـي الحقيقة إنساناً، فهو لم يعرف نفسه ولم يع تاريخه وإمكانياته. والإنسان غير المغترب هو الإنسان الحقيقي، سيد مصيره وما ينتجه، الذي يحقق لنفسه الحرية (الحفنـي، (ب)، بـلا تاريخ، ص ٥٠). وربط "ماركس" بين الاغتراب وبين الملكية الخاصة وتقـسيم العمـل المتطاحن، ورأى أنه يشتمل على جميع أوجه النشاط الإنسانية، إلا انه ركز على اغتراب العمل، ونظر إليه على انه أساس جميع الأشكال الأخرى من الاغتراب بمـا فـي ذلـك الاغتراب الأيديولوجي. وكشف النقاب عن وسائل إزالته بالقضاء على الملكية الرأسمالية (روزنتال، ١٩٨٥، ص ٢٦).
ولتفسير الاغتراب، تذهب الماركسية إلى ((أن بعض الأفراد يغتربون عن أعمالهم لأسباب موضوعية كامنة في علاقات الإنتاج، ونسق السيادة الطبقي، مما يؤدي إلى انفصالهم عن

العمل أو نتاجه. كما يؤدي في نفس الوقت إلى اغترابهم عن الطبيعة وعن ذواتهم. ومعنى ذلك أن العمل يعد شيئاً خارجياً عن العامل وليس جزءاً من طبيعته، مما يخلق عنده شعوراً بالبؤس وعدم الرضا، فلا يستطيع أن ينمي بحريته طاقته الفزيولوجية أو العقلية ويفقد حريته واستقلاله الذاتي ويصبح ملكاً لغيره أو عبداً للأشياء المادية، يتصرف أصحاب السلطة فيه تصرفهم في السلع التجارية.)) (بدوي، ١٩٨٢، ص ١٥، ١٦).

وللاغتراب تعريفات ومضامين نفسية أيضاً بوصفه واحداً من أهم الظواهر النفسية الاجتماعية المرافقة لظهور المجتمعات الحديثة والمتعلقة بشعور الإنسان المعاصر بفقدان الهوية. وقد اكتفينا بتقديم هذا التعريف الفلسفي السوسيولوجي نظراً لتطابقه مع ما كان يرمي إليه "ماركوز" في طروحاته.

* **التشيؤ** Reification: من الناحية اللغوية هو التمدّي (جعل الشيء مادياً)، أي تحويل الشخص أو المفهوم المجرد إلى شيء. [(Fowler, 1975, p.1045).

ومن الناحية السوسيولوجية، يرى "كارل ماركس" أن "التشيؤ" أو "التجسيد" هو أحد نتائج الاتجاه نحو "الفيتيشية" Fitishism (عقيدة سحرية دينية تؤمن بأن جسماً طبيعياً أو صناعياً، حياً أو جماداً، يحوز على قوة غير طبيعية فعالة خاصة نتيجة حلول الروح فيه، وبالتالي ينبغي استرضاؤها) التي تجسم التجريدات في صورة أحكام طاغية. وفي النظام الرأسمالي تصبح منتجات النشاط البشري كالسلع والنقود والملكية أشياء قائمة بحد ذاتها وتحوز قوة طاغية تسحق الأفراد الذين ينزلون بدورهم إلى حالة الأشياء. وتصبح السلعة التي ينتجها العمل كائناً غريباً أو قوة مستقلة تواجه الإنسان. و"التشيؤ" أو "التجسيد" تعبير أكثر واقعية للدلالة على "الاغتراب"، وبنوع خاص الاغتراب الاقتصادي؛ ذلك أن الإنتاج المسلوب من العامل والذي يستأثر به الرأسمالي يعني أن عمله لا يصبح فقط مجرد شيء يتخذ وجوداً خارجياً بأن يصبح سلعة، بل يعني أيضاً أن عمله يوجد خارجاً عنه ويصبح قوة مستقلة في مواجهة العامل (بدوي، ١٩٨٢، ص ١٥٩، ٣٥١).

ويتسع مفهوم "التشيؤ" في ظل الأنظمة الرأسمالية ليشمل جميع الأنشطة الاجتماعية بما فيها القيمة المعنوية للبشر ونمط علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية ومحتوى نتاجاتهم الفكرية، متخذة في مضمونها النهائي طابعاً نفعياً (شيئياً) فاقدة صفتها الإنسانية.

المنظور الوجـــودي للحب

كان في حياتي نجاحٌ مؤكد: علاقاتي مع "سارتــــــــر" خلال اكثر من ثلاثين سنة، لم ننم ليلــة واحــدة غيــر متحدين. وهذه التوأمية لم توهــنِ الاهتمــامَ والتشويق الذي كنا نجده في محادثتنا !

سيمون دي بوفوار

(مشروع الحياة)

"الوجودية" Existemtialisn تيار في الفلسفة الحديثة، يقول بأسبقية الوجــود على الماهية. وأن الانسان يوجد أولاً ثم تتحدد ماهيته باختياراته ومواقفــه. وهي مذهبٌ مختلفٌ بشأنه حتى بين اتباعه. وهو وإنْ بدا عصرياً الا انهــم يردونه الى "سقراط ". ولأن الوجودية فلسفة الوجود فهي ضــد المذهبيــة. وهي احتجاج ضد فكرة أن العالم نسق يمكن أن يــستوعبه العقــل. وكــان "دوستويفسكي" Dostoevski وهو من رواد الوجودية يرى أن العــالم بمــا يبدو عليه من نظام ومعقولية ليس الا خداعاً فكرياً. والوجوديــة تــرى أن الانسان لا يمكن فهمه الا في المواقف التي يختارها لنفــسه، وأن اســبابها ليست كلّها خارجية ولكنها في مزاجه وانفعالاته وارادته. فالــشيء عنــد " برنتانو" Brentano لا وجود له الا في قصد الذات أي في انفعالاتهــا بــه وادراكاتها له أو معتقداتها التي تدور حوله. وهو عند "هوســرل" Husserl

لا يوجد خارج وعي الذات المركز عليه، ولايُكتشف ولا يُخلق الا نتيجة للحدس الذي يتركز عليه. ووجود الانسان في العالم عند "هايدجر" Heidegger هو انفعالاته بهذا العالم. والعالم عند "سارتر"Sartre مشتق من الوجود الذاتي للانسان، وهو وجود لا يعتمد على القوانين الموضوعية ومفتاحه هو ما يصنعه الانسان بنفسه. وميز الوجوديون بين الموجود لذاته الذي له وعي وحرية، والموجود في ذاته وهو ببساطة الشيء. والحرية هي جوهر الطبيعة البشرية، وأن فكرة ان الوجود يسبق الماهية لا تعني سوى أن الناس لاتحدّهم طبيعتهم المسبقة عن ممارسة اختياراتهم، وإن اختياراتهم على العكس هي التي تحدد طبيعتهم (الحفني،(ب)، ص٥٢٥).

و"الوجودية " تعرّف الحرية بأنها "اختيار" لممكن واحد من بين عدد لانهائي من الممكنات. وبالتالي فإنها تفصل بين "الاختيار" وظروفه، فيصبح الفرد معزولاً عن الظروف الموضوعية أي عن القوانين، وتصبح الحرية مشكلةً اخلاقيةً بحتة (روزنتال،١٩٨٥ ، ص ٥٧٩).

ينسب مؤرخو الفلسفة الفكر الوجودي الحديث الى المفكر الصوفي الدانماركي "سورين كيركغارد" Kierkegaared. S (١٨١٣ – ١٨٥٥)م، الذي قال: ((كل فرد هو بذاته عالم، له قدس أقداسه الذي لا يمكن أن تنفذ اليه يد أجنبية)) (سارتر (أ) ،١٩٦٧،ص ١٩). وكان يعتقد ((إن الوجود الديني أعلى الانواع بين الانواع الثلاثة للوجود الانساني: الجمالي والاخلاقي والديني)) (روزنتال،١٩٨٥ ، ص٤٠٠).

أما الفلسفة الوجودية باطارها المعاصر، فقد ظهرت بعد الحرب العالمية الاولى في المانيا، وبعدها في فرنسا، وبعد الحرب العالمية الثانية في بلدان أخرى من بينها الولايات المتحدة الامريكية. ومصطلح "الوجودية " ادخله

الفيلسوف الكانطي الجديد "ف . هاينمان " ١٩٢٩. وللوجودية شكلان رئيسيان: الوجودية الدينية (المؤمنة) ومن رموزها "مارسيل" Marcel و"ياسبرز" Jaspers و"برديائيف" Berdyaev و"مارتن بوبر" M. Buber؛ والوجودية الالحادية ومن رموزها "هايدجر" و "سارتر" و "كامو" Camus. والوجودية بكل أشكالها رد فعل لا عقلاني إزاء المذهب العقلاني لعصر التنوير والفلسفة الكلاسيكية الالمانيين. ويذهب الوجوديون الى أن العيب الجوهري في الفكر العقلاني هو إنه انطلق من مبدأ التناقض بين الذات والموضوع، أي انه قسّم العالم الى مجالين: الموضوعي والذاتي. فيما تعتقد الوجودية ان الفلسفة الأصلية ينبغي أن تنطلق من وحدة الذات والموضوع. وهذه الوحدة تتقمصُ الوجود أي تتقمصُ واقعاً لاعقلياً معيناً (روزنتال،١٩٨٥،ص ٥٧٩).

وتأسيساً على هذه الأفكار يصبح لكل من مفهوم " القلق" و"الألم" و"الزمان" و"الادراك" و"الحب" أسسه ومتطلباته وشروطه المستمدة من نظرة الوجودي الى الذات والعالم.

يعرّف "عبد الرحمن بدوي" الحبَّ بمعناه الوجودي بأنه: ((امتصاص الذات للغير وافناؤها له في داخلها، والدافع اليه تملّك الغير كأداة لتحقيق الممكن. ومن هنا ارتبطت به فكرة التملك الخالص وهو ما يسمّونه الاخلاص في الحب أو الأمانة في الزواج، لأن في هذا تحقيقاً للوجود الذاتي على نحو أكمل. ولذا يظلّ طابعُ الملكية قائماً بالحب حتى في أعلى درجاته)). ولكنه يستدرك قائلاً: ((إنما الفارق بين الملكية والحب إن الموضوع فيهما مختلف)): فوجود الغير ينقسم الى وجودٍ لذات شاعرة ووجود لأشياء جمادية؛ والى الوجود الأول يتجه الحب، بينما الملكية الى الوجود الثاني.

والغاية واحدة بالنسبة الى الذات في كلا الأمرين، فأنها لا تريد هنا أو هناك الا تحقيق امكانياتها. ولما كانت الذوات في مرتبة أسمى من الاشياء من أجل تحقيق هذه الغاية، فإن الحب أسمى من الملكية. وهكذا تتسع الذات وتمتدُ حتى تشملَ بوجودها كل الذات الأخرى، ولهذا ((فإن الحب الذي يبدو في أول الأمر إيثاراً ينتهي بأن يكون في أسمى درجاته إثرةً الى الحد الاعلى)). و"الحب الوجودي" لاتزول فيه التناقضات والتعارضات ولا تتوفر فيه السكينة والطمأنينة والأمن، بل بالعكس ((يشملُ كلّ تعارضٍ ولا يقوم على غير هذا التقابل الحاد. فالحب ليس سكونياً بل هو حركة صادرة عن قلق مستمر)) وله خاصية أخرى ذلك إنه ((لا يُشتَرطُ فيه التبادل. فمن يحب حقاً لا يعنيه حقاً أن يكون موضوعُ حبه يبادله حباً بحب، إنْ كان يريد الحب بمعناه الحق على هيئة تغير وحركة باستمرار ... لأن تبادل الحب يقضي على الحب نفسه كحركة متوثبة تسعى لاثراء الذات باستمرار؛ وهذا هو السر في تبدد الحب بمجرد حظوة المحب برضا الحبيب)). وهذه النظرة الى الحب بوصفه مصدراً للاثراء والخلق ((هي التعبير أو التفسير الوجودي لارتباط الحب بغريزة النسل)) (بدوي ، ١٩٨٣ ، ص ص: ١٦٤-١٦٦).

إذن، فأن للحب الوجودي طبيعة "ايروسية" واضحة، فهو ديالكتيكي المضمون، لا يعيش ولا ينمو ولا يتجدد ولا يخلق الا في القلق وعدم التحقق الكامل. وهو في صورته هذه امتداد للهاجس الوجودي: الوجود يعني أن أراقبه من الخارج، قريباً أو بعيداً، واذا شاء أن يندمج بي فلا مانع بشرط أن لا أسلّم ذاتي له، فهو غريب عني مهما حصل.

واذا كان الحب يمثلُ أشد تحقيقٍ للنزعة الوجودية بوصفه إثراءً للذات وتلبيةً للامكانيات، فأن "الكراهية" في هذا السياق لا تعني افقاراً للوجود، ((فالذات

في محاولتها اغناء نفسها لابدّ أن تصطدم بما لا يريد الدخول في حوزتها من الأشياء أو الذوات الغيرية، مما يولّد عندئذٍ الشعور بالكراهية نحو هذا الغير النافر المتأبي. فالكراهية اذن طابع ضروري للوجود)). وهذا التضاد الجدلي المتزامن بين الحب والكراهية هو الذي يولّد تلك الحالة الشعورية المتوترة للحب الوجودي: "الغيرة"، ((لأنها جامعةٌ لأعمق محبة بالنسبة الى المحبوب، وأشد كراهية لما عداه أو لكل ما يبعده عنه؛ فهي بالمعنى الوجودي إذن توكيد مطلق للذات واستبعاد لما يغايرها، وهي لهذا حبٌ كاره)) (بدوي، ١٩٨٣، ص١٦٨، ١٦٩).

وبعيداً عن هذا التجريد المطلق للمشاعر والانفعالات من كل مكونات نسبية، حاولت المفكرة الفرنسية الوجودية "سيمون دي بوفوار" Simone De Beauvoire (١٩٠٩-١٩٨٦)م رفيقة "سارتر" فكرياً وعاطفياً ((والتي كان لنتاجاتها الفكرية تأثير جوهري في إغناء الفلسفة الوجودية بإحساس أنثوي)) **(Thorne,1961,p.363)**، أن تمنح مشكلة الحب الوجودي بعداً اجتماعياً اقتصادياً تاريخياً يتصل بالتفاوت بين الجنسين وبهيمنة الرجل النفسية والاجتماعية على حرية المرأة عبر التاريخ، والنابعة من امتلاكه لوسائل الإنتاج والثروة. فقدمت في كتابها الشامل عن المرأة ((الجنس الثاني)) The Second Sex وصفاً نفسياً دقيقاً لسلوك المرأة والرجل في الحب، بقولها: ((لقد وجد الرجال أن بمقدورهم أن يكونوا عشاقاً مشبوبي العاطفة في أوقات معينة من حياتهم، ولكن لا يوجد بينهم من يمكن أن يطلق عليه "عاشق عظيم"، ذلك أنهم في أشد نشواتهم اتقاداً لا يتنازلون أبداً بصورة تامة؛ فحتى إذا ركعوا على ركبهم أمام سيدة ما، تستمر الرغبة لديهم في إمتلاكها؛ وحتى مع المخلوق الأحب في حياتهم فإنهم يظلون تابعين مهيمنين؛ فالمرأة

الأثيرة لديهم ليست إلا قيمة واحدة من بين قيم أخرى؛ يرغبون بدمجها في داخل وجودهم، دون أن يبددوا وجودهم كليةً من أجلها.وعلى النقيض من ذلك، فإن الحب لدى المرأة يعني التخلي عن كل شيء لمصلحة السيد الرجل)) (Beauvoire,1976,p.653).

وتقترب "بوفوار" كثيراً من المنظور الماركسي عندما تحدد شروط الحب المنشود، الذي ترى أن تحققه يرتبط بالتكافؤ الاجتماعي والاقتصادي بين الجنسين، فتكتب: ((يستلزم الحب الأصيل اعترافاً متبادلاً بين حريتين، فالعاشقان عند ذاك سيكتشفان نفسيهما كذاتٍ وكآخر معاً؛ فلا أحد منهما سيكف عن التجاوز (السمو) Transcendence، ولا أحد منهما سيشوّه؛ وسيبديان قيماً وأهدافاً مشتركة في العالم. سيغدو الحب لكلا الطرفين إظهاراً للذات من خلال منح هذه الذات ومن خلال إغناء العالم)) **(Beauviore,1976,p. 677)**.

ولا تخفي "بوفوار" تفاؤلها من إمكانية تحقق هذا الحب الأصيل المرتبط أساساً بتحرر المرأة وتكافؤها مع الرجل في المستقبل (على عكس المنظور المتشائم الذي جاء به "سارتر" لمشكلة الحب، كما سنرى بعد قليل): ((في اليوم الذي ستتمكن فيه المرأة أن تحب لا في ضعفها بل في قوتها، ليس هرباً من نفسها، بل من اجل العثور عليها، ليس إذلالاً بل تأكيداً لذاتها، في مثل هذا اليوم سيصبح الحب بالنسبة لها، كما هو بالنسبة للرجل، مصدراً للحياة وليس خطراً مميتاً)) **(Beauviore,1976,p. 679)**.

إلا أن المشكلة الكبرى في الحب، كما لاحظ " جان بول سارتر " J.P.Sartre (١٩٠٥ – ١٩٨٠)م ((ليست هي مشكلة الوفاء، ولا هي مشكلة التفاوت بين الجنسين، وإنما هي مشكلة الصراع بين حريتين)). ويقول

"سارتر": ((إن "نظرة" الغير اليّ انما تشعرني بأن لي طبيعة خارجية يراها الآخرون كما يرون سائر الاشياء. وكأننا في نظرهم مجرد "موضوع" يحكمون عليه من وجهة نظرهم الخاصة. ففي نظرة الآخرين إنكار لحقيقتي الباطنية التي لا أملك أن أظهرها في الخارج، لأنها ليست "شيئاً" يمكن أن أجسده في "موضوع". وتبعاً لذلك فأن شعوري بأنني "مرئي" من شأنه أن يترتب عليه بالضرورة شعوري في الوقت نفسه بانني لا أملك دفاعاً أمام حرية الاخرين، ما دام في وسعهم أن يحكموا عليّ كموضوع، وأن يطلقوا عليّ ما يشاءون من أحكام)). ويلخصّ "سارتر" كل ذلك بقوله: ((إن في وسعنا أن نعدّ أنفسنا مستعبدين أو غير أحرار، ما دام من الضروري لنا أن نبدو أو أن نظهر أمام الآخرين)) (ابراهيم ،١٩٨٤، ص :٢٦٣).

وعلى ذلك ((فالاتصال بالآخر هو اتصال أخرقٌ أو منقوص بصورة دائمة))، فالفرد كما يرى "سارتر" بحاجة الى الحب ((في سبيل تبرير ذاته عن طريق الآخر الذي يشعره بأن هناك انساناً آخر يقدّره، بيد أن الفرد من ناحية أخرى يشعر شعوراً حاداً بأنه منذ اللحظة التي يحس فيها بأن انساناً آخر ينظر اليه، إنما يحس أيضاً بأن الآخر يسلبه عالمه على نحو من الانحاء، هذا العالم الذي كان يمتلكه وحده حتى لحظة احساسه بالآخر. لهذا فأن العلاقة بين الانسان والآخرين هي التي تخلقُ شقاءه)) (احمد ،١٩٨٥ ، ص١٦١).

إن العقدة الرئيسة في مشكلة الحب لدى "سارتر" ((إنه مشروع يراد به التأثير على حرية الآخر. ولكن "الحرية " ليست "شيئاً"، فهي لا يمكن أن تتقبل التأثير الواقع عليها من الخارج دون رد فعل أو استجابة. ومثل هذه الاستجابة لابدّ أن تحمل في ثناياها معنى الصراع)). ولأن "الموجود لذاته"

وهو هنا الحب، لا يمكن أن يكون موجوداً لذاته وموجوداً في ذاته في وقت واحد، فإن الحب في رأي "سارتر" ((يحمل في باطنه بذور فنائه)) (ابـــراهيم ،١٩٨٤، ص٢٦٥، ٢٧١ ،٢٧٥).

وهو يرجعُ فشل الحب الـــى ثلاثـــة عوامـــل رئيـــسة (ابـــراهيم ،١٩٨٤، ص٢٧٣):

- **العامل الاول:** إن الحب في صميمه ضرب من الخداع الذاتي لانه يتضمن حركة أو تسلسلاً الى ما لا نهاية. فليس السبب في فشل الحب هـــو نقـــص الكائن المحبوب أو ضعفه أو عدم جدارته، بل هو ادراكنا الضمني لاستحالة تحقيق المثل الأعلى الذي يهدف اليه الحب. وكلما زاد حبُ الآخر لـــي زاد فقداني لوجودي، وبالتالي زاد ارتدادي الى مسؤولياتي الخاصة .

- **العامل الثاني:** إن استيقاظ الآخر ممكن في كل لحظة. ومـــن ثـــم فـــأن باستطاعته ان يحيلني الى مجرد موضوع في أي لحظة. ولهذا فأن المحب يحيا دائماً في حالة عدم اطمئنان.

- **العامل الثالث:** إن الحب يريد دائماً أن يكون مطلقاً، ولكن تدخل الآخرين لابد أن يخلع عليه طابعاً نسبياً. ولو أُريد للحب أن يظـــل محتفظـــاً دائمـــاً بطابعه من حيث هو((محور مطلق للأحالة)) لوجب أن يبقى المحب وحـــده مع المحبوب! ولكن الآخر لابد أن يظهر، وبالتالي فأن المحب لابد أن يشعر بضرب من " الخجل " أو " الزهو" أمام الآخرين.

لقد تأثر "سارتر" فيما يبدو بمقولة الفيلسوف الالماني المثالي الموضـــوعي "جورج فريدريش هيغل" (١٧٧٠ – ١٨٣١)م: ((كلُ ضميرٍ انما ينشدُ موت الآخر)) (ابراهيم ،١٩٨٤، ص ٢٧٣). فليس غريباً اذن أن نراه (ســـارتر) يردد في الكثير من رواياته ومسرحياته: ((إن الآخرين هم الجحيم !)).

غير أن "سارتر" حاول جاهداً أن يمنح لوجوديتـــه أبعـــاداً فكريـــة ماركسية كي يحقق منها فلسفة تأريخية تفسيرية لا تفتقر الى قدرة الأحاطـــة بالقوانين الاجتماعية، وهو الأمر الذى ينكره أغلب الوجــوديين الآخـــرين؛ فنراه في بعض مؤلفاته يستخدم مفردة "الثوري" في وصفــــــه للوجـــودي ذى المشروع الثوري. فيكتب في كتابه "الماديـــة والثـــورة": ((إن واقعيـــة الثوري تقتضي وجود العالم والذاتيـــة كليهما، لا بل تقتضي الترابط بينهمـــا بحيث لا يمكن أن نتصور ذاتية خارج العالم، و لا عالماً لا يـــضيئه جهـــد ذاتية)). وهو يؤكد أن رأيه هذا مطابق الى ((رأي "مـــاركس" حتـــى العـــام ١٨٤٤ قبل لقائه المشؤوم مع "أنجلز")) (سارتر، (ب)، ١٩٨٠، ص٣١).

لكن "سارتر" لا يعطي ماهية تأريخيةً اجتماعيةً تطوريةً لهذه الذاتيـــة، بـــل يعدّها مفهوماً حراً اختيارياً ذا صبغةٍ فلسفية مثالية ولا يخضع فـــي وعيـــه لمحددات التطـــور الأجتماعي، ولذلك يتساءل: ((إن السعادة في جوهرهـــا ذاتية، فكيف يمكن أن توجد في عالمٍ من الموضوعية ؟)). ولكنه يعود فـــي تناقض آخر ليقول: ((إن الثوري ينفر مـــن تـــصوير المثاليـــة للتغييـــرات الحاصلة في العالم على أنها من نتائج الأفكار. فالموت والبطالـــة والجـــوع ليست أفكاراً ولكنها وقائع معاشة)). وبعد أن حدد أن السعادة في جوهرهـــا ذاتية، يعود ليقرر ((إن الحرية لا تُكتشف الا في الفعل، وهي والفعل شـــيء واحد .. انها تلد مستقبلاً يمكننا من أن نفهم ونغير الحاضر)). ثم يصل الـــى أن ((كلاً من المثالية والمادية تبددان الواقع، الأولى تبدده لأنها تزيل الشيء، والثانية تبدده لأنها تزيل الذاتية)) (سارتر،(ب)، ١٩٨٠،ص ٢٨-٣١).

واستناداً إلى المسلّمة الفلسفية الوجودية القائلة أن الوجـــود يـــسبق الماهية، فقد وجه "سارتر" نقداً شاملاً إلى الماركسية دون أن يخفي إعجابـــه

واقتناعه ببعض جوانبها، فاستنكر أن يكون الجدل المـــادي قانونـــاً يحكـــم الطبيعة والتاريخ والفكر لأن ذلك يعني أن التاريخ يتحقق خارجاً عنا ودون حاجة إلينا. وربط الجدل بالإنسان، وجعله جدلاً إنسانياً، فرغم أن الإنـــسان موجود مادي يعيش في وسط مادي، إلا أنه موجود يريد باستمرار أن يؤثر في المادة ليستحدث تعديلات في النظام الكوني ويفجر مواقف جديدة يحـــرك بها التاريخ. وسعى إلى فهم الإنسان في كل مواقفه، ولم يتوقف عند مجـــرد مواقفه الاقتصادية، ووصف الإنسان بأنه مشروع دائم يتجاوز حاضره إلـــى مستقبله، وأنه لا يحقق ذاته أبداً وأنه دائم الخروج من ذاته ليـــسجلها علـــى المادة ويطبعها بطابعه الإنساني. وإن الإنسان هو الذي يصنع تاريخه، وأنه دائم التجاوز لمواقفه، وإن لا وجود لأي قانون خارجي أو قوة علوية تفرض إرادتها على التاريخ الإنساني، ومن ثم يرفض "سارتر" الحتمية الاقتـــصادية الماركسية ولا يقر بأن الناس مجبرون اقتصادياً وحضارياً ببعض الظروف المادية، ويرفض الجبرية الماركسية التي لا تدع مجالاً للوعي الفردي. لكنه يعترف أن الوجودية لن تهزم الماركسية ولن تخرجها من الساحة، ولا أمـــل للوجودية أن تفرض نفسها كمذهب عصري، لأن الماركسية فلـــسفة ثوريـــة تستحدث تغييرات جذرية في نظام الملكية والإنتاج والتوزيع، ولأنها تجعـــل من العمل والفكر شيئاً واحداً، لكن الوجودية يمكن أن تساعدها بأن تخرجها من حصار المادية والحتمية، بأن تفسح الوجودية مكاناً داخـــل الماركـــسية للحرية الفردية، وأن تكون مع الماركسية فلسفة واحديـــة للطبقـــة العاملـــة (الحفني (ب)، ص ٢٢٩-٢٣٢).

◈ ◈ ◈

إن الشحنة النفسية الانفعالية المصاحبة للهم الوجودي الرافض لقيود وعسف الحضارة الرأسمالية (بصرف النظر عن التأويل الفلسفي لهذا الرفض) يمكن

أن تقدم دعماً معنوياً للماركسي في نظرته وسعيه التحويلي للعالم. غيـــر أن "الوجودية" في نظرتها اللاعقلانية لمشكلة الحرية وردّهـــا الـــى عوامـــل اخلاقية ذاتية بحتة، واصرارها على نفي القوانين الاجتماعية الموضـــوعية المحددة للوعي الفردي، قد أصبحتْ (أي الوجوديـــة) عـــصيةً علـــى أيـــة مصاهـــــرةٍ حقيقية مع الماركسية. وهكذا نرى "سارتر" يتنقل في تنظيراته بين النزوع الوجودي (الذي يوفر له الاشباع النفسي) تـــارةً وبين التحليـــل الماركسي (لذي يوفر له الاشباع الفكري رغم انتقـــاده لـــبعض المفـــاهيم الماركسية) تارةً أخرى، دون أن يفلح في تأسيس منطقة فلـــسفية متماســـكة مشتركة بينهما .

وامتداداً للتناقض الجوهري بين "الوجودية" و"الماركسية"، فأن الموضوعـــة المحورية التي يدور حولها "الحب الوجودي" هي الصـــراع المـــستمر بـــين حريتين بهدف "التملك" وما يتمخض عن ذلك مـــن آلام (ابـــراهيم ،١٩٨٤، ص٢٧٤)، وهذا يخالف تماماً الموضوعـــة المحورية في الحـــب الجنـــسي الفردي المنشود (الذي بشرّ به مؤسسا الماركسية) وهو التبـــادل والمـــساواة وما يتمخض عنها من سعادةٍ ولذةٍ دنيويتين؛ بل أن ما يشعر به الوجودي في علاقة الحب، يشبه في الحقيقة الى حدٍ كبير ما كان يشعر به الرومانسي في العصور الوسطى وما بعدها. فالحب الوجودي والحب الرومانسي كلاهمـــا يتضمن نزعةً إيروسيةً جدليةً لا تخبو، وكلاهما يعاني الألم والشقاء والقلق. واذا كان الشقاء الشاعري المصاحب للحب الرومانـــسي مـــصدره نزعـــة التطهرّ المسيحية أو نزعة التمرد الفردي على قسرية الـــزواج البرجـــوازي ذي المضامين الاقتصادية النفعية، فإن صدمة الحربين العـــالميتين الأولـــى والثانية هي التي ولّدت شقاء الحب الوجودي بوصفه منظوراً فلسفياً وحـــلاً

نفسياً في آنٍ واحد، يبرران عجز الذات أمـــام وحـــشية العـــالم أو جحـــيم الآخرين.

إن الذات البشرية الواعية للضغط الحضاري، إما أن تسعى لتغييـــر العـــالم الذي تعاني منه، فتفهمه ابتغاء تعديله، وإما أن تعده "قدراً" مكتوباً لا مهرب منه، أو "جحيماً" لا يستحق الولوج، عصياً على أن يُعقل، كي تظلّ حريتهـــا العذراء مصونةً في "وجودٍ" مؤقتٍ ينتهي حتماً بالموت. وهـــذا مـــا فعلـــه الوجوديون كي يسوّغوا لاشعورياً سلبيتهم أمام مـــشهد الـــدمار والعنـــف والاغتراب الذي لف اوربا خلال النصف الأول من القرن العشرين.

إن الحل الوجودي، بالرغم من نزعته التحررية الفردية المشروعة، لا يلقي مسؤوليةً على صاحبه تجاه المشاركة في الإصلاح المنظم العقلاني الجماعي لشؤون النفس البشرية المتأزمة فكرياً وعاطفياً، لأنه يرى الحريـــة قـــضية أخلاقية ذاتية ترتبط بالوعي الوجودي للفرد لا بوعيه الاجتماعي ولا بدرجة التطور الاجتماعي والفكري الذي حققه مجتمعه، أي أن وعي الفرد يـــصير مرتبطاً بوجوده الفيزيقي المجرد مـــن هـــذا العـــالم، لا بتـــراكم الخبـــرات الاجتماعية المتفاعلة مع شخصيته والمكونة لماهيته؛ وكأن الإرادة والـــوعي يولدان جاهزين بقياسات معينة مع الإنسان ولا يتصل مضمونهما ودرجتهما بالمتغيرات الاجتماعية المحيطة بهما. وبذلك يظل البناء العقلي والانفعـــالي (وبضمنه الحب) للفرد معزولاً (في المنظور الوجودي) عن حركـــة الكـــل التي سبقته ورافقته، في انفصال قسري غير واقعي، ما دام الكل (الآخرون) يشكل مصدراً أبدياً لتهديد حرية الفرد ولإدامة قلقـــه وســـط هـــذا الوجـــود الموحش والغريب. فأمسى "الوجودي" يقدس حريته الفردية المزعومة إلـــى الحد الذي يرى في كل علاقة بشرية، ومنها الحب، نوعاً من القمع المحتوم.

الفصل الثالث

الحب الأنثوي – الذكري
و علم النفس

" فرويد" و لاعقلانية الحب

إن حب البشرية هو بكل بساطة أداةُ لتجنب قلقٍ حقيقي !

فرويد

إن معظم الناس يعرفون اسم " سيجموند فرويد" Sigmund Freud (١٨٥٦ – ١٩٣٩)م من خلال الجنس Sex وليس الحب. ولكن في الحقيقة إن "فرويد" كان مهتماً اساساً بالحب، اذ نظر الى الجنس بوصفه التربة التي ينشأ منها الحب، وكان الحب هو موضوعه الاساسي. واعتقد "فرويد" أن افضل فهم للفرد يكون خلال مفردات تاريخه في الحب، لأن حياة الحب لدى الفرد هي السيرة النفسية المثلى. واعتقد ايضاً ان "العصاب" Neurosis هو أساساً نوع من عدم القدرة على الحب. وقد لخص "فرويد" تلك الحالات التي أدت به الى دراسة الحب في أول كتبه الذي ألفه بالتعاون مع "بروير" Breuer ، إذ توصلا الى ان جميع مرضى الهسيتريا الذين درساهم دون استثناء هم مرضى الحب Love Sick . كانوا مرضى بسبب عجزهم عن الحب، أو بسبب عجزهم عن الحب مرة ثانية . فكل واحد منهم كان قد فشل في المحافظة على بعض التعلقات السابقة. وكان فشلهم بالطبع عاطفياً، إذ انهم لم يستطعوا استرداد حريتهم من التعلق المبكر. فالألم الذي كابدوه في مرحلة من حياتهم، استمر معهم في شكل اعراض مرضية. وفسر "فرويد" ذلك بأن الشخص يظل متعلقاً باي شيء يستطيع التأثير فيه بقوة. وسمى هذا التعلق بـ ((الحب)) **(Fromme, 1960, p.10,18)**.

ولكي نتقصى مفهوم الحب عند "فرويد"، لا بـدّ أولاً أن نعـرض تـصنيفه للغرائز Instincts. فهو لم يحاول أن يعدّ قائمةً بالغرائز لاعتقـاده أننـا لا نعرف ما فيه الكفاية عن الحالات البدنية التي تعتمد عليها الغرائز. ومع ذلك افترض أنه بالإمكان ادراجها في فئتين عـامتين: "غرائـز الحيـاة" Life Instincts و "غرائز الموت" Death Instincts (هول، ١٩٧١، ص ٦١).

وقد أطلق مصطلح "ايروس" Eros وهو الـــه الحب لدى الأغريق (الـذى سبق شرحه في الفصل الثاني) على "غرائـز الحياة"، التي أصبحت تعنـي لديـه ((دوافع المحافظة علـى الـذات والتكـاثر)) (الحفنـي(أ) ،١٩٧٨، ص٤٣٧). وتخدم "غرائز الحياة" غرض المحافظة على حياة الفرد وتكاثره الجنسي، ويندرج تحتها الجوع والعطش والجنس؛ ويطلـق علـى صـورة الطاقـة التـي تـستخدمها فـي أداء عملهـا اسـم "الليبيـدو"[١] (هول،١٩٧١،ص٦١).

أما الفئة الثانية :"غرائز الموت "، فقد أطلق عليها مـصطلح : "ثانـاتوس" Thanatos وهو اله الموت لدى الأغريق. وغريزة الموت ((تحركها دوافع التدمير، وتتناقض مع غريزة الحياة أو الايروس. وهي تظهـــر كاجبار للتكرار، بأن يجد الفرد نفسه مجبراً على السعي الى الموت بأن يكرر عجلة الحياة العادية)) (الحفني(أ) ،١٩٧٨، ص ١٩٤). وسماها "فرويـد" أحيانـاً "غرائز التدمير"، وعزا اليها أسباب النزاعات والحـــروب بين البـشر، إذ ((إن الطبيعة البشرية محفوفة بمعضلة فظيعة وغير قابلـة للحـل، فعلـى الأنسان إما أن يحوّل غرائزه العدوانية الهدّامة نحو الآخرين، أو أن يوجّهها ضـد نفسه (ملاهي، ١٩٦٢،ص٤٩). وهذا ما دفعه الـى صـياغة قولـه الشهير:((إن هدف الحياة هو الموت)) (هول ،١٩٧١،ص ٧١).

لقد بدأ " ايروس " لدى الاغريق إلهاً للحب وصورته طفل مجنحٌ. وكان رمزاً للقوة المبدعة وإلهاً للرغبة الجنسية. ثم تصوره الرومان طفلاً مجنحاً يحمل سهام الرغبة الجنسية يصوّبها انى يشاء واطلقوا عليه اسم "كيوبيد" (الحفني(أ) ،١٩٧٨، ص ٤٣٧). ثم أصبح لدى " فرويد " تعبيراً دالاً على الجذر الذي تنبع منه كل أشكال العلاقات والنشاطات البشرية. فاستخدامه المجازي الشعري لهذا الاسم ((يستمد اصالته من أن " ايروس" أو "كيوبيد" كان يحب "سايكا" PSYCHE الفاتنة حباً والهاً . واسم "PSYCHE" في أحد معانيه يعني الروح أو العقل أو النفس)) (الحفني(أ)، ١٩٧٨، ص ٢٧٨).

الانسان لدى " فرويد " كائن بيولوجي بالاساس، وبالتالي فأن الحب ظاهرة جنسية خالصة. وقد كتب بهذا الصدد، مستنداً على ولائه لمبدأ اللذة[٢] : ((لقد وجد الانسان بالتجربة أن الحب الجنسي "التناسلي" يزوده باعظم جداراته، حتى لقد أصبح في الواقع نمط جميع السعادة بالنسبة له. ولابدّ لهذا أن يدفعه للبحث عن السعادة أكثر عبر دروب العلاقات الجنسية، لكي يجعل من الشبق التناسلي النقطة المحورية لحياته)) (فروم (ج)،١٩٨١، ص٨١). وذهب " فرويد" الى أن جميع العلاقات القائمة بين الرجل والمرأة، وبين الطفل ووالديه، بين الانسان ومؤسسة العمل ((تنبع من مصدر واحد ... غريزة الجنس " الليبيدو") (صالح (ج) ،١٩٨٨، ص٢٢٦) . وتوصل متأثراً بالنظرية التي وصفها "افلاطون" بين شفاه " ارسطو" في مؤلفه "الوليمة" (والتي سبق الاشارة اليها في الفصل الثاني) الى ((أن الحب كان يفعلُ فعله منذ بدء الحياة. والى أنه يبدو كغريزة الموت منذ أن نُفِخَت الحياة في المادة الجامدة ... وإن هاتين

الغريزتين كانتا تصطرعان منذ بدء الخليقة)) (صالح(أ) ،١٩٨٧، ص٤٨). وبالتالي فأن كل أشكال الحب الأخرى ومنها الحب الأخوي هـــي محـــصلة للرغبة الجنسية المستقرة في الاعماق بوصفها المصدر اللاشـــعوري لكـــل انواع الدوافع والمشاعر والانفعالات، فيقول: ((إن الحب بهدف مكبوت هـــو في الحقيقة مليء أصـــلاً بالحـــب الجنـــسي وهـــو لا يـــزال فـــي العقـــل اللاشعوري[٣] للانسان)) (فروم (ج)،١٩٨١ ،ص٨١).

وفي شرحه لجدلية الفعل الجنسي للحب، يقول " فرويد: ((إن معظم علاقات الحب القائمة بين الرجل والمرأة تسودها درجة من الاندماج بـــين الاشـــباع المباشر لليبيدو في العلاقات الجنسية وبين ليبيدو مكبوح الهدف. وهكذا فـــأن الشخص نفسه يكون موضوعاً جنسياً وموضوعاً للمشاركة الوجدانية، وحين يفشل هذا التركيب من الليبيدو والليبيدو المكبوح الهدف يكون المـــرء غيـــر قادرٍ على أن يشاطر في علاقاته الجنـــسية شخـــصاً آخـــر يـــشعر نحـــوه بالعاطفة)) (صالح (ج) ، ١٩٨٨، ص ٢٢٦). وهنا يميز "فرويـــد" بـــين نوعين من الليبيدو الكامن في الفرد: ((ليبيدو الذات، وليبيدو المعـــشوق)). وكلما زاد نشاط الواحد خفّ نشاط الآخر. وهذان النوعان من الليبيدو كانـــا موحدين في الليبيدو الأصلي الذي يرافق الانسان منذ الولادة. ((إن الليبيدو في الطفل يتمركز اولاً على نفسه، وهذا يعرف بعشق الذات الأولي. وعشق الذات هو على الارجح الحالة الأصلية العامـــة التـــي ينمـــو منهـــا الحـــب للمحبوب)) (ملاهي ، ١٩٦٢، ص٤٨). وهذا يعني ان "الليبيدو" في الأصل له كمية واحدة ثابتة. وفي الحب ينقسم الى كميتين، إحداهما تظـــل متعلقـــةً بالذات، والأخرى تتجه نحو المحبوب. وإن ازدياد احدى الكميتين مرهـــون بنقصان في الكمية الأخرى؛ أي كلما قلت الطاقة النفسية الجنسية الموجهّـــة نحو الذات، كلّما زادت الطاقة النفسية الجنسية الموجهـــة نحـــو المحبـــوب.

وبعبارة أدق: ((حين يزداد موضوع الحب، فـأن حـب الـذات يجـب ان ينخفض. والعكس بالعكس)). وبسبب هذه الرؤية، افتـرض "فرويـد" ((إن علاقة الحب بين اثنين تتعرض باستمرار الى خطر حقيقي متعلـق بفقـدان الحب)) (صالح(ج)،١٩٨٨، ص٢٢٧)، وإن الحب في ذاتـه ((ظـاهرة لا عقلانية)). وبالتالي ((فأن الوقوع في الحب هو دائماً منحـدر علـى شـفا الشذوذ، وهو مصاحب دائماً بالعمى عن رؤية الحقيقـة، وهـو مـصاحبٌ بارغامٍ، وهو تحولٌ من موضوعات الحـب فـي الطفولـة)) (فـروم (ج) ،١٩٨١، ص٨٢). وذلك يعني أن الموضوعات الجنسية المكبوتة (المحرّمة) في فترة الطفولة المبكرة (السنوات الخمسة الأولى من العمر) تتراكم علـى شكل طاقة جنسية في لا شعور الفرد، ثم تـرغم حتمـاً وتحـت الـضغط البيولوجي للدافع الايروسي على التحول إلى موضوعات عاطفية بديلة (أي الوقوع في الحب) يعيشها ذلك الفرد بعد بلوغه.

تركز نظرية " فرويد " في احد مستوياتها الفكرية على مبـدأ "الـسببية "(٤) Causality، إذ يرتبط السلوك دوماً بعلل قبلية (حوافز بيولوجية، وخبرات الطفولة). وبذلك فهي ترفض مبدأ "الغائية"(٥) Purposivism ولا تعتـرف بأن للسلوك مدياتٌ تتصل باغراض مستقبلية. ومعنى ذلك إن "فرويد" ينكر أي نزعة غائية عقلانية عند الانسان، ويقول ((إن عمل الحب على الجمـع بين الوحدات العضوية في وحدات اكبر ثم أكبر، قد يكـون بـديلاً لنزعـة الكمال الغريزية التي يقولون بها، والتي لا نعترف بوجودها فـي الفطـرة الانسانية)) (فرويد،١٩٧٦،ص٦٤). ولذلك فأن الحب لديه كظاهرة عقلانية، كتحقيقٍ يتوج النضج ((مسألة لا تستدعي البحث حيث إنه لا وجـود لـه)) (فروم(ج)،١٩٨١، ص ٨٢).

إن أحد العوامل الاجتماعية المحددة لظهور نظرية "فرويد" ((يكمن في المفهوم السائد عن الانسان القائم على اساس بناء الرأسمالية))

(فروم(ج)،١٩٨١، ص٨٢). فالانسان بالمفهوم الرأسمالي بطبيعته ذو نزعة تنافسية ومليء بالعداوة المتبادلة؛ ولأجل تثبيت هذا المفهوم وتسويغ أن الرأسمالية بطبيعتها الاقتصادية والاجتماعية تستجيب لاحتياجات هذا النمط المفترض من الانسان، دأب رجال الاقتصاد منذ اواسط القرن التاسع عشر على البرهنة على ذلك في اطار الرغبة النهمة للكسب الاقتصادي، كما حاول الداروينيون ان يبرهنوا عليه في اطـــــار القانون البيولوجي لبقاء الأصلح؛ أما "فرويد" فقد وصل الى النتيجة ذاتها حين افترض أن الرجل مساقٌ برغبةٍ غريزيةٍ غير محددة للتغلب الجنسي على كل النساء، وأن محددات المجنمع هي التي تحول بينه وبين اطلاق غرائــزه(فروم(ج)، ١٩٨١، ص٨٣).

وبذلك يصبح الحب الجنسي في المنظور الفرويدي شأنه شأن كل المــشاعر الأخرى تعبيراً ظاهراً يستر في اعماقــه اللاشــعورية غيــرةً وتنافــساً لا ينطفئان. وهذه الغيرة المتبادلة والمنافسة المتبادلة كما يرى "فرويد" ((سوف تستمران حتى لو أختفت كل الدواعي الاجتماعية والاقتصادية المسببة لها)) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص٨٣).

لقد اغنى "فرويد" موضوعة الحب الجنسي كما لم يفعل أي فيلسوف أو عالم قبله. وقد أثار اسئلةً عميقةً لم تتحدد اجابتها حتى اليوم. وبالرغم من البنـــاء الجدلي المدهش لنظريته، الا انه أصرّ على سرمدية العامل البيولوجي فـــي الانسان على حساب العامل الاجتماعي. ولم يجمع بينهما الا في الحدود التي يكون فيها الاجتماعي تابعاً للبيولوجي. فظلّ انسان "فرويـــد" ســـجيناً ابـــدياً لحتمية طبيعيةٍ لا مفرّ منها. وظلّ الحب لديه اشباعاً كيميائياً فطرياً، ولـــيس اشباعاً حضارياً نفسياً، فاختزله ببساطة الى مراكز جسدية متنوعة تلبيّ مبدأ اللذة، ورفض فكرة أن تراكم البنى البيولوجية والفزيولوجية للانسان علـــى

البنى الفيزيقية والاجتماعية للعالم الخارجي يمكن أن يولّد بنيةً جديـــدةً مـــن المشاعر، هي في حقيقتها وظيفة أرقى للبيولوجيا !

هوامش

(١) **ليبيدو** Libido : لفظة لاتينية الاصل تفيد معنى الشهوة. استخدمها "فرويد" بوصفها طاقة حيوية شبقية في جوهرها Erotic ، تتمثل فيها غريزة الحياة. تستثمر هذه الطاقة في الانا والغير أو في الاشياء (رزوق ، ١٩٧٧، ص:٢٦٥).

(٢) **مبدأ اللذة** Pleasure Principle : هو الميل او النزوع المتأصل لدى جميع الدوافع والغرائز الطبيعية أو الرغبات نحو البحث عن اشباعها وارضائها بمعـــزل عـــن كافـــة الاعتبارات الاخرى. وتعدّه النظرية الفرويدية بمثابة المبدأ الذي يتحكم بالفرد منذ البداية، ويبقـــى دائمـــاً علـــى صـــورة المبـــدأ الهـــادي فـــي العقـــل البـــاطن او اللاشـــعور (رزوق ،١٩٧٧،ص ٢٦٩).

(٣) شبه "فرويد" العقل بجبل من الجليد، يمثل الجزء الصغير الطافي منه علـــى ســـطح الماء منطقة "الشعور" Consciousness، على حين يمثل الجزء الأكبر الـــذي لا يطفـــو على سطح الماء منطقة "اللاشعور" Unconsciousness. وفي هذه المنطقة الفسيحة من اللاشعور توجد الدفعات الغريزية والشهوات والأفكار والمشاعر المكبوتة التـــي تمـــارس سيطرة طاغية على أفكار الإنسان وأفعاله الشعورية. وتتكون الشخصية لديه من ثلاثة نظم أساسية: "الهو" Id و "الأنا" Ego و "الأنا الأعلى" Super Ego. يتكون "الهو" من كل ما هو موروث وموجود نفسياً منذ الولادة بما في ذلك الغرائز، ويعمل وفـــق مبـــدأ خفـــض التوتر، أي "مبدأ اللذة"، ولا تتوفر له أي معرفة بالواقع الموضوعي. وينبثق "الأنـــا" مـــن "الهو"، ويعمل وفق "مبدأ الواقع". وهو الجهاز الإداري للشخصية وعليه التنسيق وتحقيـــق التوازن بين متطلبات الهو والأنا الأعلى والعالم الخارجي. أما "الأنا الأعلى" فهو الممثـــل الداخلي للقيم التقليدية للمجتمع، وهو الدرع الأخلاقي للشخصية، ويمثل ما هو مثالي وليس ما هو واقعي، وينزع إلى "الكمال" بدلاً من اللـــذة، وينـــشأ اســـتجابة للثـــواب والعقـــاب الصادرين عن الوالدين. وبالرغم من أن كل جزء من هذه الأجزاء للشخصية الكليـــة لـــه

وظائفه ومكوناته ومبادئه وميكانزماته ودينامياته، فإنها جميعاً تتفاعل تفاعلاً وثيقاً، بحيث يصعب إن لم يكن مستحيلاً فصل تأثير كل منها ووزن إسهامه النسبي في سلوك الإنسان (هول، ١٩٧١، ص ٤٨-٥٧).

(٤) "**السببية**" Causality: ((تعليل الأحداث بأحداث أخرى وقعت قبلها، وتسمى الأولى أسباباً والتالية عليها نتائجاً. ونظرية التحليل النفسي لـ"فرويد" نظرية سببية، لأنها تفسر الأحداث والأعراض الحالية بتجارب سابقة وقعت للمرء)) (الحفني (أ)، ١٩٧٨، ص ١٢٦).

والسببية مقولة فلسفية واسعة المضامين، تتعلق بالصلة الضرورية بين الحوادث. كانت وما تزال مجالاً لصراع حاد بين الفلسفات المادية والمثالية. ويساوي البعض بين "السببية" و "العلّيّة"؛ فيما يذهب البعض إلى القول أن "العلّيّة" تختص في البحث في العلل الضرورية المطلقة: الله، والخلق، والطبيعة؛ بينما تختص "السببية" في بحث العلل الاحتمالية كالظواهر الاجتماعية والنفسية.

(٥) "**الغائية**" (القصدية) Purposivism: يستخدم هذا المصطلح لوصف أي نظرية نفسية تزعم أن الأغراض هي عوامل مؤثرة بشكل فعال في السلوك، وأنها بمثابة عناصر مضافة إلى المنبهات (رزوق، ١٩٧٧، ص٢٧٦).

" فروم" والحب الناضج

ليس الحب نتيجةَ الاشباع الجنسي الشديد،
بل أن السعادة الجنسية هي نتيجة الحب !
اريك فروم

إذا كان "إريك فروم" Erik Fromm (١٩٠٠ – ١٩٧٩)م قد خرج من معطف "فرويد" للتحليل النفسي، فإنه شق طريقاً خاصاً به لاحقاً، ميّزه كواحدٍ من اعظم علماء التحليل النفسي المحدثين، ومن اكثرهم غزارة في النتاج العقلي كماً ونوعاً، وفي مختلف مقتربات علم النفس من الأدب والفن والتأريخ وعلم الاجتماع والسياسة.
وقد اتبعّ "فروم" المنهج التأريخي والتحليل الماركسي للرأسمالية (صالح (ب)،١٩٨٨ ، ص٧٨). وكان لهذا المنحى السوسيولوجي الاثر الحاسم في تفرّده وخروجه عن الخط المحافظ للفرويدية الكلاسيكية. فقد اكدّ في نظريته على ((التفاعل بين التركيب الاقتصادي الاجتماعي للمجتمع والخصائص النفسية للأفراد ... وأن الظروف الاجتماعية الاقتصادية يمكن أن تشكل الشخصية، ولكن فقط ضمن محددات الطبيعة البشرية. وحين تتجاوز الحضارة في عملية تشكيلها للشخصية طبيعة الإنسان البشرية، فإن ذلك يقود الى أن يثور الأنسان)) (صالح (ب) ،١٩٨٨، ص١١٧). كما إن معظم مؤلفات "فروم" لا تخلو من تأثرات واضحة بأخلاقيات الفكر الديني عن الحب والحرية، فصاغ مفاهيمه ومصطلحاته ونظرياته النفسية المشبعة برؤاه

الفلسفية وامنياته الأصلاحية، ضمن منظور سيكولوجي جمع العوامل الاجتماعية للواقع البشري بالعوامل الفردية المتاحة لتغييره.

دعا " فروم " الى مجتمعٍ عاقلٍ، حدد مواصفاته ((بالحب القائم بين أفراده والتماسك والشعور بالأخوة والتوجه المنتج، الخالي من الاغتراب وكل مشاعر العزلة والأنطواء على الذات)) (صالح (ب) ،١٩٨٨، ص٧٩) . واقترح اسماً لهذا المجتمع: ((الإشتراكية الإنسانية الجماعية)) (هول ،١٩٧١، ص١٧٧) . لكن " فروم " لا يؤيد العنف الثوري طريقاً لتحقيق هذا المجتمع ، ((فهو أكثر اعتدالاً حيث يدعو الى الاصلاح من خلال أنسنةِ Humanization وسائل الانتاج)) (صالح (ب) ،١٩٨٨، ص:١١٧).

لا ينكر "فروم" وجود الغرائز ولا المناطق العقلية اللاشعورية المحركة لتلك الغرائز. فللانسان ((طبيعة جوهرية فطرية)) (هول ،١٩٧١،ص١٧٦). ((إلا انه يسمو عليها. وعليه أن يجد مباديء للعمل وللقرار تحلّ محلّ مبادىء الغريزة)) (فروم(ب) ،١٩٧٣، ص٧٦). وهو يكرر في أغلب مؤلفاته فكرته الرئيسية: ((إن الانسان يحس بالوحدة والعزلة، لأنه قد انفصل عن الطبيعة وعن بقية البشر)) (هول ،١٩٧١،ص١٧٣). فيقول في كتابه "الخوف من الحرية" The Fear of Freedom ١٩٤١: ((إن تكوين المجتمع الحديث يؤثر في الأنسان بطريقتين في آنٍ واحدٍ: إنه سيصبح أكثر استقلالاً واعتماداً على النفس وأكثر انتقاداً، وهو يصبح أكثر عزلةً وأكثر وحدةً وأكثر خوفاً)) (فروم (أ) ،١٩٧٢،ص٩٠).

وقوام التناقض في الأنسان لدى "فروم" ((إن الانسان هو في آنٍ واحدٍ جزء من الطبيعة ومنفصل عنها. وإنه في آنٍ واحدٍ حيوان وكائن بشري. وهو كحيوان له حاجات فزيولوجية معينة لا بدّ من اشباعها. وهو ككائن بشري

يمتلك الشعور بذاته، والعقل والخيال. ويكّـون هـذا الجانبـان الظـروف الأساسية لوجود الانسان)). ونتيجة لهذا الوضع نتجت خمس حاجات نوعية أساسية للأنسان نابعة من ظروف وجوده: ((الحاجة الى الأنتماء، والحاجـة الى التعالي، والحاجة الى الأرتباط بالجذور، والحاجة الى الهوية، والحاجـة الى إطار توجيهي)) (هول ،١٩٧١،ص١٧٤). ((فالسلوك البشري لا يمكـن فهمه بدقة كاملة من خلال مـصطلحي اشـباع Satisfaction واحبـاط Frustration الحوافز البيولوجية، ذلك إن العملية الاجتماعية تولّد حاجـاتٍ جديدةٍ مماثلةٍ في قوتها أو حتى متفوقة فـي قوتهـا علـى الحاجـات البيولوجية الأصلية)) (Brown, 1977, p.152). وإن هذه الحاجات الخمـسة قـد ((أصبحت جزءً من طبيعة الانسان خـلال التطـور والأرتقـاء)) (هـول ،١٩٧١،ص١٧٥). ويريد "فروم" بذلك أن يقول ((إن الانسان في الحقيقة قد خلقَ " طبيعة بشرية " Human Nature)) خـلال تأريخـه الاجتمـاعي؛ وبذلك فهو يرفض محاولات المفكرين الذين وصفوا المشكلات الاجتماعيـة بمصطلحات نفسية فردية، كما فعل "فرويد ". كما يرفض محاولات أولئـك الذين فسّروا السلوك الفردي بمصطلحات سوسيولوجية كما فعل " ماركس "، ويقول رافضاً هذين الاختزالين: ((الإنسان ليس من صنع التـأريخ فقـط، ولكن التأريخ من صنع الانسان أيضاً)) (Brown, 1977, p.151).

إن ما يهمنا في هذا المبحث هو أن الصور النوعية التي تعبّـر بهـا هـذه الحاجات الانسانية عن نفسها ليست مطلقةً في كل زمان ومكـان، كمـا إن الاساليب التي يحقق بها الانسان امكانياته الداخليـة ((تحـددها الترتيبـات الاجتماعية التي يعيش في ظلّها)). وبناء على ذلك يحدد "فـروم" للانـسان طريقين لا ثالث لهما لتجاوز أزمة الجدليـة المزدوجـة الآنفـة الـذكر: "

الاستقلال والوحدة " ، وهما طريقان ينبعـان بالـضرورة مـن الترتيبـات الاجتماعية التي يعيش في ظلّها، فيقول : ((إن الانسان يـستطيع أن يـربط نفسه بالآخرين بروح من الحب والعمل المشترك، أو أن يجـد الأمـن فـي الخضوع للسلطة والامتثال للمجتمع. ففي الحالة الأولى يـستخدم الانـسان حريته لتنمية مجتمعٍ أفضل، وفي الحالة الثانيـة يكتـسب قيـداً جديـداً)) (هول، ١٩٧١، ص ١٧٣،١٧٥).

وعلى هذا المنهج في التنظير، يعالج "اريك فروم" مشكلة الحب ، فيرى أن جذور الحب تكمن في "الحاجة الى الانتماء "، ذلـك ((إن الانـسان عنـدما أصبح انساناً قد تمزقتْ لديه عرى الوحدة الحيوانية الاوليـة بالطبيعـة ... أصبح على الانسان أن يخلق علاقته الخاصة به، واكثرها تحقيقـاً للاشـباع هي تلك القائمة على الحب الخلاق)) (هول ،١٩٧١،ص١٧٤). وفي كتابـه "فن الحب " Art of loving ١٩٥٦ ،يحدد " فروم " ماهيـة هـذا الحـب بقوله: ((هذه الرغبة للاندماج مع شخص آخر هي اكبر توقان لدى الانسان. إنها أشد عواطفه جوهريةً، إنها القوة التي تبقي الجنس البـشري متماسـكاً وكذلك القبيلة والأسرة والمجتمع. والفشل في تحقيق هـذا الانـدماج يعنـي الجنون أو الدمار، الدمار للذات أو الدمار للآخرين. بدون حب مـا كـان يمكن للأنسانية أن توجد يوماً واحداً)). ويضيف: ((ليس الحب أساساً علاقةً بشخصٍ معين. إن الحب موقف، اتجاه للشخصية يحدد علاقةٌ شخصٍ بالعالم ككل، لا نحو موضوعٍ واحد للحب. فأذا أحبّ شخصُ شخصاً آخـر وحـده وكان غير مكترثٍ ببقية رفاقه، فإن حبّه ليس حباً، بل هو تعلقُ تكـافلي أو أنانية متسعة)) (فروم (ج) ،١٩٨١،ص ٢٦،٤٧).

وكما حدد "فروم" للإنسان طريقين لتجاوز أزمته النفسية الحـضارية فـي الأستقلال والوحدة، فأنه يحدّد حلّين أيضاً لتجاوز أزمته في الوحدة والعزلـة

وتحقيق الأندماج ثانيةً. ويسمى الحل الأول بـ "الوحدة التكافلية" ، وهي الحب غير الناضج، ويحدد له شكلين: ((الشكل السلبي للوحدة التكافلية هو شكل الخضوع، أو اذا استخدمنا مصطلحاً سريرياً قلنا أنه "المازوخية ". فالشخص المازوخي يهرب من الشعور الذى لا يطاق للعزلة والأنفصال بأن يجعل نفسه جزءاً لا ينفصل عن شخصٍ آخر يوجهه ويرشده ويحميه ... والشكل الأيجابي للأندماج التكافلي هو الهيمنة، أو اذا شئنا استخدام مصطلح سيكولوجي على غرار المازوخية قلنا "السادية "، فالشخص السادى يريد أن يهرب من عزلته وشعوره بالأنحصار، بأن يجعل شخصاً آخر جزءاً لا ينفصل عنه)). أما الحل الثاني فهو "الحب الناضج"، ويعرّفه "فروم ": ((هو الوحدة بشرط الحفاظ على تكامل الأنسان، الحفاظ على تفردية الأنسان. الحب هو قوة فعّالة، قوة تقتحم الجدران التي تفصل الانسان عن رفاقه، والتي توحّده مع الآخرين. إن الحب يجعله يتغلب على الشعور بالعزلة والانفصال. ومع هذا يسمح له أن يكون نفسه، أن يحتفظ بتكامله. في الحب يحدث "الانفراق"* : إن اثنين يصبحان واحداً ومع هذا يظلاّن اثنين)) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص ٢٧،٢٨).

وفي كتابه " التملّك أو الكينونة " To Have or To Be والذى ترجم الى العربية تحت عنوان ((الإنسان بين الجوهر والمظهر))، ينـاقشُ "فروم " مشكلة الحب ضمن الإطارين المتقابلين: الكينونة والتملك، ويتساءل: ((هل يمكن أن يملك الإنسانُ حباً؛ لو كان ذلك ممكناً، لتضمن ذلك أن يكون الحبُ شيئاً يكون في حوزة الإنسان، يملكه أو يقتنيه. والحقيقة أن لا وجود لشيءٍ يسمى حباً. انما الحب نوعٌ من التجريد، ربما كان ربةً أو كائناً غريباً، وإنْ لم يكن قد رأى أحد هذه الربة. والحقيقة إنه لا وجود الاّ لفعل المحبة. وهذا يعني نشاطاً ايجابياً مثمراً، يتضمن أن تكون العلاقة بالمحبوب رعايةً

ومعرفةً، وتجاوباً وخدمةً ومسرةً ومتعةً، سواء كان المحبوب انساناً أو نباتاً أو رسماً أو فكرةً ... يتضمنُ نفخَ الروحِ في المحبوب واخـصاب طاقاتـه الحيوية. إن المحبة صيرورة، عمليةُ تجديدٍ واثراءٌ للذات)). وبذلك تـصبح عملية التملك والسيطرة على من نحب ((عمليةَ خنـقٍ واهـلاكٍ، وليـست عطاءً للحياة)) (فروم (د) ،١٩٨٩، ص٦٥).

وعلى هذا ينتقد "فروم" الحبَ الرومانسي ((على أنه حب مزيف لأنه قـائم أساساً على الجاذبية الجسديـة وليس علـى المعرفـة الحقيقيـة بالـشخص المحبوب، وإنه قائم على التزاماتٍ شديدةٍ عادةً ما تكون آنيةً)) (صـالح (ب) ،١٩٨٨، ص ٤٤). ففي بدايات هذا الحب يكون طرفا العلاقة فـي حالـة اكتشاف ودهشة وود عميقة تجاه بعضهما. ويكون عطاءهما موجهـاً نحـو الكينونة؛ ولكن ما أن يشرعا في الزواج ((يصبح الحبُ ملكيةً مـضمونةً، ويكفّ كل طرف عن بذل أى جهدٍ لأن يكون محبوباُ ... لأن يعطي حباً ... ومن ثمّ يصبح الزوجان غير قادرين الاّ على اثارة الملـل)) . و لا يعـزو "فروم" هذا التحول السلبي الى الزواج بحد ذاته، بل يعزوه الـى المجتمـع والى نمط التملك السائد في كافة علاقاته، والتي لا بـدّ أن تـنعكس داخـل علاقة الزواج، فيقول: ((إن الخطأ الذي أدى الى ضياع الحب هـو تـصّور امكان تملّكه. والآن عوضاً عن أن يحب كلٌ منهما الاخر يشرعان معاً فـي ملكيةِ ما يستطيعان ملكيته: المال والمكانة الاجتماعية والمنزل والاطفـال)) (فروم (د) ،١٩٨٩، ص ٦٧).

وللحب موضوعات مختلفة ، فيصنّفه "فروم" حسب هذه الموضوعات الى "الحب الأخوي"، و"الحب الامومي"، و"الحب الشبقي أو الجنـسي"، و"حـب الذات"، و"حب الله"، وكما يـأتي: (فـروم (ج) ،١٩٨١،ص٤٤، ٤٧، ٤٨، ٥١، ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٦٠، ٧٣):

١-الحب الاخوي:

هو أشد انواع الحب اساسيةً ، إذ يتضمن جميع انواع الحب. ويقصد به الشعور بالمسؤولية والرعاية والاحترام والمعرفة ازاء أي كائن انساني آخر، والرغبة في تطوير حياته. في الحب الاخوي توجد تجربة الاتحاد بكل الناس، توجد تجربة التضامن الانساني، تجربة التكفير. يقوم الحب الاخوي على تجربة اننا جميعاً واحد. ويجري فيه إهمال الفروق في الالمعيات والذكاء والمعرفة بالمقارنة مع هوية الجوهر الانساني المشترك لدى الناس جميعاً.

٢-الحب الأمومي :

الحب الامومي بطبعه حب مطلق. إن الام تحب الطفل الحديث الولادة لأنه طفلها، لا لأن الطفل قد حقق أي شرط خاص أو قد عاش لأي توقع خاص. وهو أصعب شكل للحب يمكن أن يتحقق، ويكون مدعاةً للخداع بسبب السهولة التي تستطيع ان تحب بها المرأة طفلها الصغير. ولكن بسبب هذه الصعوبة نفسها، يمكن للمرأة أن لا تكون أماً محبة حقاً الا اذا استطاعت ان تحب زوجها والاطفال الغرباء وكل البشر.

٣- الحب الشبقي او الجنسي :

الحب الاخوي هو حب بين طرفين متساويين، والحب الأمومي هو حب للعاجز. أما الحب الجنسي فهو سعي الى الاندماج الكامل، للاتحاد مع شخص آخر. وهو بطبيعته قاصر على شخص وليس مطلقاً. وربما كان هذا الحب هو أشد أنواع الحب خداعاً. إنه يختلط مع التجربة المتفجرة، تجربة "الوقوع" في الحب، الانهيار الفجائي للحدود التي توجد حتى اللحظة بين غريبين. والحب الجنسي، لو كان حباً، له مقدمة واحدة: إنني احب من

جوهر وجودي، وأعيش الشخص الآخر في جوهر وجوده أو وجودها. فمن الناحية الجوهرية، كل البشر متماثلون، إننا جميعاً جزء من الواحــد، إننــا الواحد.

٤-حب الذات:

الانانية وحب الذات أبعد من أن يكونا متمــاثلين. إنهمــا ضــدان بالفعل. الشخص الأناني لا يحب نفسه كثيراً بل يحبها قليلاً جداً. إنــه فــي الواقع يكره نفسه. هذا الافتقاد للاعجاب والرعايــة لنفــسه يتركــه خاويــاً ومحبطاً ومهتماً حتى القلق بأن يستلب من الحياة الاشباعاتِ التي يسد علــى نفسه الطريق لاجتيازها. أما حب الذات فيعني أن نفسي تكــون موضــوع حبي شأنها في ذلك شأن شخص آخر. فإذا كان الفرد قادراً على أن يحــب بشكل بنـّــاء، فأنه يحب نفسه أيضاً.

٥-حب الله :

إن حب الله شأنه شأن الأنواع الأخرى من الحب، ينشأ من الحاجــة الى قهر الانفصال وتحقيق الوحدة. وفي التأريخ البشري نجد التطور نفسه: في البداية يكون حب الله مثل التعلق العاجز بالربة الأم، ثم من خلال التعلق المطيع بالاله الأب، يتم الانتقال الى مرحلة ناضجة يكف فيهــا الله عــن أن يكون قوة خارجية، حيث يكون الانسان قد جسد حبه، أي الحب والعدل فــي نفسه، فيصبح متحداً مع الله الى درجة لا يتحدث عندها عــن الله الا بــشكل شعري ورمزي.

ويميّز "فروم" بين درجات النضج الانساني في الحب فيكتــب: ((إن الحب الطفولي يسير على مبدأ "انني أحب لأنني محبوب". أما الحــب غيــر الناضج فأنه يسير على مبدأ "أنني أحبك لانني احتاج اليــك". امــا الحــب

الناضج فيقول: " أنني احتاجُ اليك لانني أحبك")) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص٤٣،٤٧]. ولهذا الحب الناضج أربعة عناصر رئيسية: ((الرعاية Care، والمسؤولية Responsibility ، والاحترام Respect، والمعرفة Knowledge)). فالرعاية والعناية تتضمنان جانباً آخر للحب هو جانب المسؤولية. ولكن المسؤولية في معناها الحقيقي هي فعل ارادي تماماً، انها استجابة لاحتياجات انسانٍ آخر سواء عبّر عنها أم لم يعبّر. وإن المسؤولية يمكن أن تتدهور بسهولة الى الهيمنة والتملك اذا لم تتألف من العنصر الثالث للحب وهو الاحترام. وليس الاحترام خوفاً وخشيةً، إنه يشير الى القدرة على رؤية الشخص الآخر كما هو وادراك فردانيته المتفردة. و لايكون احترام الشخص ممكناً بدون معرفته، فالرعاية والمسؤولية عمياوان اذا لم يسترشدا بالمعرفة (فروم (ج) ،١٩٨١، ص ٣٤،٣٣).

ولأن "فروم" يصرّ في كل مؤلفاته أن الأفكار والمشاعر والسلوك تظلّ مشروطةً بالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية السائدة فأنه يرى أن الأنسان الحديث قد حوّل نفسه ((الى سلعةٍ ، انه يعيش طاقةَ حياته كأستثمار عليه أن يجني مقابله أكبرَ ربحٍ ، وهو يقدّر وضعه وموقفه في سوق الشخصية . انه مغترب عن نفسه وعن رفاقه وعن الطبيعة .)). وفي ثقافةٍ يسودها اتجاه السوق ((لن يوجد ما يدعو الى الدهشة عندما تهتدي علاقات الحب الإنساني بأنموذج المقايضة نفسه الذى يحكم السلعة وسوقَ العملِ)) فتصبح علاقة الرجل بالمرأة نمطاً من أنماط التملّك ، سلعةً ملحقةً بالنمط التجاري العام السائد ، فينفصل الحب عن الفعل الجنسي ، ويفضي كل ذلك ((الى شعور متزايد بالانفصال نظراً لأن الفعل الجنسي بدون حب لا يقيم جسوراً على الأطلاق فوق الهوّة بين كائنين انسانيين الاّ لبضع لحظات)) [فروم (ج) ،١٩٨١، ص ص: ٢٢،١٣،٩٣]

ويحدد شرطاً أساسياً للحب الجنسي الناضج بقوله: ((إذا لم يكن الحب هو الذى يبعث الرغبة في الاتحاد الجسماني، واذا لم يكن الحب الجنسي أيضاً حباً أخوياً، فإن هذه الرغبة لا تفضي اطلاقاً الاّ الى وحدة لا تزيد عن الشعور العربيدى المؤقت العابر)). فالمضمون الانساني لعملية الاندماج بين رجل وامرأة لا بدّ أن يرتبط جدلياً بنمط العلاقة بين الانسان وعمله في فترةٍ تأريخية معينة. ولأن الانسان ما يزال مغترباً عن عمله، يصل " فروم " الى ((أن الوحدة المتحققة في العمل الإنتاجي ليست وحدةً بين الأشخاص، والوحدة المتحققة في الاندماج العربيدي وحدة مؤقتة، والوحدة المتحققة عن طريق الامتثال ليست سوى وحدة زائفة. ومن ثمّ فهي ليست سوى حلول جزئية لمشكلة الوجود)). ويقصد "فروم" بالوحدة المتحققة عن طريق الامتثال تلك الطريقة السائدة التي يضطر إليها الفرد في المجتمع الغربي المعاصر لقهر انفصاله وعزلته عن مجتمعه. إنها وحدة قسرية زائفة مع الجماعة، تختفي فيها النفس الفردية إلى حد كبير، وتلتحق بالقطيع. ((إذا كنتُ أشبهُ كل شخص آخر، إذا كنتُ بلا مشاعر أو أفكار تجعلني مختلفاً، إذا كنتُ ممتثلاً في العادات والزي والأفكار لأنموذج الجماعة، فإنني أكون قد أُنقذت، أنقذت من التجربة المرعبة للوحدة)) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص٢٦،٥٣، ٢٣).

وينتقد " فروم "آراء" فرويد " في الحب الجنسي، ويؤكد أنه أخطأ حين ((رأى في الحب على نحو مطلقٍ التعبير اعلاءً أو تسامياً عن الغريزة الجنسية بدلاً من أن يتبين أن الرغبة الجنسية هي تجلٍ من تجليات الحاجة الى الحب والأتحاد)) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص٤٠). فقد اعتقد " فرويد" بأن أرضية كل الظواهر يمكن ايجادها في الظواهر الفزيولوجية، وإن الحب والكراهية والطموح والغيرة هي نتائج الاشكال المختلفة للغريزة الجنسية.

أما "فروم" فيرى ان الحقيقة الرئيسية تكمن في شمولية الوجود الانساني، أولاً وقبل كل شيء في الوقت الانساني المشترك عند الناس، وثانياً في ممارسة الحياة المحددة بالبناء النوعي للمجتمع. ويواجه مسلّمة "فرويد" القائلة بأن الاشباع الكامل غير المكبوت لجميع الرغبات الغريزية سوف يخلق صحة عقلية وسعادة، بقوله: ((إن الحقائق الاكلينيكية الواضحة تبين أن الرجال والنساء الذين يكرسون حياتهم لاشباع جنسي غير محدد لا يحصلون على السعادة، بل هم في الاغلب يعانون من الصراعات أو الاعراض العصابية الشديدة)) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص٨٣). ويحدد "فروم" أهمية هذه النقطة في كتابه "ثورة الأمل" Revolution of Hope ، بقوله: ((في وسع التجربة الجنسية ببساطة الامداد بلذة شهوانية دون البلوغ الى أعماق الحب ... فالتنبه الحسي يحرض فزيولوجياً ويمكن أن يؤدي أو لا يؤدي الى مودة انسانية. وقد يميّز الرغبة الجنسية سياقٌ عكسي الا وهو أن الحب يخلق الرغبة)) (فروم (ب) ،١٩٧٣، ص ٩٣).

لقد تجاهل "فرويد" ((الجانبِ النفسي - البيولوجي للجنسية القطبية الذكرية الانثوية، والرغبة في عبور هوة هذه القطبية بالاتحاد)). ويعدّ "فروم" هذا التجاهل خطأً غريباً، ويعزو نشوءه الى ((النزعة المتطرفة القائمة على السلطة الابوية عند "فرويد" والتي أفضتْ به الى افتراض ان الجنسية في حد ذاتها ذكرية، وجعلته يتجاهل الجنسية الانثوية الخاصة)). كما يفسّر درجة الشعبية الكبيرة التي لاقتها أفكار "فرويد" حول الحب الجنسي في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية بـ ((التغيرات التي حدثت في روح الرأسمالية من التأكيد على التوفير الى التأكيد على الانفاق، من إحباط الذات كوسيلة للنجاح الاقتصادي الى الاستهلاك كأساسٍ لسوقٍ آخذٍ في الاتساع وكأشباعٍ رئيسي

لفردٍ قلقٍ تمكننَ)). بعبارة مشابهة، نقول ان "فروم" يرى أن فلسفة الاقتصاد الرأسمالي قد انعكست في أفكار "فرويد" عن الحب الجنسي، فصار ((عدم تأجيل اشباع أي رغبة هو الاتجاه الرئيسي في الجنس، كما هو في مجال الاستهلاك المادي جميعه)) (فروم (ج) ،١٩٨١، ص ٤٠،٨٣).
لقد تأثر "إريك فروم" ، كما أشرنا في البداية ، بثلاثة مصادر فكرية رئيسية : الفكر الفرويدي، والفكر الماركسي، والفكر الديني (اليهودى والمسيحي والبوذي) . وإن مدينته الفاضلة التي دعا اليها هي في الواقع ((توليف بين الجوهر الروحاني والتفكير العقلاني)) (فروم (د) ،١٩٨٩، ص١٥، فهو يماثل "فرويد" في رؤيته أن للإنسان طبيعة جوهرية فطرية، ولكنها طبيعةٌ ايجابية لديه، وليست عدوانيةً لاعقلانيةً كما رأى "فرويد". ويعتقد ((بأننا نملك دافعاً فطرياً يأخذ بنا الى النمو والتطور ويعمل على تحقيق ما نمتلكه من امكانات وقدرات ... وان للإنسان ميل فطري للنضال من أجل العدل والحقيقة)) (صالح ،(ب) ،١٩٨٨، ص٢١٤)، دون أن يبرهن بشكل جازم أن هذا الميل الفطري هو حقيقة مشتركة بين كل البشر. كما يؤكد " فروم " في الوقت ذاته على الصراعات النفسية اللاشعورية، ولكنه لا يفهمها و لا يفسّرها الاّ ضمن امتداداتها الجدلية داخل الهيكل الاقتصادي والاجتماعي للحضارة متأثراً في ذلك بأفكار "كارل ماركس". وفي محاولته لحلّ أزمة الانسان المعاصر التائه بين جوهره الفطري وبين وجوده الاجتماعي، بين انفصال وعيه المتزايد عن الطبيعة وبين اغترابه المتعاظم عن ذاته وعن وسائل انتاجه ونشاطه، يبشّر "فروم" بنمطٍ فعال من الحب الأخوي التعاوني الاندماجي المنتج المقتحم لعزلة الانسان عن أخيه الانسان وهذا بالتأكيد تبشير ذو نغمةٍ دينية أساسية، وإن كان لا يخلو من رؤية علميةٍ في

بعض جوانبه تتمثل في ايمانه بأن التغييرات الجذرية في البناء الأجتماعي هي الكفيلة بإشباع الحاجة المكبوتة لهذا الحب، دون أن يقدم تحليلاً وافياً متكاملاً لنوع هذه التغييرات الجذرية وكيفية تحقيقها الفعلي، سوى توصياته الغامضة بأنسنة وسائل الانتاج .

عندما يتعلق الأمر بالمستقبل، ينظّر "فروم" بأن أسس التغيير لا تستلزم ((إلا اتحاد الارادات. فلابدّ من حركة "مستهلكين" تكون تعبيراً وتجسيداً لنوع من الديمقراطية الحقة الأصيلة)) (فروم (د) ،١٩٨٩، ص١٤)، وكأن إرادة الوعي والنوايا العقلية النابهة والحب الناضج البنّاء هي وحدها التي يمكن ان تتحكم ايجابياً بالمصير الاجتماعي لوجود الانسان في المستقبل. وعندما يتعلق الأمر بالعصور الماضية، نراه أكثر جدليةً وواقعيةً في تحليل الاسلوب الذي تطور فيه الانسان بين متغيري الطبيعة والمجتمع. فهل تراه كان موفقاً في هذا التلاقح الفكري الفريد بين المادية التأريخية والمثالية الاخلاقية؟ وما هو مقدار الخصب أو العقم في هذا التلاقح ؟ وهل ستمتد افكار "اريك فروم" الى المستقبل لتجد لها مناصرين على الأصعدة الفلسفية والنفسية والاجتماعية، أم انها ستظلّ حبيسة القرن العشرين بوصفها أدوات تحليلية تأريخية عميقة للتراث النفسي والاجتماعي فحسب، لا مجاهر للتنبؤ والاستشراف وصياغة الحلول الواقعية لأزمة الحضارة وعلاقتها بالطبيعة البشرية التي حاول "فروم" جاهداً ومتفائلاً طيلة حياته أن يمنحها جوهراً فطرياً ايجابياً.

هامش

* **الانفراق** Paradox: التناقض المنطقي الظاهري الذي تنطوي عليـه حالـة مـا أو ظاهرة ما.

ويسمي "فروم" هذا المنطق بـ"المنطق الانفراقي" Paradoxical Logic، مقابل "المنطق الشكلي الأرسطي" Formal Logic الذي سيطر على العقلية الغربيـة لقـرون طويلـة. يلخص "أرسطو" منطقه الشكلي بوضوح تام: ((من المستحيل للشيء نفسه في الوقت نفسه أن يخص ولا يخص الشيء نفسه في المجال نفسه)). أما "المنطق الأنفراقي" فإنه يقع على الضد من هذه العبارة، ويفترض أن: (("أ" و "لا-أ" لا يستبعد كل منهما الآخر كمحمولين لـ"س"))؛ أي بمقدور عبارة "س" أن تكون "أ" وليست "أ" في ذات الوقت. ويرى "فروم" أن "المنطق الأنفراقي" كان سائداً في التفكير الصيني والهندي، وفي فلسفة "هيـراقليطس" Heraclitus (٥٤٤-٤٨٣)ق.م. (الصراع بين الأضداد هو أساس الوجود كله)، ثم ظهر تحت أسم "الديالكتيك" Dialectics في فلسفة "هيغل" و "ماركس". وقد وصف الفيلسوف الصيني التاوي "لاوتسي" Lao-tse المبدأ العام للمنطق الانفراقي: ((الكلمات التي تكـون حقيقية حقاً، تبدو على إنها مليئة بالانفراق)). كما وصفه الفيلسوف الصيني الكونفوشيوسي العقلاني "شوانج تزو" Chauang-tza: ((ذلك الذي هو واحد هو واحد. وذلك الذي ليس بواحد هو أيضاً واحد)) (فروم (ج)، ١٩٨١، ص ٦٦،٦٧).

رؤى نفسية أخرى في الحب

الحب تبادل للتفاني، ويلطف دوماً الخصومة المتأصلة في الادوار المتقاسمة .

إريكسون

كارين هورني

ترى عالمة النفس الالمانية الأصل " كارين هورني" Karen Horney (١٨٨٥ – ١٩٥٢) م وهي من المدرسة الفرويدية الجديدة، أن الصنف الحقيقي للحب يصعب تعريفه، ولكنها تقبل بالمفهوم الشائع للحب، وتعرفه في كتابها "الحاجة العصابية للحب" The Neurotic Need for love ١٩٣٦ على أنه: ((القدرة على أن تعطي من نفسك تلقائياً للناس أو لحالة أو لفكرة بدلاً من الحصول على كل شيء لنفسك بطريقة انانية)) (صالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٣٠).

وتعتقد "هورني" التي اكدت على مفهوم "القلق الاساسي" Basic Anxiety ((إن سايكولوجية المرأة تقوم على الافتقار الى الثقة وعلى الاسراف في تأكيد أهمية علاقات الحب، وإن علاقة سيكولوجيتها بتشريح اعضائها التناسلية ضئيل للغاية)) (هول ،١٩٧١،ص١٧٨). وهي بذلك تخالف بقوة ما جاء به "فرويد" عن حسد المرأة لقضيب الرجل. وقدمت "هورني" قائمة بعشر حاجاتٍ عصابية يكتسبها الناس في طفولتهم خلال محاولتهم العثور على حلول لعلاقاتهم المضطربة الناتجة عن افتقارهم للشعور بالأمان في عالم مليء بالعداء والتنافس. وعلى رأس هذه الحاجات:

((الحاجة العصابية للحب والتقبل)). وتتميز هذه الحاجة ((بالرغبة دون تفرقة أو تمييز في ارضاء الآخرين وعمل ما يتوقعونه. فالشخص يعيش من أجل الفكرة الطيبة عنه لدى الآخرين. كما إنه يكون بالغ الحساسية لأية علاقة قائمة على النبذ أو عدم الود)) (هول،١٩٧١،ص١٧٩).

إريك إريكسون

حدد "اريكسون" الدانيماركي الأصل Erik Erikson (١٩٠٢-١٩٩٤)م ثماني مراحل للنمو النفسي الاجتماعي، تطويراً لمراحل النمو الجنسي النفسي التي أتى بها" فرويد" . واوضح ان المرحلة السادسة (الرشد المبكر: الالفة مقابل العزلة (Young Adulthood: Intimacy – Isolation) تشهد نمواً كاملاً للقدرة على الالتزام الثابت في العلاقات بين الجنسين القائمة على تبادل اللذة. فبعد أن حصل الفرد على هويته في المرحلة السابقة (المراهقة: الهوية مقابل تشوش الهوية (Adolescence: Identity – Identity Confusion)، أصبح مستعداً لصب هويته في هوية الآخرين في علاقة حميمة. ومع الالفة Intimacy تأتي فضيلة الحب Virtue of Love ، فالحب في هذه المرحلة يمثل تحويلاً لأشكال الحب التي عرفها الفرد خلال المراحل الماضية، الى رعاية غير ذاتية تُمنح الى الآخرين بشكل نشيط واختياري خلال بقية دورة الحياة. ويكتب "اريكسون": ((الحب تبادل للتفاني ، ويلطف دوماً الخصومة المتأصلة في الادوار المتقاسمة)). ويضيف: ((إنه القاعدة التي يقوم عليها الهم الاخلاقي))، ولذلك فإنه قد يكون ايضاً "الانانية الرابطة" التي تخدم بعضاً من الاخلاق بحدوده الضيقة. وتجد الألفة والحب اسنادهما المؤسساتي في انماط العلاقات التي يحددها المجتمع وييسرها **(Wulff, 1997,p.379 ,380).**

هاري ستاك سوليفان

أوضح الامريكي "هاري سوليفان" Harry Sullivan (١٨٩٢ – ١٩٤٩)م وهو من الفرويديين الجدد ايضاً، وصاحب نظرية ((العلاقـــات الشخـــصية المتبادلة في الطب النفسي)) The Interpersonal Theory Of Psychiatry (هول ،١٩٧١،ص١٨٢)، إن الحب ليس تعبيراً عن خفض الحـــاح جنـــسي كما هو الحال بالنسبة لفرويد، بل هو حالة من الأندماج التـــي تُـــشبَعُ فيهـــا الشهوة بشكل متبادل في علاقة تسودها المودة. وتقصى "ســـوليفان" جـــذور الحب في مرحلة ما قبل المراهقة ((حين تظهر الحاجة الـــى المـــودة فـــي الاتصالات الشخصية))، وتوصل الى أن أساس الحب يتمثل في التعاون، أي ((إن كل شريك يكون راغباً في أن يعطي شيئاً للشريك الآخر لكي يحـــصل على شيءٍ ما بالمقابل)). ويحدد شرط الحب بقوله: ((حين تكون الديناميـــة المرتبطة بالحاجة الى الاتصال الشخصي الحميمي قد اكتملت خـــلال فتـــرة المراهقة والرشد، عنـــدها نـــستطيع أن نتحـــدث عـــن الحـــب)) (صـــالح (ج)،١٩٨٨،ص ٢٢٧،٢٢٨).

كارل روجرز

لو انتقلنا الى المنظور الوجودي الظـــواهري Phenomenology؛ فإن عالم النفس الأمريكي "كارل روجرز" Karl Rogers يؤكد ((أن المعنى الشامل والأعمق لأن تكون محبوباً هو أن تكون مفهومـــاً بعمـــق ومقبـــولاً بعمق)) (صالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٢٩). وحسب " روجرز " فإن كل شخص يميل الى أن يراجع خبراته عن العالم بأن يختبر الواقع. فإذا ما كان اختباره كافياً، فإن ذلك سيمده بمعرفةٍ موثوقٍ بها عن العالم، بحيث يستطيع أن يسلك سلوكاً واقعياً (هول، ١٩٧١، ص ٦١٤). وعندها يتحقق الحب، ذلـــك ((إن

القدرة على حب الآخرين، بمعنى الاحترام الأيجابي غير المشروط، تتوقف على الأنسجام بين مفهوم الذات وبين الخبرة)) (صالح (ج) ،١٩٨٨، ص٢٢٩).

أبراهام ماسلو

وضع "أبراهام ماسلو" Abraham Maslow (١٩٠٨ – ١٩٧٠)م هرماً متعدد المستويات للحاجات البشرية، جاعلاً من الحب احدى الحاجات الرئيسة التي يؤدى اشباعها الى ارتقاء الشخصية في مسيرتها نحو تحقيق ذاتها. و " ماسلو " عالم نفس أمريكي، وهو المنظّر الرئيسي للاتجاه الأنساني في علم النفسHumanistic ، والذي عُرف بأسم "حركة الإمكانيات البشرية" Human Potential Movement (صالح (أ) ،١٩٨٧،ص١٢٧)؛ إذ أوضح في هرمه Maslow's Heirarchy أنه بمجرد تحقيق الحاجات الفزيولوجية Physiological Needs للأفراد وحاجاتهم للأمن Safety Needs ، تظهر الحاجة الى الحب Love والانتماء Belongingness ، فيسعى الأفراد الى الحب والى أن يكونوا محبوبين. واذا ما أشبعت حاجات الحب بشكلٍ ما، تسود حاجة الفرد لاحترام نفسه واحترام الآخرين Esteem Needs. وفي نهاية الأمر يسعى الأفراد نحو تحقيق ذواتهم Self Actualization (دافيدوف ،١٩٨٣،ص٤٤١). ثم أضاف " ماسلو " فيما بعد الحاجات المعرفية Cognitive Needs ، والحاجات الجمالية Aesthetic Needs كنمطين من الحاجات يقعان على التوالي بين حاجات الأحترام وتحقيق الذات **(Gleitman, 1995, p. 697).**

ويطرح "ماسلو" مصطلحين للحب: الأول هو الحب الناتج عن النقص أو العجز Deficiency Love ، وهذه حالة أنانية يتركز فيها اهتمام الفرد بأن

يحبه الآخرون؛ والثاني: القدرة علـــى أن تكـــون محبوبـــاً Being love ، ويعني أن تكون قادراً على أن تحب الآخرين. وهذا النوع الثاني من الحـــب لا يمكن أن يتحقق دون أن تُشبع الحاجات الأساسية التي تسبقه فـــي هـــرم الحاجات . كما إن "ماسلو" لـــــم يساوِ بين الحب والجنس الاّ أنه عدّ الجنس احدى الطرق المعبّرة عن الحب (صالح (أ) ،١٩٨٧،ص ١٣١،١٣٠).

وينفرد "ماسلو" عن بقية علماء النفس في أنه عدّ ((اللهو Fun والمـــرح Merriment مـــن الأمـــور الجوهريـــة فـــي الحـــب)) (صـــالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٣١). وعزا اخفاقات الفرد في اشباع حاجة الحب الى ((ســوء التكيف الحضاري)) (صالح (أ) ،١٩٨٧،ص١٣١).

آلان فروم

يكتب " آلان فروم" Allan Fromme في كتابه "القدرة على الحب" The Ability to love ١٩٦٠: ((عندما نعرّف الحب علـــى انـــه "تعلـــق" Attachment ، عندها سنبدأ ندرك كم لدينا من انواع الحب)). وبعض هذه الأنواع نسميه بـــ ((الميول)) Interests . فالإنسان قد يكون لديه ميل لتسلق الجبال، أو للرياضيات العليا، دون أن يكون لديه أي اهتمام بالناس، فالميول هي تعلقات شعورية. وهناك نظام آخر من التعلقات نكون غير واعين بهـــا تماماً، والتي قد تستحوذ علينا أكثر مما تفعله الميول الشعورية، إنـــه نظـــام التعلقات الذي نشأ قبل أن نصبح واعين بـــأي شـــيء، أي عـــالم احاســـيس الرضيع. إن تعلق الرضيع بجسده، من خلال الاحاسيس التي تكوّن وعيـــه الاول، هي بداية قدرته على الحب. وعندما يصبح الرضيع مهتماً أو متعلقـــاً باجزاء متنوعة من جسده، فإن هذا المخلوق النامي سيجد طرائقاً لمواصـــلة هذه التعلقات، وهذه الطرائق التي يصبح متعوداً عليها تميـــل الـــى تعزيـــز

تعلقاته. فمص الابهام هو مثال شائع عن بعض الطرائق التي يواصل بهـــا الرضع تعلقهم بالفم، وبالمتعة التي يوفرها لهم. ويسمى هذا النوع من التعلق بـــ ((العادة)) Habit ، ويعني تكرر الفعل ذاته، والطريقة ذاتها في مواصلة التعلق، فتصبح العادة بعدئذٍ تعلقاً، كما لو إن الاسلوب المنصوص في عمـــل الشيء هو بحد ذاته حاجة او رغبة. وبسبب قـــوة ((العـــادة – التعلقـــات))، فالكثير من الناس يفشلون في السفر، وبعضهم يفشلون في الحـــب. وهنـــاك عدد من التعلقات التي تبدو قليلة الاهمية (مثل عـــادات الطعـــام والـــشراب والنوم) قد تكون قوية الى الحد الذي يزعج الفرد ويـــسبب هياجـــه اذا مـــا اعاقها شيء (Fromme, 1960, pp.37, 38).

وميز "آلان فروم" بين عـــدد مـــن انـــواع الحـــب، مـــن بينهـــا مايـــأتي (Fromme,1960,p.92, 94):

١-الحب التواكلي (الاعتمادي) Dependent Love

إن التقليل من قيمة الذات يظهر في تنويعة كبيرة من الطرائق التي تمتد من أكثرها اعتيادية الى اكثرها إلفاتاً للنظر. فالمرأة الجميلة قـــد تعتقـــد أنها قبيحة، ولاظهار ذلك فانها ترتدي ملابس رثة لأنهـــا بنظـــر نفـــسها لا تستحق شراء الملابس الجيدة. والرجل الذي لديه قدرات عالية قد يبقى غير مقتنع بقدراته بالرغم من نجاحاته. وقد يعيش في رعبٍ من احتمال فقدانـــه لامواله ومركزه.

وفي حالة الحب التواكلي، فان رجلاً ما مـــثلاً، وبـــسبب صـــورته الواطئة عن نفسه، قد يكون قادراً على الاغواء على نحو كـــافٍ للحـــصول على فتاة معينة. لكن فقر ذاته سيصبح القوة الرابطة الاساسية في العلاقـــة. فالحب الوحيد الذي يفتش عنه هو ذلك الحب الذي يوفر له الرعاية. والحب الوحيد الذي يستطيع تقديمه هو الحب التواكلي. وقد يكون الحـــب التـــواكلي

قوياً احياناً الى درجة خنق المحبوب، لكن قوته هذه لاتعد مقياساً لثرائه. إنه حب يقع ضمن بعد واحد: شخص ينحني، وشخص آخر يتكيء عليه. فليس هناك جوانب كثيرة للتبادل، ولامشاركة اصيلة في هذا النوع من الحب؛ فأحد الطرفين يأخذ دوماً، والطرف الاخر يمنح دوماً.

٢- الحب العصابي Neurotic love

إن العناصر العصابية في سلوكنا تفسد الحب بلا شك، الا انها لا تقصيه عن خبراتنا. فمن الضروري إدراك ذلك بسبب نزعتنا الرومانسية لتسمية العلاقة التي تفشل في تلبية توقعاتنا بأنها شيء أقل من الحب. فالوقوع في الحب ونمو التعلقات أمر لا يمكن تجنبه، سواء كانت ملبية لمتطلباتنا أم لا. ويقول الناس في العلاقات ذات المتاعب: ((إنها ليست خصائصي العصابية ، إنها خصائص الشخص الذي أحبه والذي سبّب كل هذه المتاعب)). وهكذا فإن أي شخص يقنع نفسه بأنه ليس الذي افسد العلاقة، سوف لن يحتاج الى تغيير نفسه، وفيما يتعلق بحبيبه فمن غير المحتمل ان ينجح في تغييره. وغالباً ما يكون هناك شخصان، يتوقع كل منها من الآخر أن يكون أفضل وأكثر حباً بطريقة أو بأخرى، ولكن لا أحد منهما يرغب أو يكون قادراً على فعل شيء بخصوص دوره الخاطيء في العلاقة. ومع ذلك فإن كثيراً من العلاقات تظل مستمرة رغم عدم الارضاء المزمن الذي يشعر به كل واحد تجاه الاخر.

ولنأخذ مثالاً عن الحب العصابي: رجل مبتلى بضرورة إثبات ذاته بصورة متكررة في عيون كل الرجال الآخرين من خلال ناحيتين: أن تكون لديه أموال طائلة، وأن يُشاهَد مع أجمل النساء. وقد تزوج في النهاية واحدة من النساء المرغوبات، بعد جهد شاق لأكثر من عام تكلل بنجاحه في الحصول

على هذه المرأة. ومنذ اللحظة التي تم فيها الزواج، فقد اهتمامه بالأمر، فلم يعد يراها جذابة أو مرغوبة جسدياً. لقد فشل في استنتاج انه لم يكن يهتم اساساً بها، بل كان مهتماً بمنافسة رجل آخر يسعى اليها. ومن الواضح إن هذا الحب لم يكن اختياراً حراً للمرأة التي يرغب بها. لقد كان مدفوعاً بحاجة عصابية للتنافس مع الرجال الآخرين بغض النظر عن المرأة التي يتنافسون من اجلها. وعندما ربح السباق، كان مايزال غير حر في التمتع بالنصر. فالحاجة العصابية تفشل في ارضائنا حتى عندما نقوم بارضائها **(Fromme, 1960, pp.169-170)**.

هاري هارلو

يقول "هارلو" Harry Harlow : اذا كان علينا الدخول الى إشكالية ((الموضوعانية العاطفية)) Affectional Objectivism ، فإننا يجب ان نميز أن الحب ليس حالة مفردة أو سمة غير متمايزة، بل هناك على الاقل خمسة أنواع اساسية من الحب البينشخصي التفاعلي **(Harlow, 1971, p.42)**.

النظام الاول من بين الانظمة العاطفية هو ((الحب الامومي)) Maternal Love ، أي حب الأم لطفلها. والنظام الثاني هو ((الحب الطفولي)) Infant Love ، ويعني حب الرضيع لأمه، والذي يمكن أن يسمى بـ ((حب الرضيع – الام)) Infant-Mother Love . أما النظام الثالث فهو ((حب الند)) Peer ، أو حب النظير في العمر Age-Mate Love ، وهو حب الطفل لطفل ، وحب المراهق لمراهق . والنظام الرابع هو ((الحب بين الجنسين)) Heterosexual Love ، الذي تزداد فيه العاطفة الشديدة نحو الشريك من العمر نفسه من خلال عمل الغدد. وبالنسبة لكلا الجنسين، تتميز هذه المرحلة بأن حالات القلق الناشئة عن هورمون ((الاندروجين))

Androgens يـتم تهـدئتها بحـالات النـشوة التـي يـسببها هورمـون ((الاستروجين)) Estrogens . أما النظام الخامس فهو ((الحـب الابـوي)) Paternal love ، وهو حب الذكر الراشد لأسرته او لأعـضاء جماعتـه الاجتماعية. ويعبر عن الحب الأبوي ابتداء بمفردات الحماية، إلا إنه يمكـن ان يظهر في صور لطيفة، مثل اللعب مع الاطفال **(Harlow, 1971, pp.42,43)**.

إن هذا الوصف لانظمة الحب الخمسة، لا يعني أن كل نظـام منهـا هـو منفصل مادياً عن الانظمة الأخرى. ففي الحقيقة، هناك تداخل دائـم بينهـا. ولذلك فالدوافع العاطفية مستمرة بوصفها اشكالاً ووجوهاً مختلفة لنمو الحب. فكل نظام من أنظمة الحب يهيء الفرد للنظام الذي يليه، وإن فشل أي نظام في التطور السوي سيحرمه من الاسس المناسبة لما يمكـن ان ينـتج مـن توافقات عاطفية متزايدة التعقيد. وهكذا فإن الانظمـة العاطفيـة الامومية والطفولية تهيء الطفل لمواجهة المشكلات المعقدة الخاصة بـالتوافق مـع الانـداد، مـن خـلال تزويـده بالمـشاعر الاساسـية للامـان والثقـة **(Harlow, 1971,pp. 43,44)**.

ثيودور كمبر

يتبنى "كمبر" Theodore D. Kemper وجهة النظـر القائلـة ان الحب علاقة اجتماعية، سواء كان فعلياً او كامناً. وتبعاً لذلك فلابـد لعلاقـة الحب أن تتكون من نفس الابعاد التي تتكون منهـا العلاقـات الاجتماعيـة الأخرى. إن جميع العلاقات الاجتماعية تتألف من بُعدين همـا: ((القـوة)) Power ، و((المكانة)) Status. وإن بُعد "المكانة" هو جوهر العلاقات التي تتضمن الحب. وهكذا اذا كان (أ) يحب (ب)، فأنه يمنحه او يكون مـستعداً لمنحه مكانة كبيرة جداً. فهل يعني هذا أن (أ) يكون مستعداً للموت من أجل

(ب) اذا تطلبت الظروف ذلك؛ إن هذا ممكن، بالرغم من إنه بالنسبة لمعظم الناس اختبار نادر للحب، ولا يساعدنا في تعريف الحب لدى قطاعات واسعة من البشر **(Kemper, 1978, p. 285)**.

إن ماتقدم اعلاه ، يوفر مدخلاً لاكتشاف كم يوجد من أنواع الحب المختلفة. ويمكن تحقيق ذلك من خلال رسم كل الامكانيات الثنائية بين شخصين في فضاء ((القوة – المكانة)) Power – Status Space ، والذي تكون فيه مكانة أحد الطرفين او كلاهما كبيرة جداً في نظر الطرف الاخر. أما بُعد القوة (النفوذ) Power فيظل حراً في التغاير، ويساعد في توليد اصناف متنوعة من علاقات الحب. ويظهر الجدول ادناه ان هناك (٧) امكانيات نموذجية لعلاقات الحب **(Kemper, 1978, p.286)**:

أنواع الحب السبعة

النوع	الشخص الاول		الشخص الثاني	
	القوة (النفوذ)	المكانة	القوة (النفوذ)	المكانة
الحب الرومانسي Romantic love	كبيرة	كبيرة	كبيرة	كبيرة
الحب الاخوي Brotherly love	قليلة	كبيرة	قليلة	كبيرة
الحب القائم على التبعية Discipleship love	كبيرة	كبيرة	قليلة	كبيرة
الخيانة Infidelity	كبيرة	كبيرة	كبيرة	قليلة
الافتتان (من طرف واحد) Infatuation	كبيرة	كبيرة	قليلة	قليلة
التملق من الاتباع Adulation by fans	قليلة	كبيرة	قليلة	قليلة
احد الوالدين – الطفل Parent-Infant	قليلة	كبيرة	كبيرة	قليلة

وفيما يأتي تعريف بانواع الحب السبعة هذه **(Kemper, 1978, p. 287-292)** :

١. الحب الرومانسي Romantic love

في هذه العلاقة، يمنح كلُ طرف مكانةً كبيرة للطرف الاخر، كما إن كل طرف يتمتع بقوة كبيرة. وهذه بالذات هي المتعة التي يحصل عليها كل طرف من الطرف الآخر، والتي تصبح مصدراً لقوة الطرف الآخر. وفي هذه العلاقة، يصبح الموضوع المحبوب مصدراً للألم، مما يؤدي الى صراع ((إقدام – إحجام)) و / أو عدم الاتزان المعرفي.

٢. الحب الاخوي Brotherly love

إنه الأمل السعيد، والحلم العقيم للبشرية، لتنظيم الحياة الاجتماعية على أسس الحب الاخوي، حينما يكف الناس عن اشعال الحروب. وفي هذا الحب، يمنح الجميع بعضهم مكانة كبيرة، ويكونون في الوقت ذاته قليلي القوة.

٣. الحب الفاتن (الكارزماتي) أو القائم على التبعية Charismatic or Discipleship love

في هذا النوع من علاقات الحب، يكون أحد الطرفين كبيراً في قوته ومكانته، فيما يكون الطرف الاخر كبيراً في مكانته فقط. فالطرف القائد يمنح المكانة للطرف التابع، ويتلقى بدوره المكانة منه. لكنه (أي القائد) يحتفظ بالقوة لنفسه ليرغم الطرف الاخر على طاعته، وبذلك يمكن توجيهه. ومن امثلتها علاقة المعلم – التلميذ.

٤. الخيانة Infidelity

هي نوع غير اعتيادي من علاقات الحب، يُمنَحُ فيها احد الطرفين مكانة وقوة كبيرتين، فيما يُمنَحُ الطرف الآخر مكانة قليلة وقوة كبيرة. وتعد علاقة

الحب الرومانسي التي تنطوي على خيانة خفية من أحد الطرفين مثالاً علــى هذا النوع من الحب. فالطرف المخدوع يمنح مكانة عالية للطرف الخــادع. وبسبب الاشارات الظاهرية للمكانة الكبيرة التي يمنحهــا الخــائن للطــرف الآخر، فإن الخائن تكون له قوة كبيرة أيضاً. ومــن جهــة أخــرى، ففــي العلاقات التي تــُعامل فيها الخيانة على أنها خرق للثقــة الحميمــة، فــإن الطرف الخادع يسحب مقداراً مهماً جداً من المكانة من الطرف المخــدوع. وبالرغم من حقيقة إن الطرف الخادع لا يعتمد بشكل حاسم علــى الطــرف المغدور في الاشباع، إلا ان العدد الكبير جداً من التفاصيل الاخرى المتعلق بــ((بالتواقف العلائقي)) relational interdependence (وخاصة في حالة الزواج) يضمن مقداراً مهماً من القوة لصالح الطرف المغدور.

٥. الافتــتان (من طرف واحد) Infatuation

في بعض علاقات الحب، يكون هناك تفاوت Disparity بــين مكــانتي طرفي العلاقة، فيصبح الحب بالضرورة من طرف واحد. وفي حالة الحــب غير المتكافيء unrequited هذا، تكون المكانة الكبيرة والقوة الكبيرة لدى احد طرفي العلاقة، فيما تكون المكانة القليلة والقوة القليلة بحــوزة الطــرف الآخر. وفي هذا النوع قد تكون النظرة الخاطفة كافية لإشعال عواطف احــد الطرفين، فيما يكون الطرف الاخر غير واعٍ بحجم المكانــة التــي يكــون الطرف الاول مستعداً لمنحه إياها.

٦. التملق من الاتباع Adulation by Funs

في هذه العلاقة تكون قوة احد الطرفين ومكانته قليلة، فيما تكــون مكانــة الطرف الآخر لا قوته هي الكبيرة. ومن الاشكال النموذجية لهذا الحب هــو

العلاقة بين الاتباع ومعبودهم Idol . وبالرغم من الاعتقاد بـأن المعبـود قادر على إثارة مشاعر التبعية لدى اتباعه، إلا إن العلاقة بينهمـا ضـعيفة بالضرورة لأن الرابطة بينهما غير مباشرة، ومحددة بواسطة المكانة الكبيرة لأحد الطرفين. كما إن هذه العلاقة تضعف أكثر بـسبب عـدم قـدرة كـلا الطرفين على بذل قوته نحو الطرف الآخر.

٧. احد الوالدين – الطفل Parent–Infant

يحصل المولود الجديد على مكانة كبيرة، فيما تكـون الام محرومـة مـن المكانة، فالرضيع لايمنحها أي شيء تريده أو تحتاجه. وعندما يكبر الطفل، تتغير العلاقة في معظم الحالات الى واحدة من الانواع السابقة المشار اليهـا (مثلاً القائمة على التبعية discipleship). وإن النتيجة النهائية المثلى من وجهة نظر طرفي العلاقة قد تكون ((الحب الاخوي)). فكل الأنواع الأخرى من الحب هي أقل جودة لدى احد الطرفين او كليهما، بسبب الآثار المؤلمـة لاستخدام القوة.

◈ ◈ ◈

اذا ما عاودنا القاء نظرةٍ سريعةٍ على ما مرّ ذكره منذ بداية هذا الفصل من تعريفات ورؤى نفسية في الحب ، فسوف نحدد نقطتين مهمتين مـشتركتين بين كل هذه التعريفات :

١- انها تعريفات نظرية بحتة، لم تخرج من اطار التأمل والتحليل النظري، ولم تخضع لأي قياسٍ موضوعي يبرهن على صدقها العلمي بين نطاق واسع من البشر، ذلك أن بحوث كلّ أولئك المنظّرين لم تخرج عن حدود ثلاثة طرائق منهجية هي: الطريقة السريرية (الإكلينيكية)، والطريقة الوجودية الظواهرية، والطريقة التأريخية في التحليل؛ وهي طرائق تعتمد

في الغالب على المهارة الفكرية لأصحابها في التأمل النظري التحليلي والاستدلال العقلي أكثر مما تعتمد على أساليب القياس الكمية الموضوعية كالملاحظة المقننة والمسح والأختبارات والتجريب، وهذا ليس انتقاداً بقدر ما هو توضيح .

٢- كل تعريف من تلك التعريفات يتسق بالضرورة مع الإطار النظري العام لصاحب التعريف أو النظرية: أي إن كل منظّرٍ حاول أن يطبّق مجهره النظري الخاص به على ظاهرة الحب، فجاء تعريفه مشبعاً برؤيته النفسية العامة. وهذا أمر طبيعي ومتوقع، ودليل على مدى التماسك الفكري الذي يتمتع به كل من هؤلاء العلماء. فقد لاحظنا كيف أن " فرويد " الحتمي البيولوجي قد عدّ الحب شكلاً من أشكال الطاقة الجنسية (الليبيدو) التي تعبّر عن نفسها باسلوب لاعقلاني باحثٍ عن اللذة فحسب. أما " إريك فروم " الفرويدي الماركسي المثالي، فقد أكد أن "الحب الناضج" هو اندماجٌ واستقلال معاً، وهو الرد الأمثل للأنسان على محنة وجوده المزدوجة: طبيعته الجوهرية الفطرية من جهة، وحاجاته الاجتماعية العقلية المتطورة من جهة أخرى، والتي جعلته منفصلاً مغترباً عن الطبيعة وعن المجتمع وعن ذاته في آنٍ واحد. بينما ربطت "هورني" الأجتماعية العقلانية حاجةَ الانسان الى الحب بافتقاره الى الأمان في عالمٍ مشحونٍ بالبغضاء والتنافس، وبحثه المستمر عن اطفاء قلقه الأساسي. ونظر "اريكسون" إلى الحب بوصفه "فضيلة" يقوم عليها الهم الأخلاقي، وهو تبادل للتفاني وتلطيف دائم للخصومة المتأصلة في الأدوار المتقاسمة بين البشر. وتحدث " سوليفان " الطبيب النفسي ذو النزعة الاجتماعية العميقة عن الحب بوصفه ارضاءً للحاجات المتبادلة بين الأشخاص، وأن لا معنى للحب الا في اطار التبادل.

أما "روجرز" الظواهري الوجودي فقد أعطى للحب شرطاً وجودياً لابدّ منه، هو شعور الفرد بفردانية الآخر. وعرّف "آلان فروم" الحب بأنه "تعلق"، يمكن تصنيفه إلى أنواع عدة تبعاً لما يتضمنه من ميول وعادات، ومنها "الحب التواكلي" الذي يفتقر إلى المشاركة الأصيلة، فأحد الطرفين يأخذ دوماً والطرف الآخر يمنح دوماً. أما "هارلو" فحدد وجود خمسة أنظمة عاطفية بين الأشخاص، تبدأ بالحب الأمومي وتنتهي بالحب الأبوي، وهي أنظمة متداخلة لا تنفصل عن بعضها، يهيء كلٌ منها الفرد للنظام الذي يليه. وتبنى "كمبر" وجهة النظر القائلة أن الحب علاقة اجتماعية تتألف كبقية العلاقات الاجتماعية من بُعدي "القوة" و"المكانة"، وإن "المكانة" هي جوهر العلاقات التي تتضمن الحب، إذ أن تفاعلها مع التغايرات التي تطرأ على بُعد "القوة" يساعد في توليد سبعة إمكانيات نموذجية لعلاقات الحب. وأخيراً صنّف " ماسلو " الإنساني المتفائل الحبّ بوصفه خطوةً لا بدّ منها نحو تحقيق الذات، وحاجةً من حاجات الأنتماء لا تتحقق لدى الفرد قبل أن يشبع حاجاته الفزيولوجية وحاجته الى الأمان.

إن أي تعريف أو رؤيةٍ مما تقدم ، لا يقدّم نظرة شمولية كافية للحب بالرغم من تغطيته لمساحة واسعةٍ من هذه الظاهرة. ويعود السبب كما ذكرنا الى أنها ظلّت تفتقر الى امكانية القياس والتجريب، كما أنها ظلّتْ تعكس الرؤية الفلسفية لأصحابها بشكل محددٍ وحاد، ولم تنفتح على آراء وانطباعات الناس العاديين عن الحب. يتطلب الأمرُ اذن مزجاً بين تنظير العالِم وبين افادة الفرد الإنساني عن أي ظاهرة نفسيةٍ، ضمن مساحة العلم الملتزمة بالتقنين والموضوعية، وإلا ظلّ الحبُ (كظاهرةٍ للبحث) رهين الفلسفة والأدب والحس المشترك Common Sense ؛ وهذا ما قاد علماء النفس الأجتماعي

في السنوات الأخيرة الى التعرف على الحب عن كثبٍ ميدانياً مــن خــلال افادات الناس وأوصافهم وانطباعاتهم وتقويماتهم له، في محاولةٍ لإخــضاع مشكلة الحب للأدوات العلمية كما سنعرض لذلك في الفقرات القادمة. إلا أن ذلك لا يعني دعوة للتخلي عن الإطار النظري للبحث. فالرؤية الفلسفية لعالم النفس تظلّ هي الهادي والمرشد له في أسلوب تصميمه لتجاربــه وتطبيقــه لأدواته وتفسيره لنتائجه، حتى يرثُ العلــمُ الفلــسفةَ تمامــاً وتــصير كــل احتمالاتها يقيناً له. وهذا الهدف ما يزال بعيد التحقق في علــم الــنفس، وإنْ كان السعي الجاد والمثمر نحوه قد بدأ منذ ما يزيد عن قرن من الزمن.

قياس الحب الرومانسي

**هكـــــــذا حال النفوس الرومانسية دائماً :
تظلّ حتى آخر لحظةٍ تزين النـــاس بـــريش
الطاووس. تظـــلّ حتى آخر لحظة تفترضُ
الخير لا الـــشــــر .... فهــــي بوجههـــا
تحجب الحقيقة، الى أن يأتي الأنسان الـــذي
زينته بريش ملون مـــن خيالهـــا ،فيــصفع
وجهها، ويدمي أنفها بيده نفسها !
فيودور دوستويفسكي
(الجريمة والعقاب)**

ظاهرة الحب الرومانسي

تصنف ظاهرة الحب الرومانسي من الناحية الأكاديمية ضمن إطـــار علـــم النفس الاجتماعي Social Psychology، وتحديداً تحت عنوان فرعي واسع وشامل هو "العلاقات الاجتماعية" Social Relations، والذي يتفرع بـــدوره إلى مجموعة من الظـــواهر النفـــسية الاجتماعيـــة، أهمهـــا: "الانجـــذاب" Attraction، و"العدوان" Aggression، و"التعصب" Prejudice، و"الإيثار" Altriusm، و"التنافس" Competition، و"التعاون" Cooperation.

وبالرغم من الاستقلالية النسبية التي تتمتع بها كل ظاهرة من هذه الظـــواهر على صعيد الواقع اليومي وفي التصنيفات الأكاديمية، إلا أنها تتـــداخل فـــي الوقت ذاته مع عدد آخر غير محدود من الظـــواهر النفـــسية والاجتماعيـــة

والاقتصادية والفزيولوجية، حسب المستوى الذي نختاره لإجـراء البحـث. فظاهرة "التعصب" مثلاً لها اتصالها بعلم نفس الشخصية وبعلـم الاجتمـاع وبعلم الاقتصاد، إلا أن علم النفس الاجتماعي يتناولها عند مـستوى البحـث النفسي الذي يختص به، فيفتش عن قوانينها المعرفية والانفعالية والـسلوكية الناتجة عن تفاعل الفرد مع الجماعة. وقد يـشير إلـى الجوانـب النفـسية الشخصية أو التربوية أو الـسوسيولوجية أو الاقتـصادية التـي يتـضمنها التعصب، لكنه يترك الغوص في هذه الجوانب إلى العلماء المختصين بهـا. وينطبق الأمر أيضاً على ظاهرة "الحب الرومانسي" التـي لهـا جـذورها البيولوجية والسوسيولوجية والاقتصادية علاوة على بعدها النفسي الملمـوس مباشرةً؛ إذ يركز علماء النفس الاجتماعي بصورة أساسية عند بحثهم للحب على جذوره البيولوجية نظراً للصلة الوثيقة القائمة بين الانفعالات الـشديدة التي يتضمنها وبين وظيفة البيولوجيا المتمثلة في فسلجة الجهـاز العـصبي والغدد الصم. كما يركزون على الجوانب الـسلوكية للحـب التـي يـسهل ملاحظتها واستفتاء آراء الناس وانطباعاتهم بشأنها، وعلاقة هـذه الجوانـب بمتغيرات نفسية أخرى متصلة تكوينياً بالظاهرة. أما الجذور السوسيولوجية والاقتصادية لظاهرة الحب، فتظل الواجهة الخلفية الضرورية للأرضية التي يجري عليها البحث النفسي، ولكن دون أن تقتحم هذه الأرضـية وتتـداخل معها، إيماناً بأن استقلالية وتخصص كل علم لا يتناقض بالـضرورة مـع وحدة العلوم وتكاملها.

وقد تركزت البحوث النفسية الأجتماعية الخاصة بالعواطف لفتـرةٍ طويلـةٍ حول العوامل المؤثرة على ميلنا Liking الأولي الى شخص آخـر، مثـل القرب الزمـاني والمكـاني Proximity ، والجاذبيـة Attractiveness ،

والتشابه Similarity ، وأن تكون مرغوباً Being Liked. ووجد أن هذه العوامل تؤثر أيضاً في علاقاتنا الحميمة طويلة الأمد. فقد توصلت دراسة "بيرج" Berg ١٩٨٤ ودراسة "ماكوين" و"بيرج" & Mc Quinn ١٩٨٦Berg الى أن الأنطباعات Impressions التي يكوّنها الأفراد من الجنسين تجاه بعضهم يمكن أن تزودنا بمفتاح اللغز عن مستقبلهم المشترك الطويل الأمد. ومع ذلك فإن الحب أكثرُ تعقيداً من الميل، وهو ليس تكثيفاً للميل الأولي فحسب. ولأجل هذا، حوّل علماء النفس الأجتماعي اهتمامهم من عملية الجذب اللطيف المعاش خلال اللقاءات الأولى الى دراسة العلاقات الحميمة الراسخة(**Myers,1996,p. 500**).

إن الخطوة الأولى في كل بحث نفسي يسعى الى قياس متغير معين، هي تحديد ذلك المتغير اصطلاحياً. وتحديد المتغير اصطلاحياً يعني تعريفه، بمعنى منحه مفهوماً مستقلاً من الناحية النظرية عن بقية المفاهيم. وهذا يتطلب تحليل المتغير أو الظاهرة حسب اطار نظري محدد، الى عناصرها التكوينية الأولى المميزة لها عن أية ظاهرة أخرى، ثم اعطائها نسقاً كلياً متمايزاً عن غيرها أيضاً. فلدينا اليوم طرق لقياس "العدوان" Aggression ، و "التوافق النفسي" Adjustment ، و "التعصب" Prejudice ، و"القلق" Anxiety لأننا وضعنا لهذه الظواهر تعريفات محددة مستقاة من الاتجاهات النظرية للعلماء والباحثين، وهي ظواهر أصبح بالأمكان تحديد خصائصها السلوكية والشعورية الى حد كبير. ولكن، كيف يتسنى لنا أن نقيس الحب الرومانسي، وهو متغير متذبذب مربك شائك في عناصره البيولوجية والنفسية والاجتماعية والحضارية؟!

واذا كنا قد تعرفنا في الفصل الأول من هذه الدراسة على الأصل التأريخي لكلمة "رومانس" Romance وارتباطها الذي استمر حتى اليوم بالحب، ثم تعرفنا على معاني ومسميات مختلفة لهذا الحب حسب الفلسفات والتنظيرات النفسية له، فإن ذلك كله تمّ في أطرٍ نظرية يختلط فيها الغموض والتعميم والموضوعية والذاتية والخيالية معاً؛ بل أن تنظيرات كثيرةً منها كانت تمثل اسقاطاتٍ فكرية ونفسية ذاتية على مراحل تأريخية وحضارية مرّ بها الفيلسوف أو العالم النفساني. وابتعاداً عن هذه الأساليب التأملية غير القياسية، يتجه علم النفس الاجتماعي اليوم الى استفتاء آراء الأفراد المرتبطين بعلاقات حب كي يمتزج التنظير بالتطبيق في وحدةٍ بحثيةٍ واقعيةٍ متماسكةً. كما يسعى الى اختزال وضغط العناصر السلوكية والشعورية للحب الى عباراتٍ لغوية رشيقة ومحددة لاشتقاق مفهوم مشترك له بين أغلب الناس، مما يهيء للبحث العلمي الفرصة الملائمة لدراسة هذه الظاهرة بيسرٍ الى حدٍ ما، وللثقةِ بنتائج واستنتاجات البحث الى حد كبير، وبالتالي تعميمها تربوياً واجتماعياً لصالح ارتقاء العلاقات البشرية.

فقد عرّف "بيرشد" و "والستر" Bersheid & Walster ١٩٧٨ "الحب الرومانسي" بأنه حالة عاطفية عنيفة بالأساس ((انفعالية حد الهياج، تتعايش فيها المشاعر الجنسية والمشاعر الرقيقة، البهجة والألم، القلق والراحة ،الايثار والغيرة، في فوضى من المشاعر)) **(Gleitman,1995,p.464)**. ويستدعي هذا التعريف الى ذاكرتنا قصيدةً للشاعر والرسام الرمزي الأنكليزي "وليم بليك" William Blake (١٧٥٧ – ١٨٢٧)م، حدد فيها عناصر هذا الحب بدقة جدليةً ملفتةً للنظر (شكسبير ،١٩٨٦،ص٢٤):

((لا يَطلب الحبّ مرضاةً لنفسه

و لا هو أبداً يهتمُ بذاته ،

انما يهيءُ الراحة لغيره ،

ويبني نعيماً في يأس الجحيم .

هكذا غنّتْ كتلةُ الطينِ الصغيرة

تطأها أضلافُ المواشي

غير أن حصاةً من الجدول

ترنّمتْ بهذه الأبياتِ الموائمة :

لا يَطْلبُ الحبّ الا مرضاةً لنفسه

ورَبطَ الآخرِ بمتعتهِ ،

ويفرحُ اذ يسلبُ الآخرَ راحتَهُ

ويبني جحيماً ، رغم النعيم)).

وبسبب هذا الخليط المتناقض من العواطف العنيفة المتضاربة، نستطيع أن نفهم لماذا شبّه "وليم شكسبير" William Shakespeare (١٥٦٤ – ١٦١٦)م العشاق بالمجانين والشعراء: ((إنهم مجانين قليلاً لأن انفعالاتهم عنيفة ولأن أفكارهم وحركاتهم تسلطية؛ وهم شعريون قليلاً لأنهم لا يرون معشوقهم كما هو أو هي حقيقةً، ولكنهم يرونه كاختلاق مثالي الصفات نابع من رغباتهم وتصوراتهم الخاصة)) **(Gleitma,1995,p.464)** . إلا أن ذلك لا يعني أن الحب يظلّ عصياً على القياس بوصفه ظاهرة تعاني من التقلب الانفعالي وخداع المشاعر، فللحب عناصره المشاعرية التي يمكن تحديدها وقياسها كما سنرى. وإذا ما تسنى لبعض الأفراد المرتبطين بعلاقات حب الاطلاع على هذه العناصر واحتمالاتها، فإن ذلك قد يمهد لهم السبيل لفهم طبيعة علاقاتهم، وما إذا كانوا سائرين في درب الوهم القصير الأمد، أم في دربٍ

أكثر يقيناً وأشد رسوخاً. فهل يأتي زمان يقيسُ فيه العشاق أعماقهم على مسطرةٍ علميةٍ بسيطةٍ كي يجنبوا أنفسهم ما لا ضرورة له من أوهام وآلام ومشاق، أم يظلّ الحب منيعاً على كل تأطير أو مقياس نهائي ما دام الانسان يسعى بطبيعته الأستكشافية المتنامية الى اعتناق الأوهام بوصفها قبساً ضرورياً يداوى به عتمة النفس الحائرة الباحثة عن معادلٍ لها خارجها في حضارات الأغتراب والتملّك والصراع ؟!

◈ ◈ ◈

دراسات في الحب الرومانسي

(١) مقياس "روبن" للحب

من بين الباحثين الرواد في قياس الحب، الباحث "زك روبن" Zick Rubin ١٩٧٠، ١٩٧٣ الذي صمم مقياساً للحب صار يعرف باسمه: "مقياس روبن للحب" Rubin's love Scale .

ينظر "روبن" الى الحب بوصفه ((اتجاهاً)) Attitude متعدد الاوجه. وهو منظور اوسع مما لدى المنظّرين الذين نظروا الى الحب بوصفه ((انفعالاً)) Emotion أو ((حاجة)) Need ، أو نسق من السلوك. كما إن ربط الحب بهدف معين، يتضمن رؤية أكثر تحديداً من زاوية اولئك الذين عدّوه مظهراً من شخصية الفرد أو خبرته، مما يجعله (أي الحب) متجاوزاً لأشخاص معينين بحد ذاتهم أو مواقف معينة بحد ذاتها.

ويعرّف "روبن" "الحب الرومانسي" بأنه ((حب بين امرأة ورجل غير متزوجين، وهو من النوع الذي يمكن ان يؤدي الى الزواج)).

ويعرّف الاعجاب (الولوع) Liking بأنه ((تقويم مؤاتٍ، واحترام للشخص الهدف، فضلاً عن ادراك التشابه معه)).

بلغ عدد أفراد عينة هذه الدراسة (١٥٨) طالباً وطالبة، موزعين بالتساوي حسب الجنس، تم اختيارهم على أساس إن كل طالب وطالبة منهم كانا مشتركين بعلاقة عاطفية بينهما، مضى عليها حوالي سنة. وقام الباحث ببناء مقياسين، احدهما للحب Love scale ، والاخر للاعجاب Liking Scale . يتألف كل مقياس من (١٣) فقرة ، ولكل فقرة (٩) بدائل تمتد على مدرج متصل يبدأ بـ((غير موافق اطلاقاً)) وله درجة واحدة، وينتهي بـ((موافق جداً)) وله (٩) درجات. ويقيس مقياس الحب درجة الحب بين كل طالبة وطالبة مشتركين في علاقة حب ضمن عينة البحث. كما يقيس درجة الحب بين كل فرد من عينة البحث وصديقه من الجنس نفسه. اما مقياس الاعجاب فيقيس درجة الاعجاب بين كل طالب وطالبة مشتركين في علاقة حب، ويقيس ايضاً درجة الاعجاب بين كل فرد في العينة وصديقه من الجنس نفسه.

يتألف مقياس الحب الرومانسي من (٣) مكونات رئيسية هي :

- **حاجة الانتماء والاعتماد Affiliative & Dependent need**

مثلاً : ((اذا لم استطع ان اكون مع --------- اشعر بالتعاسة)).

- **الاستعداد للمساعدة Predisposition to help**

مثلاً: ((اذا كان "كانت"----- يشعر "تشعر" بتعاسة، فإن واجبي الاول هو اسعاده "اسعادها")).

- **الاحاطة والاستغراق Exclusivencss & Absorption**

مثلاً: ((أشعر بأنني استطيع الوثوق بـ ---- في كل شيء حقاً)).

وقد استند الباحث في بنائه لفقرات مقياس الحب الى تأملات بعض المنظرين عن الحب، مثل "رونجيمونت" Rongemont ١٩٤٠ ، و "فرويد"

١٩٥٥ ، و "فروم" ١٩٥٦ ، و "جود" Good ١٩٥٩. وقد اشارت هذه الفقرات الى الجذب الجسدي، واعطاء الصفة المثالية Idealization ، والاستعداد للمساعدة، والرغبة في تقاسم العواطف والخبرات، والشعور بالاحاطة والاستغراق، والشعور بحاجة الانتماء والاعتماد.

أما بناء مقياس الاعجاب، فاستند الباحث فيه الى الادبيات النظرية والامبريقية المتوافرة عن الجذب البينشخصي (أو الاعجاب liking) والمنسوبة الى "لندزي" و "بايرن" Byrne & Lindzey ١٩٦٥. وقد تضمنت الرغبة بالانتماء الى الشخص الهدف في مواقف متنوعة، وتقديمه بابعاد متنوعة من خلال ابراز معايير المسؤولية والانصاف، ومشاعر الاحترام والمسؤولية والثقة وادراك التشابه معه.

وقد اظهرت النتائج أن حب الرجال للنساء كان مماثلاً تقريباً لحب النساء للرجال. وإن النساء كن معجبات بشركائهن الرجال أكثر إلى حد ما من اعجاب شركائهن الرجال بهن. ولم يكن هناك فروق في اعجاب كلا الجنسين باصدقائهم من الجنس نفسه. كما بينت النتائج أن النساء ينزعن الى حب صديقاتهن اكثر مما يفعل الرجال تجاه اصدقائهم.

وقد تحقق الباحث من صدق البناء لمقياسه بعدة طرائق. فجاءت النتائج داعمة لهذا الصدق، مما يقوي الفرضية التي استند اليها الباحث في تحديده لمفهوم الحب، حين حدد ان مقياس الحب يقيس الاتجاه نحو شخص محدد، أكثر من قياسه لتوجهات بينشخصية عامة او نزعات استجابية **(Rubin, 1970,p.265-273)**

فعلى سبيل المثال، ثبتَ من خلال التجارب إن الثنائيات ذوي درجات الحب فوق المتوسطة ينظر كل منهم الى عيني الآخر نظرات أقوى من أولئك الذين تكون درجاتهم منخفضة. ومن الطريف أن الثنائيات ذوي الدرجات

العالية في الحب قادرون على البقاء مع بعضهم أكثر من ذوي الدرجات المنخفضة، خاصة اذا كان لكل منهما آراء رومانسية. وتشمل الآراء الرومانسية حسب اعتقاد "روبن": ((١- الحب سبب كاف لاستمرار العلاقة ٢- الاعتبارات العملية كالتشابه في الشخصية والأمان الاقتصادي ليست أشياء حاسمة في نجاح العلاقة)). كما أثبتت بعض الدراسات ١٩٧١ أن الأفراد ذوي الحاجات الشديدة للانتساب يحتاجون الى الشريك حسب مقياس "روبن" أكثر من ذوي الحاجات المنخفضة. كما وجد عالم النفس " ريشارد كمبالو " ١٩٧٦ والعاملون معه أن مدة زواج الاثنين كلما طالت، قلت درجات الحب عندهما حسب مقياس "روبن" للحب، ومع ذلك فأن درجات الاعجاب تظلُ عالية (دافيدوف، ١٩٨٣،ص ٧٥٤، ٧٥٥).

(٢) أثر تدخل الوالدين في مسار الحب الرومانسي:

سعت هذه الدراسة المعنونة ((**التدخل الوالدي والحب الرومانسي: مغزى روميو وجوليت**)) في جزئها النظري الى تحديد التضاد بين الحب الرومانسي والحب الزواجي Conjugal love . فالحب الزواجي هو حب بين بالغين ناضجين، ويُعتقد أنه ينشأ من التفاعلات المُرضية المتبادلة، ومن الثقة المتزايدة والأمان الشخصي في العلاقة. ويستلزم الحب الزواجي أن تتوافر فيه عناصر أي صداقة حميمة، كالثقة المتبادلة، والابتعاد عن الانتقادية، والاحترام، والمشاركة، والمعرفة الاصيلة بالآخر، والاخلاص. وإن العديد من عناصر الحب الزواجي هذه لا يتطلب وجودها في الحب الرومانسي. والحقيقة إن ارتباط الحب الرومانسي باللايقين والتحدي والطلبات المتكررة التي يقدمها العاشق لإعادة التأكد من حب شريكه، تشير

الى إن الثقة المتبادلة في الحب الرومانسي هي أمر مشكوك فيه؛ بمعنى إن ارتباط الثقة بالحب هو أمر جوهري للتمييز بين الحب الزواجي والحب الرومانسي.

وقد اختبرت فرضيتان في هذه الدراسة، هما :

أ- ((ان مشاعر الحب الزواجي تصبح أكثر ارتباطاً بالثقة والتقبل، كلما تطورت العلاقة بمرور الوقت)). وقد اشتقت هذه الفرضية من التمييز بين الحب الزواجي والحب الرومانسي.

ب- ((ان تدخل الوالدين في علاقة الحب يكثف مشاعر الحب الرومانسي بين المحبين)). وقد اشتقت هذه الفرضية من الادبيات الكلاسيكية وديناميات الجماعة الصغيرة، وفسرت باستخدام مبدأين نظريين هما: ((الاثر الدافعي للاحباط)) Motivating Effect of Frustration . و((التمرد النفسي)) Reactance .

وتوصلت النتائج الى تأييد كلا الفرضيتين اعلاه.

(Driscoll et al., 1972,pp. 1-10)

(٣) أربع فرضيات للحب:

وضع " بارديس " Bardis ١٩٧٥ أربع فرضيات للحب في محاولة لصياغة نظريةٍ فيه، هي:

أ - إن كل حب بين الجنسين ينتج عن حاجات جسدية وغير جسدية، ويسعى الى اشباعها أو ارضائها.

ب- تكون هذه الحاجات قابلة لتبادل التحويل، بمعنى أن فشل حاجة جسدية أو غير جسدية، يمكن أن يؤدي إلى تحويلها الى حاجة أخرى جسدية أو غير جسدية.

ج- عندما يتوقف موضوع الحب (المحبوب) عن ارضاء حاجات المحب، فإن موضوعاً آخر (شخصاً آخر) يمكن أن يحلّ مكانه.

د- عندما يكون حب الشريكين قوياً أو كاملاً تقريباً، فإن ارضاء الحاجات الجسدية وغير الجسدية يكون عادةً ارضاءً غير متساو، أي أن مجموعة من الحاجات تُرضى أكثر من غيرها.

(صالح (ج)، ١٩٨٨،ص٢٣٧)

(٤) الحب الرومانسي والكفاية الاجتماعية:

تناقش هذه الدراسة المعنونة (("الحب الرومانسي" **حالة خاصة من الكفاية الاجتماعية**)) النماذج السريرية المختلفة، لكونها توفر تفسيرات مختلفة للتفاعلات التي تحدث نموذجياً في الحب الرومانسي. إحدى هذه النماذج يصور الحب على أنه واحد من أكبر الاوهام في التجربة البشرية، فيما يقترح الآخر أن الحب هو من اكبر الامكانيات في التجربة البشرية. وقد قام "كاسلر" Casler ١٩٧٣ بصياغة الفرضية الخاصة بـ ((الوهم)) مشتقاً اياها من المنظور الفرويدي، وعرّف الحب بأنه ((الخوف من فقدان مورد مهم من موارد الاشباع)). وفي هذه النظرية لا يقع اللوم على الحب بحد ذاته، ولكن على حاجتنا العصابية له. وبالمقابل قدم "براندين" Branden الحب الرومانسي بوصفه امكانية كبيرة، ضمن منظور اكثر ترابطاً ووضوحاً، إذ يشتق الجذب الذي يقوم عليه الحب من ((صدمة التعرف)) Shock of Recognition ، أي ادراك تصور مشابه للحياة.

وتوجد عدة نقاط مشتركة بين النموذجين. فكلاهما يصف الافراد الاقوياء والضعفاء، والحب بحد ذاته يعد مصدراً مهماً للاشباع في كلا النموذجين. ويقدم "تينوف" Tennov ١٩٧٩ دليلاً على وجود نوعين من الخبرات

الممكنة ضمن نطاق الحب الرومانسي. فسواء كان الحب الرومانسي يشير الى الكفاية الاجتماعية Social Competence او الى عدمها، فإن ذلك يعتمد على اسباب الدخول في العلاقة، والذي يعتمد بدوره على وضع الذات. وإن التعرف على هذا الاعتماد، يوفر سبيلاً مهماً لفهم كلاً من علاقة الحب، والذات التي اصبحت مرتبطة بها رومانسياً.

(Warren, 1982)

(٥) مفهوم "الحب الرومانسي" لدى الأجيال المختلفة:

تضمنت هذه الدراسة المعنونة **((الحب والعاطفة الرومانسية خلال دورة الحياة))** مسألتين، إذ تمت دراسة طبيعة او كثافة خبرة الحب، وكذلك دوافع أو غايات الحب لدى مجموعتين مختلفتي الاعمار . كما دُرست الطرائق التي يتغير بها السعي نحو حب الجنس الآخر في حياة البالغين. وقد أظهرت النتائج أن هناك تشابهاً في التعريفات المشتركة للعاطفة الرومانسية، واختلافاً في تفسير الحب لدى الاعمار المختلفة. ففي الأعمار الاصغر عُدّ الحب مساوياً للاثارة الانفعالية البدنية، ونُظر الى الحب الرومانسي على أنه ((شهواني)) Passionate . أما في الاعمار المتوسطة، فوُصِفت العاطفة الرومانسية بمصطلحات ((الرفقة)) Companionship ، و((الامان)) Security ، و((الفوائد العملية)) Pragmatic Benefits . فالرجال المتزوجون (عددهم ٧١ واعمارهم بين ٣٠ الى٥٥ سنة) أعطوا قيمة اكبر للرفقة والامان في زيجاتهم. أما في الأعمار الأكبر فتبين أن علاقات الحب لدى المبحوثين لها بعض أعراض العلاقات المبكرة السابقة في حياتهم، وإن الطبيعة الرفقوية للحب كانت أهم لديهم من الأعراض الشهوانية أو الجسدية. وعند دراسة اشخاص تجاوزوا سن الستين (عددهم ٦٠) ومازالوا في علاقات حب، اتضحت أهمية حاجة ((الالفة)) Intimacy لديهم، فضلاً عن

إن مبدأ التبادل القائم على المكافآت Rewards مقابل الكلف Costs في العلاقة، اصبح عاملاً بحد ذاته **(Roden et al., 1985)**.

(٦) ستة أنماط للحب الرومانسي:

في دراسة "مارستون" Marston وآخرون ١٩٨٦ تم استنطاق الخبرة الذاتية Subjective Experience للحب لدى المبحوثين (أي المشاعر المرتبطة بالحب والمعاني التي تعزى إلى هذه المشاعر) والكيفية التي يتم فيها إيصال الحب Communication of Love. وقد تمت المقابلات الشخصية وجهاً لوجه مع (٧٦) مبحوثاً (بمدى عمري يتراوح من ٢١ إلى ٥٤ سنة. وكان ٥٢% منهم بعمر يتجاوز ٣٠ سنة). وفي القسم الأول من المقابلة سئل المبحوثون أربعة أسئلة:

- ما هو الشعور بالحب ؟
- ما هي العوامل والتغيرات الفزيولوجية المصاحبة للحب ؟
- إذا كان للحب لون، فما هو هذا اللون ؟
- إذا كنت قادراً على إيراد عبارة شعرية موزونة تعبر عن هذا الحب، فماذا ستكون هذه العبارة ؟

وفي القسم الثاني من المقابلة، طلب من المبحوثين أن يصفوا كيف يوصلون حبهم لشريكهم، وكيف يوصل شريكهم حبه إليهم.

وقد أظهر التحليل العنقودي Cluster Analysis ستة أنماط من خبرات الحب الرومانسي:

أ) **الحب التشاركي** **Collaborative Love**

ب) **الحب الفعال** **Active Love**

جـ) **الحب الآمن** **Secure Love**

د) **الحب الحدسي** **Intuitive Love**

هـ) الحب الملتزم Committed Love

و) الحب الرومانسي التقليدي Traditional Romantic Love

كما توصلت الدراسة من خلال نتائجها إلى استنتاجين شاملين:

الاستنتاج الأول: يمكن للحب أن يختبر خلال تنويعة واسعة من طرق مختلفة: بلغة المفاهيم العلائقية Relational Constructs، والاستجابات الفزيولوجية Physiological Responses، والإدراكات الحدسية Intuitive Perceptions، و / أو الأفعال السلوكية Behavioral Actions.

الاستنتاج الثاني: هناك ارتباط قوي بين إدراكات العشاق للحب وبين إفاداتهم عن كيفية إيصال الحب.

(Marston, 1986)

(٧) نظرية التعلق:

يعدّ مفهوم "التعلق" Attachment بين البشر من المفاهيم الأساسية المرتبطة سببياً بظاهرة الحب الرومانسي.

ويختلف علماء النفس حول تحديد أصل "التعلق"، أهو حاجة لمثير Stimulus؛ أم إنه دافع Motive بحد ذاته ؟ أم نموذج مبيت Built-in Pattern لسلوك انعكاسي Reflex Behavior ؟ أم أنه نتاج لمجموعة من الانعكاسات(١) الموروثة Inborn Reflexes ؟ لكنهم يتفقون عموماً أن الرضيع البشري يرث نزوعاً قوياً للتعلق بشخص آخر، يكون في العادة أمه. وهذا النزوع يظهر من خلال (أو قد ينتج من) بعض السلوكيات، مثل "الشمشمة" Rooting و "المص" Sucking و "الغمغمة" Babbling و"الابتسام" Smiling و "البكاء" Crying. وكل هذه السلوكيات تكون موجهة نحو مثيرات يمكن إحداثها فقط من كائن بشري آخر، هو الأم في الأحوال الاعتيادية **(Kagan,1972,pp. 533-534).**

وتسمى النظرية التي تتبنى هذا المفهوم بـ"نظرية التعلق" Attachment Theory، والتي ترى (كما أوضحنا) أن الرضيع يولد مزوداً بنزوع موروث للتعلق. ويحفز هذا النزوع الرضيع على البحث عن التقارب والاتصال بأمه، فيطلب منها تزويده بالغذاء وتخليصه من الألم، ويؤدي به إلى التفتيش النشيط عن حمايتها خلال فترة العجز الطويلة التي يكون فيها غير قادر على البقاء بدونها. وعلاوة على ذلك، فإن هذا الاقتراب النشيط من قبل الرضيع نحو أمه سيعزز ويقوي جهودها لحمايته ورعايته قدر إمكانها **(Kagan,1972,p.534)**.

وبالاستناد إلى هذه النظرية، سعت دراسة "شيفر" Shaver ١٩٨٦ إلى بحث علاقة الحب الرومانسي بـ"التوحد" Loneliness (أي معايشة حالة الوحدة)، في وقت أصبح فيه "الطلاق" و"الحراك الجغرافي" Geographical Mobility (أي انتقال الناس من منطقة إلى أخرى لتغيير مكان سكنهم) يفصلان عدداً كبيراً من الناس عن بعضهم. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات، أهمها:

- يحافظ الناس على استمرارية أسلوبهم في التعلق Attachment Style على امتداد حياتهم بواسطة عدد من وسائل تبادل العلاقات، منها وسائل انفعالية ومعرفية وسلوكية.
- إن تنظيم السلوك التعلقي لدى الطفل يميل إلى الثبات طوال حياته.
- يشترك السلوك التعلقي المبكر والحب الرومانسي اللاحق في عدد من النقاط المتشابهة.
- يوجد اختلاف بين العشاق القلقين المتأرجحين Anxious / Ambivalent Lovers وبين العشاق الآمنين Secure Lovers.

- هناك ثلاثة أصناف من الناس يتباينون حسب نوع التعلق الذي خبروه في حياتهم:

أ) الآمنون نسبياً، الذين تمتعوا برعاية والدية معقولة.

ب) القلقون المتأرجحون في عقد علاقات حميمة، المنخفضون في مرونة الأنا Low in Ego-Resilience.

جـ) المتجنبون للعلاقات الحميمة، الذين تم صدهم خلال جهودهم المبكرة لتحقيق التعلق الآمن.

(Shaver, 1986)

(٨) العوامل التي تؤدي الى فشل الحب أو نجاحه:

حدد "لندزمان" Landsman و "جورارد" Jourard في كتابهما "الشخصية السليمة" العوامل التي تعزز الخيارات غير الحكيمة في الحب (جورارد، ١٩٨٨، ص ٣٥٠-٣٥٥):

أ) الحاجات المزمنة:

يتصرف الشخص الذي يمتلك حاجات قوية غير مشبعة بطريقة ذاتية صرفة تهمل الواقع وتركز على الحاجة المباشرة فقط. فيبحث عن إرضاء حاجاته المباشرة ويغفل الجوانب الأخرى في من يريد الزواج منه. وقد تكون الجوانب التي أغفلها في غاية الأهمية لنموه وسعادته اللاحقة.

ب) قلة معرفة الذات:

لا يستطيع المرء المغترب عن ذاته الحقيقية أن يعرف ما الذي يحتاجه لكي يصبح سعيداً، فلا يكون اختياره مبنياً على أساس حاجاته الحقيقية المهمة.

جـ) عدم معرفة المحبوب:

إن أفضل طريقة لمعرفة الشخص الآخر هي ملاحظته للحصول على استنتاجات مؤقتة بشأنه، ومن ثم تغيير هذه الاستنتاجات باستمرار كلما تزايدت لدينا الملاحظات. وعندما لا يتبنى المرء هذا الإجراء، يترتب على ذلك أن إدراكه لسمات الشخص الآخر سيكون ذاتياً محضاً، وغير دقيق؛ أي إنه سيكون مبنياً على الملاحظات التي توجهها الحاجات الطاغية للملاحِظ وإسباغ الصفات على المحبوب، والإسقاط التمثلي، وإنكار ما لا يتفق وما يريده الملاحِظ، والاعتماد على التقولات.

د) عدم إشباع حاجات الحب في المراحل الأولى من الحياة:

يشك العلماء أن فقدان الحاجة إلى الحب لدى الإنسان ممكن، ولكن قوة البحث الواعي عن الحب ربما ترتبط بمقدار الحب الذي حصل عليه الإنسان في طفولته. فإن لم يحصل الطفل على المحبة منذ الولادة، فقد ينشأ المرء "سايكوباثياً"[٢] غير قادر على ممارسة المحبة. ولذلك لن يبحث عن الحب بشكل واع. فالقدرة على الحب ثمرة لإشباع حاجات الحب في المراحل الأولى من الحياة. هناك أساس منطقي لعبارة كهذه، كما أن لها أسساً تجريبية أيضاً.

كما أقترح "لندزمان" و "جورارد" بعض العوامل التي توسع قدرة الشخص في الحب الفاعل (جورارد، ١٩٨٨، ص ٣٥٥-٣٥٩):

أ) إشباع الحاجات الأساسية:

إن الشخص الذي نال إشباعاً سخياً لحاجاته يمكن أن يكون في موضع افضل لممارسة الحب، فهو ليس مكرهاً على تكريس جل طاقاته لإشباع احتياجاته الأخرى.

ب) إثبات وتوكيد الحب:

إذا اكتسب المرء شعوراً بأهمية الحب وقيمته كشيء مهم بحد ذاته، فإنـه لا شك سيبحث عن فرص الحب، ويبني تقديره لذاته على الأقل جزئياً على قدرته لأن يحب بشكل فعال.

جـ) تحمل عال للإحباط:

كلما كانت قدرة المحب على تحمل فترات أطول من الحرمان، كان أقدر على أن يحب.

د) حب الذات:

حب الذات يجعل الفرد منتبهاً لحاجاته، ويرفع هذا من حساسية المرء لحاجات الآخرين. وإذا ما شعر الشخص بالحاجة وإشباعها فهو قادر على أن يتصور ما هي حاجات الحبيب وكيف يمكن أن يسد تلك الحاجات.

هـ) الكفاية:

كلما زادت مهارات المحب تشعبت الحاجات التي يستطيع المرء إشباعها بتصرفاته المحبة.

و) تركيب الذات السليم:

إذا كان المحب يمتلك مفهوماً للذات وذاتاً مثالية وذوات اجتماعية تسمح له بالتصرف بحرية تامة، فإن قدرته على الحب ستتعزز، ولن يلجأ إلى التخلي عن بعض التصرفات المعبرة عن الحب بسبب الحاجة للدفاع عن مفهوم للذات غير واقعي، أو ينصاع لذات اجتماعية خاطئة أو لضمير مفرط الصرامة.

ز) الاتصال بالواقع:

تتطلب القدرة على إبداء الحب نحو الآخرين معرفة وثيقة بهم. والـشخص المتمركز ذاتياً لا يستطيع أن يعرف الآخرين لتركيزه على ذاته فحسب. ولذلك لن يستطيع أن يسد حاجاتهم.

ح) المثل العليا المعقولة:

يضع بعض الأشخاص مثلاً عليا وشروطاً مستحيلة التحقيق، يشترط وجودها في الآخرين قبل أن يمنحهم حبه. فينشغل المرء في البحث دون جدوى أو نهاية عن الشخص الكامل الذي يستحق حبه. ومن الطبيعي أن لا يجد المرء مثل هذا الشخص الكامل، فيعاني من خيبة أمل مستديمة.

ط) التحرر من الأبوين:

إذا ما تصرف المرء لكي يرضي والديه فقط، فإن قدرته على الحب تنخفض. والسبب وراء ذلك هو أن السلوك الضروري لإسعاد الحبيب قد يكون من أنماط السلوك التي يحرّمها الأبوان ويعارضانها.

(٩) مثلث الحب:

يتصور عالم النفس "روبرت شتيرنبرج" Robert Sternberg ١٩٨٨ الحب مثلثاً أضلاعه الثلاثة (المختلفة الأطوال) هي:(Myers,1996,p. 500)

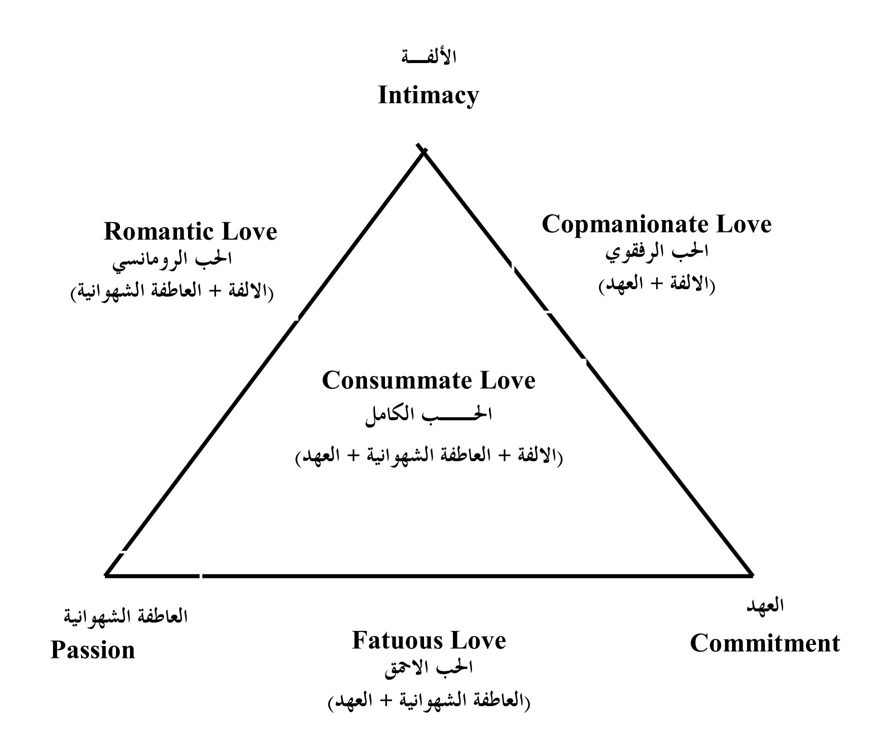
أ- العاطفة الشهوانية Passion

ب- الألفة Intimacy

ج- العهد Commitment (أي الالتزام الذي يبديه المحب نحو محبوبه).

فإذا إجتمعت الألفة مع العاطفة الشهوانية كان الحب "رومانسياً" Romantic Love . واذا أجتمعت الألفة مع العهد كان الحب "رفقوياً"

Companionate. واذا اجتمعت العاطفة الشهوانية مع العهد (أى دون ألفة) كان الحبّ "أحمقاً " Fatuous Love . أما اذا إجتمعت العناصر الثلاثة معاً: الألفة والعاطفة الشهوانية والعهد، كـان الحـب "كـاملاً " Consummate Love. (أنظر الشكل (١) أدناه).



الشكل (١)

أنواع الحب بوصفها اتحادات لثلاثة مركبات اساسية للحب

كما تصورها "روبرت شتيرنبرج" Robert Sternbeng ١٩٨٨

(١٠) الحب الرومانسي والإرشاد النفسي:

إن البحث الذي ينقب في طبيعة الحب قد يكون مفيداً في الحصول على اطار عمل يمكّن المرشدين من تفهم العلاقات والاعراض الخاصة بالمراجعين الذين يبحثون عن المساعدة في شؤون علاقاتهم. وقد سعت هذه الدراسة المعنونة ((**قياس ادراكات الحب الرومانسي في ثلاثة منظورات إرشادية**)) الى اختبار طبيعة الحب عبر قياسه بثلاث ادوات. الأداة الاولى ذات قاعدة استنباطية، تنسب الى "هندريك" و" هندريك" Hendrick & Hendrick . أما الأداتان الأخريان، فكانتا ذات قاعدة استقرائية، وهما مقياس علاقات الحب Love Relationships Scale ، والمقياس الثلاثي للحب Triangular love Scale . وقد بينت النتائج الخاصة بـ (٦٩) طالباً، أن التفكير الوسواسي Obsessive Thought يعد سمة مهمة سائدة في الحب، منعكساً في عزل العناصر المسماة: التفكير الوسواسي، وافتراض المثالية Idealization، والهوس Mania **(Davenport et al. , 1992)**.

هوامش

(١) **الفعل المنعكس Reflex Action**: ((فعل آلي ثابت يتحتم الحصول عليه في حالة وجود المؤثر المناسب. وهذه الأفعال الآلية كثيرة عند الإنسان – مثل ضيق حدقة العين إذا سقط عليها ضوء واتساعها بابتعاد الضوء – وتخرج عن دائرة الإرادة والتحكم، وتحدث دون تفكير أو رغبة، وفي بعض الأحيان دون شعور)) (الحفني(أ)، ١٩٧٨، ص ٢٢١).

(٢) **سايكوباثي Psychopath**: ((هو الفرد الذي يعاني من انعدام استقرار العاطفة إلى درجة تقترب من الحالة المرضية، لكنها لا تتم عن خلل عقلي محدد أو متميز، بل يقصر صاحبها عن تحقيق التوافق مع محيطه الذي يعيش فيه. والسايكوباثي مصاب بالفجاجة

العاطفية وعدم النضج الأخلاقي، قليل التبصر في عواقب الأمور، عصبي المزاج، وسريع الغضب والانفعال)) (رزوق، ١٩٧٧، ص١٦٧). وما يزال هذا المصطلح مفيداً وشـــائع الاستعمال، بالرغم من أنه أستبدل في التصنيفات النفسية الحديثة بمصطلح "سوســـيوباثي" Sociopath أو "الشخصية المعادية للمجتمع" Anti Social Personality.

الأسس الانفعالية للحب

إن (الأدرينالين) المرتبط مع تنويعة واسعة من الأنفعالات القوية، يمكن أن يتدفقَ ويجعل العاطفة أكثر اتقاداً !

ريشارد رابسون و إلين هاتفيلد

الجذر البيولوجي للحب

توجد خاصيتان تميزان البشر عن الحيوانات الاوطأ. الأولى إننا نشرب عندما لا نكون عطاشى، والثانية إننا لانملك موسماً للتكاثر، لأننا نمارس الحب والزواج على مدى العام **(Fromme,1960,p.228).**

ويكتب "جلتمان" Gleitman ١٩٩٥: ((هناك قوة ايجابية، تبدو وكأنها أساسيةٌ تماماً ومتجذرة بعمق في التكوين البيولوجي للحيوانات والبشر، يسميها الشعراء بـ "الحب" Love . أما العلماء فيستخدمون مصطلحاً أكثر نثريةً هو "الرابطة" Bonding)). ويعرّف هذه الرابطة بأنها: ((ميل الكائن للاندماج بالآخرين من نفس نوعه)) **(Gleitman,1995,p.390).**

ويرى "هارلو" Harlow ١٩٧١ أن هناك نظاماً عاطفياً بين الجنسين Heterosexual Affectional System، يتشابه بآلياته السلوكية لدى البشر والقرود، وأن هذا النظام بدوره يتكون من مجموعة من الأنظمة الفرعية المتتالية زمنياً بفعل تأثير تلك الآليات السلوكية، من النظام الفرعي للحب الطفولي Love–Infant إلى النظام الفرعي الرومانسي Romantic Subsystem. ويحدد الخاصية الجوهرية للنظام الفرعي الرومانسي بأنها

الرابطة العاطفية Affectional Bond بين فردين يشكلان ثنائياً من جنسين مختلفين (أي ذكر وأنثى). ويعتقد بأن هذه الرابطة العاطفية تعمل بدرجة ما في كل علاقة مقبولة بين الجنسين تكوّنها الثدييات Primates **(Harlow,1971,pp. 94-95)**.

وتظهر بحوث "هارلو" أن الآليات السلوكية العاطفية المتشابهة بين البشر والقرود تؤدي إلى ظهور متطلبات أساسية في عملية تكوين النظام العاطفي بين الجنسين وأدائه لوظيفته. وهذه المتطلبات الأساسية هي **(Harlow,1971,p.95)**:

(١) الثقة بين الجنسين.
(٢) تقبل الاتصال الجنسي بينهما.
(٣) تمايز الدور الجنسي السلوكي (أي إن كل جنس يكتسب السلوك والدور المحدد له اجتماعياً).
(٤) الدافعية الاجتماعية لعملية التقارب الجسدي (أي الرغبة بالانتساب للآخر Affiliation).

وتستطيع هذه العوامل الأربعة أن تخلق الفرصة لتحقيق تعلم إضافي أثناء البلوغ، وبالتالي تتمة وتوسيع العلاقات بين الجنسين. وإذا كانت هذه المتطلبات الأربعة تصف العناصر المشتركة في السلوك الجنسي بين الجنسين لدى كل الحيوانات، فإن لدى الإنسان آليات تحويلية إضافية تفسر لنا التعقيدات الفردية والثقافية الواسعة التي أنجزتها القدرات التعلمية واللغوية للبشر. ومن المحتمل أن هذه المتغيرات المتعلمة تعمل خلال الأدوار الجنسية (أي الدور الاجتماعي لكل جنس) المتزايدة التعقيد التي يكتسبها الذكور والإناث. إن الذي يقرر هذه الأدوار هو المتغيرات

التشريحية، والمتغيرات السلوكية المتأصلة Innate، وعدد كبير من المتغيرات الثقافية المحدِّدة لنموذج العلاقات الجنسية المفروض على حياة البالغين (Harlow,1971,pp. 95-96).

◈ ◈ ◈

المعرفة والانفعال

طبقاً لهذا التصور عن الجذر البيولوجي للحب، يتردّد في بعض دراسات الحب الحديثة مصطلح "الحب الشهواني" Passionate Love بوصفه صورة من صور الاستثارة البيولوجية الانفعالية الشديدة ذات المضمون الرومانسي العنيف. وقبل أن نوضّح تفاصيل هذا المفهوم، لا بدّ أن نحدد التعريف النفسي لكل من المعرفة والانفعال وعلاقتهما ببعضهما.

المعرفة(١) Cognition: في علم النفس هي ((العملية العقلية التي يصبح الفرد بمقتضاها واعياً ببيئته الداخلية والخارجية، وعلى اتصال مستمر بها. وعمليات المعرفة هي الإحساس والإدراك والانتباه والتذكر والربط والحكم والتفكير والوعي (الحفني(أ)، ١٩٧٨، ص١٤٣). ويستخدم مصطلح "العمليات المعرفية" Cognitive Processes للإشارة إلى الطرائق التي ينتقي بها الفرد المعلومات من البيئة، ثم يحور هذه المعلومات ويستخدم ذخيرته من المعرفة والمهارات لمواجهة متطلبات المهمة التي بين يديه. وهذا لا يعني أن ننظر إلى الإنسان بوصفه يقظاً على الدوام ويتعامل مع كل المعلومات التي تواجهه في البيئة ويكون واعياً بما يفعل باستمرار. فالناس إنتقائيون في انتباههم، ويتعاملون أحياناً مع المعلومات بصورة لا شعورية (Bourne,1976, p.145).

في السنوات الممتدة من ١٩٣٠ وحتى ١٩٦٠م، كان علماء النفس الأمريكيون يتحدثون قليلاً وبحذر (أو لا يتحدثون مطلقاً) عن العقل،

والتخيل، والتفكير، والاختيار، وحل المشكلات؛ وذلك لأن علماء النفس السلوكيين الأوائل عالجوا الناس وكأنهم "صناديق سوداء" Black Boxes يمكن فهمها ببساطة بواسطة قياس المثيرات الداخلة فيها والاستجابات الخارجة منها. وفي أوائل الستينات بدأ علماء النفس المعرفيون في التمرد على النموذج السلوكي القديم، مؤكدين أنهم يجب أن يصلوا إلى ما يجري داخل الصندوق الأسود، وبصفة خاصة العمليات العقلية (دافيدوف، ١٩٨٣، ص٤٨). وبذلك اتضحت ملامح "علم النفس المعرفي" CognitivePsychology الذي يعرّفه "كاجان" Kagan بأنه ((مدرسة فكرية تحاجج بأن العقل لا يستجيب إلى المثيراث فحسب، ولكنه يعالج أيضاً المعلومات التي يستقبلها بفعالية، ويحولها إلى صيغ وأصناف جديدة)) **.(Kagan,1972, p.587)**

وقد امتدت هذه المدرسة بحدود تأثيرها إلى اغلب مجالات الفكر النفسي المعاصر، ولا نكاد اليوم نواجه نظرية أو اتجاهاً نظرياً في أي فرع من فروع علم النفس إلا وكان معرفياً في مضامينه جزئياً أو كلياً. فالتنظير النفسي في نهاية القرن العشرين صار في مضمونة التحليلي والتفسيري مزيجاً جدلياً من تفاعل "المعرفة" Cognition و "الانفعال" Emotion و"الفعل" Action، على المستوى الشعوري واللاشعوري، ضمن وحدة بحثية كلية هي الكائن البشري بكل مستوياته الفيزيائية والبيولوجية والفزيولوجية والنفسية .

الانفعالات Emotions : ((حالات داخلية تتصف بجوانب معرفية خاصة ،واحساسات ، وردود أفعال فزيولوجية، وسلوك تعبيري معين. وهي تنزع للظهور فجأةً ويصعب التحكم فيها)). وهناك ثلاث حالات انفعالية رئيسة: ((القلق، والغضب والعدوانية، والابتهاج)) (دافيدوف ،١٩٨٣،ص٤٨٠).

وتكون دراسة الانفعالات إما برصد السلوك الانفعالي الظاهر الــذي يــشمل التغيرات في أوضاع الجسم وحركاته والإيحــاءات والنظــرات والــصوت وتعبيرات الوجه، أو بقياس التغيرات الفزيولوجية الداخلية كالتغييرات فــي كيمياء الدم ونبض القلب وضغط الدم والتنفس والتمثيل الغذائي وكهربائيــة الجلد ودرجة حرارته والتوتر العضلي والنشاط المعدي المعوي، أو أن يقوم الشخص المنفعل بالتحدث عما يعتريه من تغيــرات لكونــه الأقــدر علــى ملاحظة حالته الانفعالية ومشاعره الذاتية. ونظراً لمغالاة البعض أو تمويههم أو إعطائهم انطباعاً مغلوطاً عــن انفعــالاتهم، اتجهــت معظــم دراســات الانفعالات إلى الناحية الفزيولوجية، غير أن علم النفس يؤكد أن الانفعــالات ليست مجرد عمليات فزيولوجية، إذ تتأثر هذه العمليات بمكونات الشخــصية وبالثقافة والتعلم والمواقف الاجتماعية، كما تختلف القيمة الانفعالية للمواقف الاجتماعية باختلاف الثقافات (الحفني(ج)، ١٩٩٥، ص٣١٢، ٣١٣).

لكننا اذا قابلنا شخصاً يخفق قلبه بشدة ويداه ترتجفان، لا نستطيع أن نقــرر فوراً أيّ نوعٍ من الأنفعالات يعيش هــذا الــشخص: القلــق أم الغــضب أم الأبتهاج؛ ذلك إن أعراض كل انفعال يشبه الانفعال الآخــر مــن الناحيــة الفزيولوجية، ولهذا يعتقد الكثير من علماء النفس ((أن تفسير الأفراد للموقف المباشر الذي يتعرضون له هو المحدد لإسم الانفعال الذي يطلقونه على ما يشعرون به)). ولأن هذا التفسير لنوع الانفعال يؤكد علــى معرفــة وفهــم وتصوّر الفرد للموقف، و لا يعتمد فقط على نوع المثيرات المقدمــة، فقــد أصبح يعرف بــ ((النظرية المعرفيــة للانفعــال Cognitive Theory of Emotion)) (دافيدوف ،١٩٨٣،ص٤٨٧).

تنسب هذه النظرية إلى عـالمي الـنفس "سـتانلي شـاختر" S.Schachter و"جيروم سنجر" J.Singer. ويعرّفها "كاجـان" Kagan ١٩٧٢: ((تلـك النظرية التي تعدّ الانفعال تفسيراً معرفياً للتغير الحاصل في مستوى ونـوع الاحساسات الداخلية في سياق محدد)). وتنتج الاحـساسات الداخليـة مـن التغيرات الفزيولوجيـة الناشـئة عـن أنمـاط فعاليـة الـدفاع، لاسـيما "الهايبوثالاموس" (تحـت المهـاد) Hypothalamus و "الجهـاز اللمبـي" Limbic System اللذين يؤديان وظيفتها بصورة رئيسية من خلال تأثيرهـا فـي "الجهـاز العـصبي المـستقل"[٢] Autonomic Nervous System. والتفسير المعرفي هنا هو عملية نفسية تحاول إيجاد علاقة بين الاحـساسات الداخلية والسياق البيئي المحيط بنا لتعليل مشاعرنا الذاتية. وهذه المـشاعر الانفعالية هي نموذج المعاني التي نجدها في المثيـرات الداخليـة المتـأثرة بإدراكنا بالسياق البيئي في لحظة معينة **(Kagan,1972, p.313)**.

عندما يصبح الشخص واعياً باحساساته الداخلية المتغيرة، يحاول أن يفسرها ويفهمها. إنه يتفحص البيئة المحيطة به بدقة ويصل إلى قرار. ويكون قراره فورياً احياناً، وغالباً ما يتوصل إليه لاشعورياً. وقد ينتقي فرضية معينة عن الموقف ويختبرها، ثم ينبذها ويستبدلها بأخرى. وفي نهاية بحثه هذا، يعطينا تصنيفاً ذا درجة انفعالية معينة لمشاعره، فيقرر بأنـه سـعيد أو حـزين أو غاضب. فالطالب الذي يعاني من نمط متغير في احساساته الحشوية أثنـاء جلوسه وحيداً في غرفته ليلاً، قد يقرر بأنه يشعر بالوحدة. وطالب آخر فقـدَ أعز أصدقائه مؤخراً قد يفسر نفس ذلك النمط من الاحـساسات علـى أنـه أسى. أما الطالب الذي يواجه امتحاناً صعباً، فقد يفسر هذه الاحساسات على أنها خوف أو قلق **(Kagan,1972, p.314)**.

ويمكن شرح هذه الآلية الفزيولوجية لشعورنا بالانفعالات كما يأتي: تعمل المثيرات المسببة للاستثارة الفزيولوجية – سواء كانت مثيرات بيئية أو زيادات داخلية المنشأ في نسبة هورمون "الادرينالين" الذي تفرزه الغدة الكظرية في الدم – على تحفيز أنماط من فعالية الدماغ، خصوصاً منطقة "الهايبوثالاموس" (تحت المهاد) والتي تنشط بدورها "الجهاز العصبي المستقل" و "الغدد الصم"[٣] Endocrine Glands مسببة حالة عامة من الاستثارة الفزيولوجية. ثم تقوم المستلمات الحسية في الجسم بإرسال تقارير عن هذه التغيرات الفزيولوجية إلى الدماغ. لكن هذه الاحساسات تظل غامضة، فنقوم عندئذ بتصنيفها على أساس السياق البيئي وعلى أساس ما نفكر فيه في تلك اللحظة. فإذا كان سبب هذه الاحساسات هو مشهد أفعى، نشعر بالخوف. وإذا كان سببها صفعة على الوجه، نشعر بالغضب **(Kagan,1972, p.313)**.

والآن، لابد أن نتساءل: أيهما يسبق الآخر في هذا التفسير المعرفي: التغير الفزيولوجي أم المعرفة ؟

ليس من الواضح كيف ترتبط المكونات الفزيولوجية والمشاعر والمعرفة والمكونات السلوكية بالانفعالات فيما بينها، وما إذا كانت تنشأ في ترتيب واحد ثابت. وقد أكد بعض علماء النفس على الدور المهم لأحد هذه العناصر أو غيره. فقد أشارت دراسة "شاختر" و "سنجر" Schachter & Singer ودراسات أخرى إلى أن الحالة الفزيولوجية تسبق المعرفة. وإن المعرفة بدورها تسبق المشاعر والسلوك على الأقل لبعض الوقت. بينما افترض آخرون أن " تقدير الموقف" Appraisal – وهي عملية معرفية – غالباً ما يأتي أولاً (دافيدوف، ١٩٨٣، ص٤٩١).

إن "النظرية المعرفية للانفعال" ببحوثها التجريبية الكثيرة والمتنوعة على الأفراد، قد ناقشت واستوعبت الاحتمالين أعلاه حول أسبقية التغير الفزيولوجي أم المعرفة. فإذا كان سبب الاستثارة الفزيولوجية هو إفراز ادرينالييني ذاتي المصدر ناشيء عن دوافع لاشعورية أو عن اضطراب عابر في نظام عمل الغدد (لأن الاضطراب الدائم يدخل في حقل الحالات المرضية الطبية النفسية، وهذا ليس موضع بحثنا)، ولا يتصل بأي مثير خارجي، عند ذاك يأتي التغير الفزيولوجي أولاً ثم تأتي المعرفة لاحقاً لتفسير هذه الاستثارة وفق سياق الموقف البيئي الذي يحيط بالفرد ووفق دوافعه ومخزونه المعرفي من أفكار وإدراكات وقيم وخبرات، فيحدث الشعور بالانفعال حسب تصنيف ذلك الموقف: قلق، أو بهجة، أو حب، أو غضب. وهذه المشاعر الناتجة، تعود بدورها (كمثيرات) لتتفاعل مع الموقف البيئي مولدة معارف وانفعالات جديدة لدى الفرد نفسه ولدى الآخرين في دائرة تضم الذات والمحيط في صيرورة دينامية جدلية لا تتوقف. أما إذا كان سبب الاستثارة الفزيولوجية هو تأثر منطقة "الهايبوثالاموس" (تحت المهاد) في الدماغ أولاً بمثير خارجي معين نتيجة ارتباطات عصبية سابقة به (مثل رؤية حيوان أو حشرة مخيفة، أو سماع نبأ مفرح غير متوقع)، فأن المعرفة (بمضمونها البسيط) تسبق هنا الاستثارة الفزيولوجية، لكن هذه الاستثارة تظل غامضة المعنى ، فتتدخل المناطق العليا من الدماغ (معرفة اعمق) لتفسيرها وإعطائها معنى واضحاً على شكل شعور انفعالي محدد وفق سياق الموقف البيئي ودوافع الفرد ومخزونه المعرفي. وهذا الانفعال يؤثر بدوره في إحداثيات الموقف البيئي مولداً معارف وانفعالات جديدة لدى الفرد والآخرين كما أسلفنا قبل قليل. ومما يسند هذا التفسير هو إن درجة انفعال المرء لا تكون نفسها في كل مرة أمام نفس المثير. فالشعور بالخوف

من الظلام مثلاً لا يكون بنفس الدرجة في كل مرة يجد فيها الفرد نفسه في مكان مظلم، لأن الأمر لابد أن يرتبط بسياق الموقف المحيط به (هل هناك آخرون موجودون معه أم انه وحيد في المكان ؟) أو بدوافع الفرد (قد يكون مشغولاً بالتفكير بمسألة أهم فلا ينتبه كثيراً إلى الظلام) أو بمخزونه المعرفي (تراكم خبراته عن الظلام قد يجعله اقل أو اكثر انفعالاً بمرور الوقت). وهذا كله يعني أن المعرفة هي التي تحدد أولاً نوع الانفعال وبالتالي درجته في كل مرة أمام نفس المثير.

◈ ◈ ◈

نظرية الحب الشهواني A Theory of Passionate Love

انطلاقاً من المنظور المعرفي للانفعال، ترى "هاتفيلد" Hatfield ١٩٨٨ أن هناك عاملين يحددان نوع الأنفعال، هما: نوع الاستثارة المقدمة من الخارج، والطريقة التي يصنّف بها الشخص هذه الأستثارة. ويعرف هذا التفسير بـ " نظرية عاملا الانفعال" Two Factor Theory of Emotion. والتي يمكن ترميزها كما يأتي:

((الأنفعال Emotion = الاستثارة Arousal × التصنيف Label))

.(Myers,1996, p.502)

وقد حاولت "هاتفيلد" استناداً لهذه النظرية أن تفسّر الحب الشهواني، فلاحظتْ ((إن اعطاء حالةٍ من الاستثارة State of Arousal يمكن أن يقود الى عدة انفعالات بالاعتماد على الكيفية التي نعزو بها تلك الاستثارة. فالانفعال يتطلب استثارة الجسد والعقل كليهما، كما يتطلب الكيفية التي نفسر ونصنف بها الاستثارة)). وطبقاً لهذه الرؤية، فإن "الحب الشهواني" Passionate Love ((هو الخبرة النفسية لحالة الاستثارة البيولوجية من قبل شخص تراه جذاباً)) **(Myers,1996, p.501)**.

وللحب الشهواني ثلاث خصائص أساسية حسب "هاتفيلد"؛ إنـــه ((انفعـــالي Emotional، ومثير Exciting ، ومكثف Intense)). وهو بإيجاز ((حالة من التوق الشديد للاتحاد بالآخر)؛ ((فإذا ما تم التبادل يشعر الفرد بالتلبيـــة والبهجة، واذا لم يتم التبادل يشعر بالخواء واليأس)) ؛ وهـــو فـــي النهايـــة ((خلـــيط مـــن الـــسعادة والغـــم، ومـــن إحـــداث البهجـــة والتعاســـة)) .(Myers,1996, p.502)

والحب الرومانسي يستثير رفض الناس العقلانيين. إنـــه انـــدفاعي، وغيـــر عقلاني، وكثيراً ما يكون غير حكيم، وهو يزدري الواقـــع ويتغـــذى علـــى الوهم. ويكون عادة قصير العمر، ونهايته هي تحطيم القلب. إنه نـــوع مـــن الجنون المؤقت تقريباً. ومع ذلك فإن له جاذبية خاصة بيننا. فاذا لم نكن قـــد مررنا به، فإننا نرغب بذلك. واذا كنا قد فعلنا ذلك فاننـــا نتـــذكره بحنـــين وشغف (Fromme, 1960, p.228).

والحب الرومانسي حالة غير مستقرة بشكل خاص، لأنه يبنى على شـــعور بالقيمة، بالاضافة الى شعور بالحميمية. ولذلك، يشعر الشخص بقيمة عاليـــة لذاته من خلال نظرة حبيبه اليه. وقد سمى "فرويد" ذلك بـــ ((المغالاة فـــي اعطاء قيمة لموضوع الحب)). ويسعى العشاق لزيادة نظرة التقييم العاليـــة هذه في عيون بعض، من خلال افصاحهم عن كل الامور الباعثة على الفخر في شخصياتهم. لكن مثل عمليات الافصاح هذه تعد مخاطرة عندما تكـــون هذه المفاخر غير متوازنة جيداً. فالمعلومات التي يتلقاها الرجل عـــن فتاتـــه بخصوص ثراء عائلتها مثلا، تعد مقبولة اذا لم تكن حالته المعاشية ســـيئة. وحتى لو كان هناك عدم تساوي ملفت للنظر، فقد يمكن تحمله، وحتى التمتع به، مادام الطرفان مستغرقين تماماً في الحب. فالجذب الشديد يجعـــل كـــل

واحد يشترك في قيمة الآخر. أما إذا ضعف الجذب، فإن الاختلافات تـصبح مثيرة للشقاق **(Brown, 1965, p.85)** .

إن حالة الحب هي أمر يبعث على النشوة، ولكنها تركيب غير ثابت من العواطف. والحب تتقدح شراراته أحياناً من خلال المظهر، أو عبر كلمات في محادثة. وعندما يكون إثنان من الناس في هذه الحالة، يصبحان حذرين من اظهار أذواقهما وميولهما واتجاهاتهما وتاريخهما الماضي، لأنهما يدركان أن حفاظهما على حالتهما السعيدة يعتمد على حفاظهما على تكافؤ حميم مُدرَك بينهما. وهما يراقبان ما يكشفان عن نفسيهما، ويحاولان تعقب أثر بعضهما. ولاحقاً، عندما يتم تأسيس التكافؤ على الميول والقيم، فإنهما سيخاطران بإظهار بعضٍ من نقاط عدم التشابه **(Brown,1965, p.84)**.

وهذا ما كتبته الاديبة الفرنسية "جورج صاند" في رسالة الى احدى صديقاتها عن مخاوفها من علاقتها الغرامية بـ "شوبان" الموسيقار البولندي: **((**إن ما يقلقني إنه يخشى أن يخطو في حبنا خطوة اكثر التصاقاً ... وقد قال لي .. إن هناك بعض الخطوات في الحب تفسد الذكريات الجميلة ... أليست حماقة منه هذه الكلمات؟ ولا أعتقد أنه يعنيها حقاً او يفكر في دلالتها**!))** (فرنسيس،ص ٢٦).

وتتفق الكثير من المواقف التجريبية لدراسة الانفعالات مع تفسير "نظرية عاملا الأنفعال". فقد تبين أن الاستثارة الانفعالية التي يتعرض لها الانسان في موقفٍ ما، يمكن أن ترفع من شدة مشاعره العاطفية نحو الجنس الآخر؛ أي كلما إزداد توتر الموقف الذي يجد الانسان نفسه فيه كلما وجدفي نفسه قدرةً أكبر على الحب. ففي تجارب لـ"كاردوسي" Cardaucci وآخرون١٩٧٨، و"سايزنسكي" و"ديرمر" Psyzcynski & Dermer ١٩٧٨

، و"ستيفان" Stephan وآخرون ١٩٧١، وجد أن طلبــة الكليــة المــستثارين جنسياً بواسطة قراءة أو مشاهدة مواد مثيرة للشبق، أظهروا استجابة عاليــة نحو صديقاتهم من خلال حصولهم على تقدير عالي على مقيــاس "روبــن" للحب Rubin's Love Scale (الذي مرّ ذكره)، وكــأن حالــة الاســتثارة البيولوجية التي مرّوا بها جعلتهم أكثر عاطفيةً نحــو صــديقاتهم. ويــدافع مناصرو "نظرية عاملا الأنفعال" عن هذه النتيجة بقولهم: ((حــين يُــستثار الانسان بأي مصدر، فأن ذلك يجب أن يكثف من مشاعره العاطفية العميقة، بشرط أن يكون حراً في أن يعزو بعــضاً مــن الاســتثارة الــى مثيــرات رومانسية)) **(Myers,1996, p.502)**.

وفي تجربة أخرى، قــام "ديوتــون" و"آرون" Dutton & Aron ١٩٧٤ ، ١٩٨٩ بدعوة رجال من جامعة "كولومبيا البريطانية" British Columbia للمشاركة كمتطوعين في تجربة تعلّمية مزعومة. وقد صُممت التجربة بحيث يتسنى لهؤلاء الرجال أن يلتقوا بنساءٍ جذابات قيل لهم انهن شريكات لهم في التجربة. وبعد أن تم اللقاء، أُخبِرَ الرجال بأنهم سيتعرضون الــى صــدمات كهربائية مؤلمة جداً كشرط من شروط التجربة لقياس التعلّم. ثم قام الباحــث قبل التجربة باعطائهم استبياناً يستفسر عن مشاعرهم وردود أفعالهم الحالية باعتبار إن ذلك غالباً ما يؤثر في اداء تلك التجربة التعلمية. وحــين سُــئلوا عن مقدار رغبتهم في ترتيب موعد لاحق لتقبيل شريكاتهم في التجربة، تبين أن الرجال الخائفين من التجربة (أي المستثارين) قد عبرّوا عن انجذاب اكبر نحو المرأة **(Myers,1996, p.502)**.

والسؤال المهم الآن: هل تحدث هذه الظاهرة خارج المختبر؟!

قام الباحثان "ديوتون" و"آرون" Dutton & Aron ١٩٧٤ بتصميم موقف اختباري واقعي، إذ طلبا من فتاة جذابة أن تقترب من بعض الشباب العابرين بشكل منفرد فوق ممر ضيق على ارتفاع (٢٣٠) قدم فوق أحد الانهار، وأن تطلب من كل واحد منهم أن يساعدها في ملء استمارة لاستبيان مزعوم. وعندما كان ينتهي من الكتابة، كانت تكتب له على عجل اسمها ورقم هاتفها وتدعوه أن يتصل بها إذا أراد أن يعرف المزيد عن البحث. وقد قبل معظمهم رقم الهاتف، لكن نصفهم فقط اتصل فعلاً فيما بعد. وبالمقابل، فإن الشبان الذين اقتربت منهم هذه الفتاة على جسر آخر منخفض، أي لا يدعو الى الاستثارة البدنية، وكذلك الشبان الذين قابلهم رجلٌ وليس امرأة على الجسر العالي، نادراً ما اتصلوا هاتفياً فيما بعد. وقد كان استنتاج الباحثين واضحاً: إن الاستثارة البدنية هي التي شكلت الاستجابات الرومانسية **(Myers,1996, p.503)**.

وفي تجارب أخرى لـ"كوهين" Cohen وآخرون١٩٨٩ ، و "وايت" و"نايت" White & Knight ١٩٨٤ ، وجد أن الاستثارة الناتجة عن أفلام الرعب وركوب العربات على سكك الحديدية في مدينة الالعاب والتمارين البدنية، لها الأثر الرومانسي ذاته **(Myers,1996, p.503)**.

وبذلك يمكن تحديد الاستنتاج المشترك الذي توصلت اليه كل هذه التجارب:

إن "الأدرينالين" Adrenaline على ما يبدو، وهو الهرمون الذي تفرزه الغدة الكظرية في حالات الانفعال نتيجة تأثر منطقة الهايبوثالاموس (تحت المهاد) في الدماغ البشري بالاستثارات الخارجية، يحفز النزوع الرومانسي لدى الكائن البشري للاندماج بكائن آخر من نفس نوعه!

◈ ◈ ◈

لقد ناقشنا من خلال مــا تقــدم الأســاس الانفعــالي الفزيولــوجي للحــب الرومانسي. وذلك لا يعني بالضرورة أن الحب ما هو إلا إنفعال Emotion فحسب ناتج عن استثارات معينة في لحظة معينة. فلحظة الانفعال الأولــى هذه اذا ما تكررت حول الموضوع نفسه (أي الشريك) وارتبطت به ايجابيــاً بالتدرج أصبحتْ عاطفةً Sentiment .

فالعاطفة Sentiment تمييزاً لها عن الانفعــال Emotion هــي ((صــفة مزاجية مكتسبة تتكون باجتماع عدد من الانفعالات المتشابهة حول موقف أو موضوع معين، وتُستثار مرتبطةً بهذا الموقف أو الموضوع دون غيرهــا. ومن شأن العواطف إنها تنظم الانفعالات بربطها بالموضــوعات ... تبعــاً لمؤثرات البيئة وعوامــل الــتعلّم (الحفنــي (ج) ،١٩٩٥، ص٣٧)؛ أي إن العاطفة ليست وليدة اللحظة، بل هي نتاج نوعي لتكرار ارتباطات الانفعــال الفزيولوجي بالموضوع المُدْرَك.

وبتــــــصور أدق: ((العاطفــــــة = الفكــــــرة + الانفعــــــال)) (الحفني(أ)،١٩٧٨،ص٢٧٨).

فالحبُ إذن ليس معرفةً بحتةً كما هو المنطق العلمي مثلاً، بل هو انفعال في لحظته الأولى. فاذا ما ارتبط ذلك الانفعال ايجابياً بالــشريك فــي لحظــات ومواقف لاحقة، صار عاطفةً يحرّكها الانفعال الفزيولوجي والمعرفة العقلية معاً ضمن وحدةٍ جدليةٍ تحدد مساره اللاحق صعوداً أو انحــداراً، وحــسب خصائص المجال النفسي والأجتماعي والحــضاري الــذي يتحــرك فيــه الشريكان.

لقد صار بمقدورنا الآن أن نقول بثقة أنّ لا وجــود لحــبّ رومانــسي دون انفعال فزيولوجي هورموني مرتكزٍ بدوره على معرفةٍ سابقةٍ (فما يستثيرني

قد لا يستثير غيري)؛ وإن الانفعال ليس المكوّن الوحيد لهذا الحب، فلا بدّ له أن يتحد بمعرفة واقتناع الفرد بالشريك المحبوب. وإذا تلاشى الانفعال، فلن يعود الحبُ رومانسياً قطعاً، بل يتحول الى نمطٍ آخر من الحب في أحسن الأحوال، إنْ لم يتحول الى جفاء أو كراهية. وهذا ما سنتعرف عليه لاحقاً.

◈ ◈ ◈

الحب الرومانسي ذو الطريق الوعر The Rocky Course of Romantic Love

يقول " وليم شكسبير": ((طريق الحب الحقيقي لا يجري بسلاسةٍ أبداً !)). وقد أوضح فرضيته هذه في مسرحيته الشهيرة "روميو وجوليت" ، والتي أنتجتْ بدورها فيما بعد ما صار يُعرف بـ ((مغزى روميو وجوليت Romeo – and – Guliet Effect)). والذي يعني بإيجاز: إن معارضة الوالدين تميلُ الى تكثيف العاطفة الرومانسية للعاشقين أكثر مما تعمل على إضعافها)) (Gleitman,1995,p.466).

ففي دراسة "درسكول" و"ديفز" و"ليبيتز" Driscoll & Davis & Lipitz ١٩٧٢،سُئلَ مجموعة من المرتبطين ببعضهم بعلاقات حب فيما اذا كان الوالدان قد تدخلا في علاقاتهم. وقد وجد أنه كلما ازداد تدخل الوالدين، كلما زاد الحبُ عمقاً. فالمغزى أن الوالدين اذا ما أرادا تقويض ذلك الوضع الرومانسي، فإن أفضل ما يراهنان عليه هو اهمالهما له (Gleitman,1995, p.466).

ولو عدنا الى "نظرية عاملا الانفعال" التي مر ذكرها قبل قليل، لوجدنا أن الحب الرومانسي ذا الطريق الوعر يعدّ تجسيداً واقعياً لها، بما يتضمنه من استثارة انفعالية متزايدة – سواء كانت خلال الخوف أو الأحباط أو القلق أو

المغامرة أو الترقب أو الغضب أو فقدان الأمان أو توقع المـوت – يجـري تفسيرها معرفياً من طرفي العلاقة بأنها عشقٌ خالص. فالـشعور بـالخطر يستثير انفعالات المرء، والانفعالات المتزايدة تجعله متوتراً باحثاً عن تفسير لحالته فيعزوها الى تأجج الحب لديه، خصوصاً اذا كان يمتلك استعداداً نفسياً رومانسياً مسبقاً واذا ما عايش في ذات الوقت مع شريكه موقفـاً رومانـسياً عميقاً بتفاصيله الجمالية. فالانفعال إذن في هذه الحالة يؤجج الحب، والحـب ذو الطريق الوعر أو المستحيل يؤجج بدوره الانفعال في دورةٍ لا تنتهي من الدراما الرومانسية المتنامية؟

هل نكون بذلك قد توصلنا باستخدام مفردات العلم وأدواته ومنطقه الى تفسير واحدٍ من أهم ميكانزمات السلوك البشري الأجتماعي المحيّرة، والتي سبق وأن توصل الى رصدها ووصفها في السابق أدباء كثيرون بوعيهم العميق للنفس البشرية، ومنهم الروائي الكولومبي "غابريل غارسيا ماركيز" الحائز على جائزة نوبل ١٩٨٢ ، في نهاية روايته "الحب في زمن الكوليرا" ١٩٨٥: ((لقد عاشا معاً ما يكفي ليعرفا أن الحب هو أن نحب في أي وقت وفي أي مكان، وأن الحب يكون أكثر زخماً كلما كان أقرب الى الموت)) (ماركيز(أ) ،١٩٨٦،ص٣٠٤).

هوامش

(١) يجدر التمييز بين مصطلح " **المعرفة**" Cognition (موضوع بحثنا) والتـي تعنـي العمليات العقلية العليا المولدة للأفكار والمعارف، وبين مصطلح "المعرفة" Knowledge الذي يعني: ((نتاج للعمل الاجتماعي والتفكير الذين يمارسهما الناس، وتكرار مثالي فـي شكل لغة للعلاقات الموضوعية المحكومة بالقانون في العالم الموضوعي الـذي تعتريـه التغيرات. ولا يمكن فهم ما هي المعرفة دون كشف الطبيعة الاجتماعية لنـشاط الإنـسان العملي)) (روزنتال، ١٩٨٥، ص ٤٨٣).

وسيكون المقصود من استخدامنا لمصطلح "المعرفة" أو "المعرفي" في الصفحات القادمة هو عمليات توليد المعرفة Cognition (أي الآليات العقلية التي يستخدمها الناس لتفسير معطيات بيئتهم الداخلية والخارجية وتمثيلها برموز معرفية داخل عقولهم) وليس "المعرفة" Knowledge بحد ذاتها كنتاج للفكر.

(٢)

- **الجهاز اللمبي** Limbic System : عبارة عن تجمع لنيورونات (خلايا عصبية) متصلة بعضها اتصالاً كبيراً داخل الدماغ الأمامي. ويتضمن مجموعة من المكونات أهمها "الهايبوثالاموس" (تحت المهاد) Hypothalamus و "الثالاموس" (المهاد) Thalamus ويشترك الجهاز اللمبي مع قشرة المخ Cortex بوضوح في عملية التعبير عن الدوافع والانفعالات، كما أنه يلعب دوراً أساساً في الجوع والعطش والنوم والسهر ودرجة حرارة الجسم والجنس والعدوان والخوف وسهولة الانقياد (دافيدوف، ١٩٨٣، ص ١٧٣-١٧٤).
- **الهايبوثالاموس (تحت المهاد)** Hypothalamus : لا يتعدى حجمه حجم الجوزة في الإنسان، ويبدو أنه أكثر الأجزاء مركزية في الجهاز اللمبي. وبالرغم من صغر حجمه فإنه يتحكم في العديد من الوظائف الحيوية التي تسمى أحياناً "حارس الجسم". فلو فرضنا أن الغذاء أو السوائل أو درجة الحرارة قلت اكثر من اللازم، فان علماء الأعصاب يعتقدون أن "تحت المهاد" يشعر بهذه التغيرات ويعمل على مستويين. على المستوى السلوكي يتسبب في شعورنا بالجوع والعطش والبرد ويحثنا أن نعمل لسد احتياجات الجسم. وعلى المستوى الفسيولوجي ينشط كلاً من "الجهاز العصبي المستقل"، و "جهاز الغدد الصماء" (دافيدوف، ١٩٨٣، ص١٧٤). ويقوم "تحت المهاد" والذي هو جزء من الدماغ الأمامي Fore brain بوظيفة الوسيط بين الدماغ والجسم، إذ يساعد في التحكم بعملية التمثيل الغذائي (الأيض) Metabolism وفي السلوك الجنسي والنوم والانفعالات (Kagan,1972,p.590) .
- "**الجهاز العصبي المستقل**" Autonomic Nervous System يحتوي الأعصاب التي تنقل الرسائل بين الجهاز العصبي المركزي (الدماغ و النخاع

الشوكي) وما يسمى بالعضلات اللاإرادية بما فيها تلك التي تنظم القلب والكبد والكلية والغدد والأعضاء الداخلية الأخرى. ويعمل هذا الجهاز تلقائياً (ذاتيـاً) بحيث تبقى أجسامنا في نظام عمل دقيق، وتضمن سد حاجاتها من الوقود طبقاً لتغير متطلبات البيئة. ويقسم الجهاز العصبي المستقل بدوره إلـى فـرعين : "القسم الـسمبثاوي" Sympathetic N.S. و "القـسم الباراسـمبثاوي" N.S. Parasympathetic. وبالرغم من أن كليهما له نشاطه إلا أن أحـدهما فـي العادة يسود. ويعمل أحدهما عمل دواسة البنزين والآخر عمل الفرامـل فـي السيارة. ويقوم القسم السمبثاوي (دواسة البنزين) بتكييف المـوارد الداخليـة للنشاط الشديد في الظروف الخاصة. أما القسم الباراسمبثاوي (الفرامل) فيتولى بصفة عامة القيادة حين يسترخي الشخص حتى يحافظ على موارده الداخليـة ويبقى عليها أو يعوضها (دافيدوف، ١٩٨٣، ص:١٤٥، ١٤٦).

(٣) **الغدد الصم** Endocrine Glands : غدد لا قنوات لها تفرز مواداً كيمائيـة تـسمى "هورمونات" Hormones مباشرة في مجرى الدم. وعند وصولها إلى الـدم فـإن هـذه الرسل الكيميائية تحمل إلى أجزاء بعيدة في الجسم، حيث تلعب دوراً مهمـاً فـي تنظـيم الأيض، والنمو والنشاط الجنسي، والانفعالات، والحيوية والدوافع (دافيدوف، ١٩٨٣، ص ١٧٤). والغدد الصم في الإنسان هي: "الغدة النخامية" (القائـدة) PiPituitary و "الغـدد الدرقية" Thyroid، و "الغدد الجاردرقية" Parathyroid و"البنكريـاس" Pancreas، و "الغدتان الكظريتان" (الادريناليتان) Adrenals، و "المبيضان" Ovaries لدى الأنثـى، و "الخصيتان" Tests لدى الرجل (Kagan,1972, p.272) .

الحـــب الرفقـــوي

حين يكون اثنـــــان من الناس تحت تـــأثير أكثر العواطف عنفاً وجنوناً ووهماً وزوالاً، فيتطلب منهمـــــا أن يقسما بأن يظلا علـــى الدوام في تلك الحالـــة المهتاجة والـــشاذة والمستنزفة حتى يفرّق الموتُ بينهما !
برناردشو

قد يكون الحب الرومانسي الخطوة الاولى نحو الحب الناضـــج. إنـــه يـــشيد جسراً فوق الفجوة القائمة بين حب الذات وحب الآخر. وإن التوكيد على أن الحب الرومانسي يقوم على قوة مشاعر الشخص هو أمر بالغ الجاذبية. إنـــه يقترح أن هناك ضماناً في الحب، فهو يتغلب على الخوف بالوعود، ويقـــوم على الوهم. فالإنسان يرغب في أن يُحَبّ مهما كان ومهما فعـــل. والحـــب الرومانسي يوفر هذا الضمان. إنه ضمان الى الأبد. فهو يُحَبّ كلياً، ويُقبـَــلُ كلياً. ومهما فعل من مساويء، فسيُسامَح ويُحَبّ. ويـــصعب أن نجـــد فـــي الادبيات الرومانسية قصة عن الحب الرومانسي في الـــزواج. إنـــه يحـــدث عرضاً في الحياة الواقعية. والحب الرومانسي بصورته النقية لا يتسق مـــع الزواج، فهو يبدأ باختيار موضوع للحب، لا لأسباب واقعية، ولكن رغـــم انف الواقع. وهو يُبنى على الاحلام والخيالات، ويكون كثيفاً، بالرغم من أن ذلك ليس دليلاً على دوامه. وفي النهاية، يعترف أغلب الدؤوبين على الحب برغبتهم في الهروب من أوهامه الى مرحلة أكثر واقعية من ثبات العلاقـــة **(Fromme, 1960,pp. 250-252)**.

فلو استثنينا حالاتٍ نادرة من الحب الرومانسي الوعر الذي يزداد حرارةً وعمقاً كلما تزايدت الأخطار والعوائق، والذي قد يستمر متأججاً لسنواتٍ طويلةٍ، بل قد ينتهي بموت العاشقينِ أو أحدهما دون أن يتحقق اللقاء والأستقرار والأمان، لو استثنينا هذه الحالات فأن هناك اتفاقاً واسعاً بين الناس أن الحب الرومانسي يميل الى أن يظلّ مزهراً لفترةٍ قصيرة فقط، خصوصاً إذا ما تحققت شروط اللقاء الاجتماعي بين العاشقين (أي الزواج) أو اذا ما استقرا في وضعٍ هاديءٍ يفتقر الى انفعالات وتوترات المرحلة العاصفة الأولى.

ففي آخر الأمر، ليس هناك مفاجآت اضافية، وليس هناك عقبات جديدة باستثناء تلك التي تنشأ عن المشكلات المحتدمة للحياة الاعتيادية. فالمغامرة تنتهي والحب الرومانسي ينحسر. وقد يتحول أحياناً الى لامبالاة، إنْ لم يتحول الى كراهية (Gleitman,1995, p.467). ونقتبس هنا اعترافاً صريحاً للشاعرة الرومانسية الروسية "آنا اخماتوفا" (١٨٨٩ – ١٩٦١)م بأن الحب يمكنْ أن ينقلب الى ضده (اخماتوفا ،١٩٩٢،ص١٣٧):

((فلأجلِ ماذا قبّلتكَ ،
لأجل ماذا عذبتُ نفسي بحبك ؛
ألأجل أن أتذكركَ اليومَ ، هادئةً مرهقةً
بهذا التقزز كلّه ؟)) .

ويصف الشاعر الانجليزي "اللورد بايرون" (١٧٨٨– ١٨٢٤)م ذبول الحب بقوله (فرنسيس، ص ٩٨):

((أيامي مثل اوراق الخريف
زهور وثمار الحب ستذهب..

ولن يتبقى لي سوى الألم والاسى!)).

وعلى صعيد التقصي العلمي الميداني، تشير دراسة "جوروست" و"هيوستن" Huston & Chorost ١٩٩٤ الى ((أن الرومانسية الشديدة يمكن أن تستمر لبضعة شهور، وحتى لمدة سنتين. لكن هذه الشدة لا يمكن أن تدوم الى الأبد. فبعد عامين من الزواج، يعبّر الزوجان عن عاطفةٍ تعادل في الغالب حوالي نصف ما كانت عليه أيام الزواج الأولى)). وفي دراسة أخرى لـ"فيشر" Fisher ١٩٩٤ وجد أن معدلات الطلاق تصلُ ذروتها بعد أربع سنوات من الزواج في الثقافات الواسعة الانتشار عالمياً (Myers,1996, p.505).

وإذا كان للحب الرومانسي أن يظلّ راسخاً ويستقر في علاقة دافئةٍ أكثر هدوءاً وعمقاً، فلا بدّ أن يكف عن كونه انفعالاً Emotion فحسب، ويصير عاطفةً Sentiment لها ارتباطاتها الواقعية بموضوع الحب. وهذا ما يسمى بـ " الحب الرفقوي" Companionate Love ، والذي هو مزيج من الألفة والعهد (راجع الشكل (١) في فقرة "قياس الحب الرومانسي" من هذا الفصل).

ويعرّف "بيرشد" و "هاتفيلد" Berscheid & Hatfield ١٩٧٨ "الحب الرفقوي" بأنه ((تلك العاطفة الوجدانية Affection التي نشعر بها نحو أولئك الذين ارتبطت حياتنا بهم بعمق)). ويرى "نيماير"" Neimeye ١٩٨٤، و"هاتفيلد" Hatfield ١٩٨٨، و"كاسبي" و"هيربنر" Caspi & Herbener ١٩٩٠ ، أن من بين خصائص الحب الرفقوى ((أن يصبح التشابه في وجهات النظر والرعاية المتبادلة والثقة المتنامية يوماً بعد يوم، أكثر اهميةً من خيالات ومثاليات الحب الرومانسي. كما إن الشريكين يحاولان أن يعيشا قدر المستطاع بسعادة دائمة في العالم الواقعي)) (Gleitman,1995, p.467) .

وفي دراسة أخرى عن فتور الحب الرومانسي خلال الزمن وتنامي أهمية العوامل الأخرى مثل القيم المشتركة، طلب "جوبتا" و"سنج" Gupta & Singh ١٩٨٢ من (٥٠) زوجاً من الأشخاص في "جايبور" Jaipur في الهند أن يجيبوا على مقياس "روبن" للحب Rubin's Love Scale . وقد وجدا أن أولئك الذين تزوجوا عن حب قد سجلوا تناقصاً في مشاعر الحب لديهم اذا كان قد مرّ على زواجهم أكثر من (٥) سنوات . وبالمقابل فأن أولئك المنتمين الى زيجات مُرتّبة Arranged Marriages، أظهروا حباً أكبر اذا لم يكونوا قد تزوجوا حديثاً **(Myers,1996, p.507).**

وفي دراسات لـ "دايون" و"دايون" Dion & Dion ١٩٨٨ ، و"سبريجر" وآخرون Sprecher ١٩٩٤ ، وجد أن الآسيويين مقارنة بالأمريكيين الشماليين يركزون بدرجة أقل على المشاعر الشخصية، وبدرجة أكبر على المظاهر العملية للروابط الأجتماعية. وتوصلت دراسة أخرى للباحثين نفسهما في العام ١٩٩١ ، ودراسة "تراياندس" Triands وآخرون١٩٨٨ الى أن الآسيويين أكثر حصانةً ضد خيبة الأمل، كما إنهم أقل ميلاً الى الفردانية المركزة على الذات Self-Focused Individualism والتي بمقدورها أن تقوض العلاقة وتؤدي الى الطلاق في المدى البعيد **(Myers,1996,p.507).**

ويرى "كينرك" و"تروست" ١٩٨٧ ((إن ذبول الفتنة المتبادلة الشديدة أمر طبيعي وتكيفي Adaptive لبقاء النوع. فالاطفال هم النتيجة المتكررة للحب العنيف، والذين يعتمد بقاؤهم على قيد الحياة على تناقص الاستحواذ بين الوالدين)). وبالرغم من هذا الذبول، تؤكد "هاتفيلد" و"سبريجر" Hatfield & Sprecher ١٩٨٦ ((إن بعضاً من الحب الرومانسي المفقود،

غالباً ما يجدد لدى المتزوجين منذ ما يزيد على (٢٠) عاماً عندما يخلو بيت العائلة ويصبح الوالدان حرّينٍ ثانيةً في تركيز انتباههما علـــى بعــضهما)) (Myers,1996,p.507).

وبعد كل هذا نتساءلُ: متى تتحققُ ذروة الحب، أي ذروةُ اكتمــالٍ العاطفــة فيه؟

يرى الكثيرون أن ذلك يتحقق خلال رومانسية أوقاته المبكرة الدافئة فحسب، والتي سرعان ما تتحول الى جفاءٍ وفراقٍ غربةٍ ونسيانٍ يصعبُ تــصديقها . ويصوّر الشاعر الجيكي " ياروسلاف سيفرت" الحائز علـــى جـــائزة نوبـــل ١٩٨٤، هذا الاحتمال المرير في قصيدته ((الصمت مليء بأجراس مركبات الجليد)) (سيفرت (في) ،حافظ ،١٩٩٢،ص٢١٧):

((لكني الآن رجلٌ عجوز
ولم تعودي تعرفينني
ولعلنا التقينا في عناقٍ
لكن الآن كلٌّ ينظرُ في اتجاه
كما لو لم يرِ أحدنا الآخر
في كل حياتنا
ذلك أيضاً يمكن أن يحدث!)).

وربما إن ذروة الحب تتحقق في فترة متأخرةٍ من سنوات الرفقة (إنْ تحققتْ) بين الشريكين أو الزوجين، كما يؤكد على ذلك الكاتب "مارك توين" Mark Twain (١٨٣٥ – ١٩١٠) بقوله: ((ما من رجل أو امرأةٍ يعرفُ حقاً مـــا هو الحب حتى يقضيا ربعَ قرنٍ في الزواج)) (Myers,1996. p.507).

ولعلّ بمقدور البعض من العشاق أو الازواج أن يحافظوا على ايقاع عاطفي ثابتٍ في ذروته طوال سنوات الحب والزواج. ويفسر الروائي الكولـــومبي "غاربيل غارسيا ماركيز" سرّ تألق الحب لديه بالرغم من مرور ربع قـــرن على زواجه، بقوله: ((أعتقد أن السر في ذلك يعود الى إننا مازلنـــا ننظـــرُ الى الأشياء بالطريقة ذاتها التي كنا ننظرُ بها الى الأشياء قبل الـــزواج. إن الزواج مثل الحياة ذاتها، صعبٌ للغاية الى الدرجة التي يتعين على المرء أن يبدأه منتعشاً كل يوم، وأن يواصل هذا الاحساس طوال الحياة. إنها معركـــة مستمرة واحياناً تستنزفُ المرء. ولكنها تستحق ذلك في النهايـــة ... الحـــبُ أمرٌ نتعلّمه)) (ماركيز(ب)،١٩٨٩،ص٢٧).

إن تساؤلنا عن زمن ونوع اللحظة التي تتحقق فيها ذروة الحب فـــي حيـــاة الانسان – بصرف النظر عن نجاح هذا الحب أو فشله لاحقاً، عـــن دخولـــه مؤسسة الزواج أو بقائه خارجها – يستدعي أولاً تعريفاً دقيقاً لمفهـــوم "ذروة الحب" مستنداً على تنظير العلماء وإفادات الناس وتحليل الوثـــائق الادبيـــة والفنية، وثانياً دراسة الشروط الاقتصادية والاجتماعية والثقافية المؤدية الى تحقيق هذه الذروة نفسياً، وصولاً الـــى تـــصوراتٍ أكثـــر ثباتـــاً وصـــدقاً وموضوعيةً عن الكيفية التي ينبغي تغيير العالم بها، تحقيقاً لأكبر عددٍ ممكن من ذرى الحب في نفوس البشر، بشرط أن لا تكون هـــذه الـــذرى مجـــرد مشاعر سعيدة مؤقتة، بل تصبح جزءاً أصيلاً دائمـــاً مـــن وقـــتهم اليـــومي العقلاني الآمن البهيج المثمر المسالم.

إنّ أجلَّ ما في الانسان واقعيتُه وقدرته على الحلم في آنٍ معاً !

التغايرات في الحب الرومانسي

أشعر أن قلبي مخلوق لكـــي أحـــب العـــالم كلـــه،
وأرغب كما رغب الاسكندر أن توجد عوالم أخـــرى
كي أتمكن من أن أنقل إليها فتوحاتي الغرامية!
دون جوان

تشير الملاحظة العلمية والتجارب المختبرية والدراسات الميدانية إلى تغاير مضامين تجربة الحب الرومانسي من جنس إلى آخر، ومن ثقافة إلى أخرى، ومن صنف شخصية إلى أخرى:

النوع الاجتماعي (الجندر) Gender

يتداخل دور الوراثة Heredity (الذي يخضع بدوره لتأثيرات بيئية ســابقة) مع دور البيئة Environment تداخلاً جدلياً مكثفاً في تحديد الفــروق بــين الناس عامة وبين الجنسين خاصة، في سلوكهم الانفعالي والجنسي أكثر من أي ناحية سلوكية أخرى. فالبيئة الحضارية والاجتماعية تسهم بالقدر الأكبر في عملية "التنميط الجنسي" Sex Typing (أي إعطاء الــدور الاجتمــاعي المحدد لكل من الأنثى والذكر حسب معايير ذلك المجتمع وقيمــه)، ولــذلك نرى أن صفات العدوان والسيطرة والإقدام والتفوق غالباً ما ترتبط بالذكور في حضارتنا الذكرية، فيما ترتبط صفات الخــضوع والــسلبية والخــوف والرقة بالإناث. لكن الفروق الانفعالية والمزاجية بين الجنسين والناشئة عن عوامل وراثية فزيولوجية، تظل هي الأخرى فاعلة فــي تــشكيل الــسلوك

العاطفي الفردي للأنثى والذكر، ودون أن يتناقض ذلـك بالـضرورة مـع سلوكهما الاجتماعي الناشيء عن عوامـل البيئـة. أن التنمـيط الجنـسي الحضاري الاجتماعي لا يلغي حقيقة وجـود الفـروق الفرديـة الـسلوكية الوراثية المنشأ بين الناس عامة وبين الجنسين خاصة، فالبيئة لا معنى لهـا دون البيولوجيا الموروثة (أي المادة النوعية التي تمارس تأثيرها عليهـا)، والوراثة لا تحدث إلا في البيئة، أي في الإطار الزماني والمكاني لحـدوث التفاعل.

تشير الأبحاث الفزيولوجية في هذا الصدد أن الهورمونـات الجنـسية لهـا تأثيرات مختلفة على مخ كل من الذكر والأنثى منذ مدة طويلة قبل الميلاد. وبالرغم من عدم اتفاق الكل إلا أن الكثيرين من علماء النفس يعتقـدون أن البنين والبنات يولدون ولديهم قليل من الميول السلوكية المتباعدة. لكنه مـن الواضح أيضاً أن المجتمع يلعب دوراً قوياً في تشكيل السلوك لكـل جـنس سواء كان ذكراً أم أنثى (دافيدوف، ١٩٨٣، ص٧٦٩).

يتم إنتاج الهورمونات الجنسية بكميات كبيرة نسبياً في مراحل مهمة معينـة من النمو الجنسي، وهي: بعد الحمل بمدة قصيرة، وفي الوقـت التقريبـي للولادة، وعند البلوغ الجنسي Puberty. ويكوّن كل من الـذكور والإنـاث هورمونات جنسية أنثوية تشمل "الايستروجين" Estrogens و "البروجستين" Progestins، وهورمونات جنسية ذكرية هي "الانـدروجين" Endrogens. وينتج الذكور كميات كبيرة نـسبياً مـن "الانـدروجين" وبـصفة خاصـة "التيستسترون" Testesterone الذي تفرزه أساساً الخـصيتان، فيمـا تنـتج الإناث كميات كبيرة نسبياً من "الايستروجين" و "البروجستين". فإذا كانـت هورمونات "الاندروجين" هي السائدة فإنها تعمـل علـى نمـو الأعـضاء

التناسلية الذكرية وتمنع نمو الأعضاء التناسلية الأنثوية. وفي حالة غياب "الاندروجين" يكوّن الجنين الأعضاء التناسلية الأنثوية ويوقف نمو الذكرية. وعلى هذا فأن الإناث يتم تخليقهن بصورة تلقائية إلا إذا وجد "الاندروجين". ولا يقتصر تأثير "الاندروجين" على أعضاء التكاثر فقط، ولكنه يمتد ليشمل المخ والسلوك الجنسي الناتج. ويبدو أن الوجود المبكر للاندروجين، حتى بكميات ضئيلة، قد يغير التوصيلات العصبية في منطقة "الثالاموس" (المهاد) Thalamus في الدماغ. وتبعاً لذلك يقوم الدماغ الذي تم تذكيره بإنتاج استجابات ذكرية جنسية (مثل امتطاء الأنثى Thrusting و إيلاج العضو التناسلي Musting). وتشير البحوث في هذا الميدان أن حقن إناث كل من الفئران، خنازير غينينا، والأرانب، والقردة، بكمية من "الاندروجين" اكبر من المقدار المعتاد، أو إذا أخذت ذكور هذه الحيوانات مقداراً أقل من الكمية المعتادة قبل الولادة، فإنها تميل لأن تسلك مثل أعضاء الجنس الآخر فيما بعد. وتشترك تكوينات الدماغ الأخرى بالإضافة إلى "المهاد" في السلوك المرتبط بطراز الجنس، إذ يعتقد علماء النفس في الوقت الحاضر أن مستوى "الاندروجين" في الطفل الإنساني قرب ميعاد ولادته يغير المخ، ويؤثر بالتالي على الفروق السلوكية الناجمة بين الرجال والنساء (دافيدوف، ١٩٨٣، ص ٤٥٦-٤٥٨).

وقد برهنت الكثير من التجارب العلمية على الحيوانات القريبة من الإنسان تطورياً (لا يمكن إجراء مثل هذا النوع من التجارب على الإنسان لموانع أخلاقية) على وجود فروق بيولوجية في السلوك الانفعالي بين الجنسين؛ إذ تم في إحدى التجارب عزل مجموعة من القردة من الجنسين عند الولادة عن أبناء جنسهم، ثم سمح لهم بالاختلاط بعد ذلك مع بقية القردة لأول مرة. وقد اتضح أن استجابات الإناث اتسمت بالخوف من رفاقهن

الجدد اكثر مما فعل الذكور، فقد ركضن إلى زاوية القفص للاختباء أو الهرب، بينما لم يفعل الذكور ذلك. وفي تجربة أخرى على الفئران تم تعريضهم إلى صوت محدد في كل مرة، وبعده بعدة ثواني كانوا يصعقون بشرارة كهربائية. تم تكرار التجربة لعدة مرات مع خمس سلالات من الفئران مع إتاحة الفرصة لهم لإمكانية الهرب من القفص. وقد تبين أن الإناث في كل سلالة قد تعلمن الهروب من القفص أسرع بكثير مما فعل الذكور، أي أن استجابتهن الانفعالية كانت أشد. وقد تم تفسير نتائج التجربتين بأن الجهاز العصبي المستقل للأنثى له عتبة حسية أوطأ لرد الفعل من الذكور، وانه يميل للاستجابة بسرعة وشدة اكبر للتحفيز الأوطأ **(Kagan,1972,p.318)**.

ولدى البشر، تم اكتشاف العديد من الفروق الفردية في الغدد الصم؛ فوزن الغدد الدرقية يتراوح في الحالات الاعتيادية من (٨) إلى (٥٠) غراماً، ووزن الخصي من (١٠) إلى (٤٥) غراماً، ووزن المبايض من (٢) إلى (١٠) غرامات، ووزن الغدد الكظرية من (٧) إلى (٢٠) غراماً، ووزن الغدد النخامية من (٢٥٠) إلى (١١٠٠) مليغراماً. ولذلك من المعقول أن نفترض، بالرغم من عدم وجود دليل مباشر، أن الشخص المالك لغدد صم كبيرة ونشيطة سوف يعايش تغيرات فزيولوجية مختلفة، وبالتالي انفعالات مختلفة عن الشخص ذي الغدد الصم الأصغر والأقل نشاطاً. وقد تعزى الأنماط المتنوعة من الاستجابات الفزيولوجية الانفعالية لدى الناس إلى الفروق الفردية في فعالية الجهاز العصبي المستقل. فقد يبدي شخص ما، على سبيل المثال، ارتفاعاً ملحوظاً في سرعة النبض في المواقف المثيرة للانفعال، فيما لا يبدي شخص آخر في نفس تلك المواقف إلا تغيراً قليلاً في معدل النبض، لكنه يظهر زيادة واضحة في درجة حرارة الجلد **(Kagan,1972,p.317, 319)**.

وبالاستناد إلى كل هذه الشواهد المتعلقة بالعوامل الانفعالية المتأصلة فزيولوجياً، يبدو من المنطقي أن نفترض أن الناس يملكون اختلافات تكوينية واضحة في مستويات نشاطهم الغدي وفي حساسية ونشاط أنماط جهازهم العصبي المستقل. وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول أن هناك اختلافات تكوينية في أجهزتهم العصبية المركزية في الطريقة التي يعمل بها "الهايبوثالاموس" و"الجهاز العصبي" (Kagan,1972, p.319)، وبالتالي فأن السلوك الانفعالي الفردي للأنثى في الحب لابد أن يكون مختلفاً عن سلوك الذكر، نظراً للفروق الهورمونية والعصبية بينهما، دون أن يلغي ذلك أثر البيئة الحاسم في تشكيل الأدوار والأنماط السلوكية الاجتماعية للجنسين.

إن ما يهمنا في هذا المبحث هو انعكاس أثر الفروق البيئية (الحضارية والاجتماعية) للتنميط الجنسي، والفروق الفزيولوجية الغدية والعصبية بين الجنسين على سلوكهم في الحب. وتشير الدراسات في هذا المجال إلى اختلاف الذكور عن الإناث في كيفية خوضهم لتجربة الحب الرومانسي، إلا أنها لا تحدد نسبة تأثير الوراثة أو البيئة على هذا الاختلاف نظراً للتداخل الشديد بين هذين العاملين (والذي أشرنا إليه في بداية هذه الفقرة)، والذي سيظل مشكلة علمية وفلسفية قائمة في مجال الحب وفي كل المجالات النفسية الأخرى، ما دمنا لا نستطيع التحكم في كل متغيرات الوراثة والبيئة أثناء إجراء التجربة العلمية على كائن دينامي تتفاعل فيه المتغيرات الجسمية والعقلية دون حدود.

جاءت غالبية نتائج الدراسات في هذا المجال مضادةً للاعتقادات الشائعة. فقد اشارت دراسات غربية مختلفة إلى أن الذكور بشكل عام هم اكثر عاطفيةً من الاناث. وإن طالبات الجامعات يتحكم العقل في سلوكهن اكثر

من العاطفة (صالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٣٤). ويبدو أن النساء على عكس ما يذكره الفولكلور أقل مثالية واكثر تهكماً مـن الرومانسية اذا مـا قـورنّ بالرجال. ومن ناحية أخرى، فإن خبرة النساء بأعراض الحب (الحاجة الى الجري والقفز والصراخ والشعور بالحرية) اكثر حدةً منها عنـد الرجـال)) (دافيدوف ،١٩٨٣،ص٧٥٥).

وفي دراسة "كيفارت" Kephart ١٩٧٢، نقرأ ما يأتي: ((خلافاً للانطبـاع العام الشائع، لا تندفع الانثى هنا وهناك بفعل دوافعها العاطفية، بـل علـى العكس من ذلك تكون عاطفتها أكثر تكيفاً وقابلية للتوجيه من الذكر. ويبـدو إنها قادرة بشكل أفضل من الذكر على أن تسيطر علـى ميولهـا العاطفيـة وتكيفها لضرورات اختيار الزوج)) (صالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٣٤).

وتتفق دراسات أخرى لـ"ديون" و"ديون" Dion & Dion ١٩٨٥ ، و"بيبلـو" و"جوردون"Peplau & Gordon ١٩٨٥ على أن الرجال أكثـر اسـتعداداً للوقوع في الحب، وإنهم يتخلون عن الحب بصورة أبطأ. وهم أقل احتمـالاً من النساء في تقويض رومانسية مرحلة ما قبل الزواج. غيـر أن النسـاء ينهمكن انفعالياً بصورة نموذجية في الحب كما يفعل شـركاؤهم الـذكور أو أكثر. كما إنهن يتفوقن على الرجال الى حدٍ ما في تركيـزهن علـى ألفـة الصداقة وعلى اهتمامهن بالشريك. أما الرجال فيبدون اهتماماً أشد بالجوانب الهازلة والمادية للعلاقة (Myers,1996, p.505).

وفي استقصاء موسع عن التغايرات في الحب، توصلت دراسة "جون لـي" Lee ١٩٧٣ الى ما يأتي (صالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٣٦، ٢٣٧):

١) إن الفروق في أنماط الحب هي فروق حضارية وليست وراثية.

٢) تتجه المرأة نحو حب الصداقة والحب الرزين أكثر من الرجـل، ممـا يوضح أهداف الحب الزوجية. فالمرأة أكثر عقلانية وأقل مـيلاً لحـب رومانسي يغفل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية الواقعية. وهـي لـذلك تمارس مقداراً أعظم من السيطرة على عاطفتها.

٢) إن الفروق الحضارية قد تشجع نوعاً من الحب وتفضله على نوعٍ آخر.

٤) الحب التملكي التواكلي أكثر حدوثاً عند الاناث.

٥) إن الرجال اكثر رومانسيةً من الاناث في حـبهم. وهـذا مـا ترفـضه دراسات أخرى.

٦) إن مكونات الحب العاطفية والعقلية مستقلة الواحدة عن الاخـرى. وإن حدة العاطفة لا علاقة لها بالمحتوى العقلي للحب.

وترى "نظرية الانصاف" Equity Theory التي وضعها كل من "والـستر" و"والستر" و"بيرشد"Walster & Walster & Berscheid ١٩٧٨ أن الناس ينجذبون ويختـارون الأفـراد ذوي الخـصائص الاجتماعيـة المـشابهة والمرغوبة. وإن الناس الذين يتزوجون يميلون الى اختيار شركاءٍ لهم ممـن هم على درجة مقاربة لهم في الجمال والصحة العقلية والجـسمية والخلفيـة الاجتماعية والشعبية. فكثيرٌ من الازواج متوازنون في نقاط القوة والضعف. ويميل الشركاء الى الشعور بالارتياح حين يتوازن لديهم الأخذ والعطاء فـي العلاقة. أما اذا كان اسهام أحد الشريكين يفوق بكثير اسـهام الآخـر فـأن العلاقة تولّد نوعاً من التوتر. ولحسم هذا التوتر فأن الإثنين قـد (دافيـدوف ١٩٨٣،ص٧٥٥،٧٥٦):

١) يحاولان استرداد التوازن.

٢) أو يحاولان اقناع نفسيهما بأن العلاقة منصفة في الواقع.

٣) أو ينفصلان.

الثقافـــــات Cultures

تختلف المجتمعات في مقدار الأهمية التي توليها للحب الرومانسي. ويعـود هذا الاختلاف الى تنوع الثقافات. فقد وجد في احدى التحلـيلات أن (٨٩%) من مجموع (١٦٦) ثقافة في العالم تمتلك مفهوم الحب الرومانسي منعكسـاً في الغزل وثنائيات العشاق الهاربين معاً (Myers,1996, p.504).

وهذا يدل على وجود فهم مشترك الـى حـد كبيـر بـين ثقافـات الأرض لموضوعة الحب الرومانسي وشروطه العاطفية وخصائصه الـسلوكية. إلا أن هذه المجتمعات تختلف في موقفها من هذا الحب وفي درجة قبولهـا لـه كعلاقة مطلوبة قبل الزواج. فالطبقات العليا في المجتمع الصيني ايام حكـم "المانشو" ومن سبقهم كانوا يرون في الحب مأساةً وكارثة قد تُفـشل خطـط كبار العائلة في جمع عائلتين أو عشيرتين معاً. ويعدّون الحب لغـواً غيـر وارد وغير ذي موضوع. وينظر المجتمع الهندي نظرةً اكثر اعتـدالاً الـى الحب، إذ يرى أن العلاقة المثلى هي تلك التي يظهر فيها الحب بعـد فتـرة الخطوبة والزواج. أما في الطرف الأقصى من الارض، فنـرى ان للحـب الرومانسي أهمية كبرى في مجتمع امريكا الشمالية، فالناس هناك ينظـرون بريبة وشك الى من يعلن انه تزوج عن غير حب، ولهذا فإن كل طفل يكبر يعتقد انه على موعد مع الحب (صالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٣٣).

ولعل النظرة السائدة إلى الحب في الكثير من المجتمعات الـشرقية، تماثـل نظرة المجتمع الهندي الى حد كبير. فالحب لديهم ليس خطيئةً بحـد ذاتـه، ولكن بشرط أن يكون علانياً وبمباركة الأهل والاقرباء، وضـمن الحـدود الاجتماعية الشرعية المتعارف عليها، وهي الخطوبة ثم الزواج.

الحب والنشاط الجنسي Love & Sexuality

إذا كان مبدأ ((الاشباع) Gratification هو القانون الاعلى الذي يتحكم بالعلاقات الجنسية، فقد يتساءل المرء لماذا لايتم تحقيق ((الارضاء)) Satisfaction في كل حالات الاشباع البدني؟ لماذا يشعر الانسان بالتعاسة والوحدة بالرغم من فرص الاشباع الجنسي الوفيرة؟ ولماذا لا تولّد هذه الفرص الحبَ بالضرورة، بل غالباً ما تنتج العدائيةَ والكراهية؟ اذا كانت قوانين الحب تستند على مساومة قوى الحاجات وارضائها، فلماذا تشحن التلبية النفسية في الغالب بالهدمية Destructiveness ، والاحباط Frustration ؟ تكمن الاجابة عن هذه الاسئلة في حقيقة أن إنسانين يتحدان جنسياً قد يكتشفان أن الإشباع الذي حققاه لم يُرض نفسيهما بل أرضى الرغبة Desire فيهما. لقد كانا مشدودين الى حافز بيولوجي، ما عادا متوحدين به بعد أن اشبعا حاجتهما. إن حقيقة أن الشخص الآخر يستطيع امتلاكنا لأننا فريسة مؤقتة لانفعال يهيمن على شخصيتنا الكلية، سيولد عدائية ممتعضة اذا ما شعر المرء بأنه اُستِخدم لغرض الاشباع الجسدي، وليس لأجل الحب والاحتياج بوصفه انساناً **(Benda,1961,p.16)**.

عندما يحدث الحب، نجد انسانين يواجهان بعضهما بتوقعات تتجاوز بعيداً المجال الجنسي، وتتصل باستجابات عاطفية وروحية ذات طبيعة معقدة جداً. وفي الحب، نمر بخبرة اتخاذ موقف تجاه انسان آخر، إذ يتم مواجهة تحدي الجنس بطريقة جديدة. ويمثل الحب خياراً حراً وقراراً لاخضاع الحاجات الآنية للفرد وانفعالاته وعدائيته وحسده وقلقه التنافسي، والتي توجد في كل العلاقات الجنسية، الى صيغة جديدة من ((الرابطية)) Relatedness ،يصبح فيها التكامل مع الشخص الاخر أمراً مهماً **(Benda,1961,pp.17,18)**.

مركز التحكّم Locus Of Control

يعدّ "مركز التحكم" (مركز السيطرة) Locus Of Control من المفاهيم الأساسية التي جاءت بها "نظرية التعلم الاجتماعي" Social Learning Theory في ستينات القرن العشرين، والتي حاولت مزج المنظور السلوكي بالمنظور المعرفي في فهم الشخصية الفردية والاجتماعية للإنسان. وقد أثار هذا المفهوم ومايزال يثير اهتماماً نظرياً ملحوظاً ودراسات ميدانية متنوعة في مجال علم النفس الاجتماعي، وتحديداً في مجال "العزو" Attribution (أي كيف يفسر الناس الأحداث التي تمر بهم وإلى ماذا يعزون أسبابها المصدرية ؟).

ينسب مفهوم "مركز التحكم" إلى عالم النفس الأمريكي "روتر" Rotter ١٩٦٦ الذي لاحظ ان الفرد قد يتوقع أن يكون مصدر التعزيزات " داخلياً " Internal (أي سلوك الفرد ذاته)، أو " خارجياً " External (أي سلوك الجماعة او الحضارة التي ينتمي إليها ذلك الفرد) **(Schunk, 1991, p. 97)**. فأطلق على هذا التوقع التعميمي مصطلح ((التحكم الداخلي- الخارجي)) Internal – External Control **(Rotter, 1966, p.1)**، ثم صار يعرف فيما بعد على نطاق واسع بين الباحثين بمصطلح ((مركز التحكم)) ، والذي يشير الى المدى الذي يدرك فيه الناس أن حياتهم متحكَّم بها داخلياً بواسطة جهودهم وأفعالهم الخاصة، أم أن المصادفة والقوى الخارجية هي التي تتحكم بها **(Myers, 1996, p.47)**.

ويقصد "روتر" بـ"التعزيز" Reinforcement ذلك الحدث (ثواب أو عقاب) الذي يعقب قيامنا بفعل ما، والذي من شأنه أن يقوي أو يضعف احتمال تكرار قيامنا بذلك الفعل. فالاحترام والمكانة الاجتماعية المتميزة اللذين

ينالهما الإنسان المبدع في مجتمعه يعدّان تعزيزاً إيجابياً له يحفزه إلى مزيد من الابتكار، فيما يعدّ الازدراء وعدم الاكتراث نحوه تعزيزاً سلبياً قد يقوده إلى الجمود واليأس.

ويعد ((مركز التحكم)) مفهوماً ثنائي القطب. فعندما يدرك الشخص التعزيز الذي يعقب سلوكاً معيناً لديه على أنه لا يرتبط بذلك السلوك، بل هو نتيجة للحظ أو المصادفة أو القدر، ولا يمكن توقعه بسبب التعقيد الشديد للقوى المحيطة به، عندها يسمى هذا الاعتقاد بـ ((التحكم الخارجي)). أما إذا أدرك الشخص الحادثة على أنها مرتبطة بسلوكه او بخصائصه الدائمة نسبياً ، فيسمى هذا الاعتقاد بـ ((التحكم الداخلي)) . وقام "روتر" ١٩٦٦ بتطوير مقياس لهذا المفهوم مؤلف من (٢٩) فقرة بالاستناد الى مقاييس أخرى مماثلة سبقته **(Rotter, 1966, pp. 1, 9-12)**، والذي يعدّ من المقاييس المهمة في دراسة الشخصية، وقد استخدم في آلاف البحوث المنشورة وغير المنشورة. تتضمن كل فقرة في المقياس عبارتين، وعلى المستجيب أن يختار واحدة يعتقد أنها تنطبق عليه اكثر من الأخرى. وتتضمن هذه الفقرات مجالات الخبرات الشخصية والمعتقدات السياسية. وبعد أن يقوم المستجيب بالإجابة عن كل الفقرات، يتم معاملة هذه الإجابة إحصائياً للتوصل إلى نوع مركز التحكم لديه، أهو داخلي أم خارجي. وهذا نموذج لإحدى فقرات المقياس (صالح(ب)، ١٩٨٨، ص ١٤٥، ١٤٦):

أ) أحد الأسباب الرئيسة لنشوب الحروب يعود إلى أن الناس لا يمارسون اهتماماً كافياً بالأمور السياسية.

ب) ستبقى الحروب على الدوام مهما حاول الناس منعها.

وقد أظهرت الدراسات عن مفهوم "مركز التحكم" وجود علاقات إرتباطية دالة بينه وبين عدد من المتغيرات والظواهر النفسية الأخرى، مثل فاعلية الأداء والقابلية على الاقتناع والإجهاد العصبي وخصائص الشخصية. فقد اتضح مثلاً أن ذوي التوجه الداخلي يكون أداؤهم اكثر فاعلية في حل المشكلات، وانهم يظهرون مقاومة أشد ضد محاولات الآخرين لإقناعهم، ويميلون إلى لوم أنفسهم حين يمرون بخبرة الفشل، وهم اكثر شعوراً بالمسؤولية مقارنة بذوي التوجه الخارجي (صالح،(ب)، ١٩٨٨، ص ١٤٧-١٥١).

وفي مجال الخبرات الجنسية الرومانسية، أظهرت الدراسات أن الطلبة الداخليين والخارجيين في توجهاتهم يختلفون من حيث عدد وأنواع الخبرات الرومانسية. فقد وجد أن الطلبة من ذوي التوجه الداخلي لديهم صداقات أو علاقات رومانسية اقل بالمقارنة مع زملائهم ذوي التوجه الخارجي. وكانوا بالضد تماماً من أي وجهة نظر مثالية في الحب الرومانسي، وهم لا يتفقون كثيراً حول عبارات من هذا النوع: ((هناك حب واحد حقيقي في حياة الفرد))، ((الحب الصادق يبقى إلى الأبد))، ((الحب الصادق يقود إلى سعادة تامة)). وقد افترض الباحثون الذين اجروا هذه الدراسات عدداً من الأسباب لتفسير هذا الاختلاف بين ذوي التوجه الخارجي والداخلي منها أن الحب الرومانسي يتضمن مفهوماً يقضي بأن يتخلى كلا الطرفين عن نفسيهما من أجل الشريك الآخر، بمعنى أن كل شريك يصبح مرناً وسريع التأثر برغبات الطرف الآخر. وهذا يتنافى مع خصائص ذوي التوجه الداخلي الذين لا يميلون إلى التأثر بالآخرين، وبهذا تصبح مشاعر الانجذاب القوية نحو الآخرين لا تخدم أغراضهم. ولهذا، فإننا قد لا نندهش حين نرى أن الكثير من الطلبة ذوي التوجه الداخلي غير منشغلين بالحب الرومانسي الذي "يغرق" فيه الطلبة ذوو التوجه الخارجي (صالح(ب)، ١٩٨٨، ص١٤٩).

مراقبة الذات Self - Monitoring

يتنوع الأفراد في طريقة فهمهم للعلاقات مع الجنس الآخر. فالبعض يفتش عن العلاقات القصيرة المتعاقبة، والبعض يقدّر عالياً ألفة العلاقة الواحدة الثابتة. وهنا يتضح أحد متغيرات الشخصية المرتبطة بهذه المسألة، وهو مفهوم "مراقبة الذات"، إذ ينقسم الناس ذكوراً وأناثاً الى صنفين رئيسيين حوله **(Myers,1996, p.504):**

١- **الأفراد ذوو المراقبة العالية للذات** High in Self-Monitoring :
وهؤلاء يراقبون سلوكهم ببراعة كي يخلقوا أثراً مرغوباً به في أي حالة متوافرة.

٢- **الأفراد ذوو المراقبة الواطئة للذات** Low in Self-Monitoring :
وهؤلاء موّجهون داخلياً بصورة أشد. ومن المحتمل أكثر أن يقرّروا التصرّف بالكيفية نفسها بصرف النظر عن الحالة.

وهنا يبرز السؤال المتوقع: أي نوع من الأشخاص - ذي المراقبة العالية أم الواطئة للذات - نخمّنُ بأنه أشدّ رغبةً في خوض علاقاتٍ قصيرةٍ متعاقبةٍ بحثاً عن شريك جديد باستمرار، وبأنه أكثر تشوشاً من الناحيتين العاطفية والجنسية؟

تفيد دراسات قام بها "سايندر" Synder وزملاؤه ١٩٨٥ ، ١٩٨٨ ، إن الجواب في كل الحالات يكون "الشخص ذو المراقبة العالية للذات". فمثل هؤلاء الناس يكونون ماهرين في إنجاح الأنطباعات الأولى عنهم ، لكنهم يميلون الى أن يكونوا أقلّ التزاماً للعلاقات العميقة الراسخة. أما ذوو المراقبة الواطئة للذات، والذين يركزون على الخارج بدرجة أقل، فأنهم أكثر التزاماً ، ويبدون اهتماماً أشد بالنوعيات الداخلية للناس **(Myers,1996, p.504))**.

وتعد شخصية "دون جوان" (دون الخوض في "عقدة النقص" Inferiority Complex الكامنة في أعماق هذه الشخصية) نموذجاً ممثلاً لسلوك الأفراد ذوي المراقبة العالية للذات. وقد أبدع الكاتب والممثل المسرحي الفرنسي "موليير" Moliere (١٦٢٢-١٦٧٣)م في رسم الشخصية الدونجوانية، حينما كتب على لسان "دون جوان" نفسه في مسرحية بنفس العنوان، شارحاً أسلوب حياته:

((ماذا ! تريد أن نتقيد بأول حب وننقطع إليه رافضين من أجله العالم، ولا نعود ننظر إلى أي إنسان آخر في الدنيا بسببه، جميل منا أن نتباهى بهذا الشرف المزيف، شرف أن نكون أوفياء فندفن أنفسنا إلى الأبد في حب واحد يقتل فينا، منذ الشباب، كل ميل للاستجابة لأنواع الجمال التي نقع عليه. كلا، كلا : الثبات لا يناسب إلا البسطاء والحمقى وحدهم، فمن حق كل امرأة جميلة أن تفتننا، كما أن صدفة التقائنا بواحدة منهن قبل غيرها لا تجرد الأخريات من حقهن في غزو قلوبنا... باختصار ما من شيء أحلى من الانتصار على مقاومة امرأة جميلة، ولي فيما يتصل بهذا الأمر طموح الفاتحين الذين يسيرون قدماً من نصر إلى نصر، ولا يستطيعون أن يضعوا حدوداً لرغباتهم. أشعر أن قلبي مخلوق لكي أحب العالم كله وارغب كما رغب الاسكندر أن توجد عوالم أخرى كي أتمكن من أن أنقل إليها فتوحاتي الغرامية)) (العظم، ١٩٦٨، ص ٤٧، ٤٨).

وتطالعنا في الأدب الروسي شخصيةٌ أمضتْ جلّ حياتها في مراقبةٍ عاليةٍ للذات، تلك هي شخصية "رودين" في روايةٍ بنفس الأسم ١٨٥٦ للكاتب " ايفان تورغينيف " I.Turgenev (١٨١٨ - ١٨٨٣)م . إن ما كان يعانيه "رودين" من اغتراب نفسي واجتماعي وثقافي عن مجتمعه ذي

التحولات الأجتماعية الدراماتيكية آنذاك وما رافقها من انقلاب في القيم والتصوّرات والأفكار، وامتزاج هذه المعاناة بتطلعاته الكونية وبثقافته الفلسفية الواسعة، قد حثّ " رودين" على الترفّع عن خوض غمار الواقع على حقيقته كنوعٍ من حلٍّ لشخصيته المتذبذبة الفريدة التائهة بين أناسٍ يرونها زائدة عن حاجة الحياة الأجتماعية. فمضى مغالياً في مراقبة ذاته وتلميعها بالأقوال الساحرة المحرّضة للآخرين في محاولة لتخفيف قلقه الوجودي، عسى أن تكون انطباعات الآخرين عنه تعويضاً مناسباً عن عجزه العميق أمام بؤس المشهد العام؛ ففقدَ القدرة على المضي في علاقة حب واحدة ثابتة مؤكدة رغم تعطشه النفسي الشديد وتنظيره العميق لضرورة الحب الجارف للمثقف. وتلك هي أزمة أغلب المثقفين الصادقين في عصور التحولات الأجتماعية الكبرى.

ففي خطابه الى "ناتاليا" الذي أرسله لها بعد أن ذاق هزيمة الحب وبعد أن وجد نفسه عاجزاً عن الأيفاء بوعود الحب التي قطعها لها في البداية، كتب "رودين" :

((حبَتْني الطبيعة بالكثير، أدركُ ذلك ولن أتواضعَ أمامكِ انطلاقاً من الخجل الكاذب ولا سيما الآن في هذه اللحظات المرّة المخجلة للغاية .. لكنني سأموت ولا أنجزُ شيئاً جديرا بقواي، ولن أترك خلفي أي أثرٍ نافع. كل ثرائي سيذهبُ هباءً ولن أرى ثمارَ بذوري .. إن مصيري لغريب، بل يكاد يكون كوميدياً)) (تورغينيف ،١٩٨٥،ص١٢١).

الفصل الرابـع

استنتاجات

استنتاجات

استعرضنا في الفصلين السابقين مجموعةً من مسميات الحب المتحقق فعلاً، مثل "الحب الأيروسي الأغريقي" ، و "الحب الرومانسي" في العصور الوسطى وعصر النهضة والعصر الرومانسي، و "الحب الجنسي الفردي البرجوازي" بالمفهوم الماركسي، و"الحب الوجودي"، و"الحب الايروسي الفرويدي" ، و"الحب البرجوازي المزيف" لدى "إريك فروم"، و"الحب الرومانسي" و"الحب الكامل" و"الحب الشهواني" بالمنظور النفسي الأجتماعي الحديث. كما كان لدينا أنواع منشودة من الحب نظّر لها بعض من هؤلاء الفلاسفة والعلماء وتطلعوا لتحقيقها في المجتمعات الفاضلة، مثل ((حب الخير الأسمى)) لأفلاطون، و" الحب اللاطبقي المتكافىء" أو "اسمى اشكال الزواج الوحداني" لدى مؤسسي الماركسية، و" الحب الناضج البنّاء" لدى "إريك فروم" . إن الذي يهمنا هنا هو مسميات الحب المتحقق فعلاً بوصفها محور الهدف النظري الخاص لهذه الدراسة الذي طرحناه في الفصل الأول على شكل فرضية، عبرنا عنها بسؤال محدد نكرره ثانية:

((هل يصح استخدام مصطلح " الحب الرومانسي" بوصفه مصطلحاً نفسياً (وليس لغوياً أو تأريخياً) شاملاً وعنواناً مشتركاً لكل مسميات الحب الأنثوي – الذكري المتحققة فعلاً، والتي تصدّت لها هذه الدراسة فلسفياً ونفسياً منذ عصر الأغريق وحتى الوقت الحاضر في المجتمعات الغربية؟ أي هل ظلت الخصائص النفسية الداخلية للحب

الانثوي – الذكري خصائص رومانسية ثابتة نسبياً منذ عصر الأغريق، مع تبدل مستمر في شروطه السوسيولوجية الخارجية بفعل التحولات الاجتماعية الحضارية المتلاحقة؟)) .

وبعد العرض والتحليل والمناقشة والمقارنة، وبالارتكاز على منظورين نفسيين في الاستنتاج والتفسير هما:

١- المنظور المعرفي للانفعالات [أنظر الفصل الثالث – الأسس الأنفعالية للحب] .

٢- الستراتيجيات المعرفية للتعامل (أو آليات الدفاع النفسي)(١) (أنظر الهامش المرفق بهذا الفصل).

....فقد تم التوصل الى الاستنتاج الآتي:

((إن كل مسميات الحب المتحقق أعلاه، بتنوع أطرها النظرية واختلاف مراحلها التأريخية، تشترك في مضمونها النفسي بثمانية عناصر رومانسية (انفعالية وسلوكية) أساسية، تشكل باجتماعها الدينامي سلوكَ العشاق في الحب. وهذه العناصر هي:

١- **الهوى**(٢) Affection.

٢- **الألفة** : التقارب والحميمية في المعرفة الشخصية بين الشريكين، وما ينتج عنها من ثقة ورغبة في الاتصال.

٣- **الرعاية** : الشعور بالاهتمام والمسؤولية والعطف بين الشريكين، والالتزام الذي يبديانه نحو بعضهما.

٤- **الدافع الشبقي (الايروسي) للالتحام الجسدي.**

٥- **الانفعالات الشديدة** : القلق والخوف/ الغضب والعدوانية/ الابتهاج والنشوة.

٦- **المزاج الشعري الحالم.**

٧- **صراع المشاعر المتناقضة :** القلق والأمان/ الألم والسعادة/ الحرمان والاشباع/ الغيرة والايثار/ الحرية والاستحواذ.

٨- **السلوك المغامر]**

إن هذه العناصر النوعية المشتركة تظلّ متوافرةً في كل حب رومانسي، إلا ان أحدها أو بعضها أو كلّها قد يختلف في درجة تحققه، وبالتالي قد تختلف الدرجة الكلية للحب من علاقة الى أخرى ومن مجتمع الى آخر، لكنه يظل رومانسياً في صفته النفسية النهائية. وهذا الاختلاف بالدرجة ينجم عن "عوامل ذاتية" خاصة بالفرد "وعوامل خارجية" خاصة بالبيئة الاجتماعية، تشكلّ بتفاعلها الدينامي مع بعضها المجال النفسي المشترك الذي يتحرك فيه الشريكان.

وقد تمّ استنتاج ستة عوامل ذاتية وخارجية هي :

١ - الخصائص الفزيولوجية والانفعالية والمعرفية للشريكين.

٢- درجة معرفة الشريكين أو جهلهما بالخصائص الشخصية لنفسيهما ولبعضهما.

٣- درجة الإشباع الجنسي - النفسي بين الشريكين

٤- تحقق الحب داخل مؤسسة الزواج أو بقاؤه خارجها.

٥- المستوى الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لطرفي الحب، ومقدار التكافؤ أو التباين بينهما في هذه المستويات.

٦- طبيعة العوامل السوسيولوجية والحضارية الكامنة في خلفيات هذا الحب.

بإيجاز، نسمي الحب رومانسياً اذا تحققتْ فيه العناصر النفسية الرومانسية الثمانية، بصرف النظر عن العوامل الذاتية والخارجية الستة أعلاه، والتي تؤثر في درجته (المقصود بالدرجة: كيف يبدأ الحب، وكثافته، وعمره، وطابعه البهيج أو الحزين، ومقدار الحرمان أو الإشباع فيه، وكيف ينتهي؟)، ولا تؤثّر في نوعه.

وعلى هذا، نقبل فرضيتنا (الواردة في الفصل الأول)، ونجيب بالإيجاب عن السؤال المنبثق عنها، ونسقِطُ المضمون اللغوي والتأريخي عن مصطلح "الحب الرومانسي"، ونتبنى المضمون النفسي العاطفي له فقط بوصفه تعبيراً شاملاً وعنواناً مشتركاً لكل علاقة حب بين أنثى وذكر قامت منذ عصر الأغريق وحتى الوقت الحاضر. وبذلك يصبح تعريف "الحب الرومانسي" الذي تم اشتقاقه في هذه الدراسة كما يأتي:

((حالة عاطفية انفعالية سلوكية تتألف من العناصر الرومانسية الثمانية المشار اليها أعلاه، وتختلف درجتها من علاقة الى أخرى ومن مجتمع الى آخر حسب العوامل الذاتية والخارجية الستة أعلاه)).

فلا تعارضَ اذن اذا قلنا: "الحب الرومانسي في العصور الوسطى" و "الحب الرومانسي في العصر الرومانسي" و " الحب الرومانسي المعاصر" . وكذلك لا تناقض اذا ما قلنا: "الحب الرومانسي" بمفهومه الأغريقي أو الماركسي أو الوجودي أو الفرويدي أو الفرومي. فكل حب بين امرأة ورجل هو حب رومانسي (بدرجة ما) بمفهومه النفسي. وهذا لا يمنع أن يكون هذا الحب في الوقت نفسه وجودياً بمفهومه الفلسفي، أو ايروسياً ليبيدياً بمفهومه الفرويدي، أو برجوازياً بمفهومه الماركسي السوسيولوجي، أو رومانسياً مزيفاً بمفهومه الفرومي.

بعبارة أدق، تتبنى هذه الدراسة مصطلح "الرومانسية" بوصفه مفهوماً نفسياً يعبّر عن خصائصَ عاطفية انفعالية وسلوكية محددة، تشكل بتفاعلها الدينامي وتكاملها الوظيفي نمطاً من أنماط أداء الشخصية البشرية في موقف معـــين. فإذا كان الموقف موقف حب، صار الحب رومانسياً بمفهومه النفسي بالنسبة لتلك الشخصية، دون أن يفقد خصائصه السوسيولوجية والحضارية المتباينة حسب درجة التطور الأجتماعي، والمكملة لخصائـــصه النفـــسية. وهكـــذا اختلفت التفسيرات والتأويلات وزوايا النظر، وظلّت ظاهرة الحب الأنثـــوي الذكري واحدة ثابتة نسبياً، ولعلّها أكثـــر الظـــواهر العاطفيـــة (بمـــضمونها النفسي) ثباتاً خلال تأريخ الإنسان، مقارنةً بالعلاقـــات الأســـرية وعلاقـــات الصداقة وأنواع الحب الأخرى غير الرومانسية.

أما عن الكيفية التي تم فيها تبني ومزج المنظورين النفسيين المشار اليهمـــا (أي المنظور المعرفي للانفعالات، وآليات الدفاع النفـــسي) وصـــولاً الـــى استنتاجاتنا هذه، فيمكن توضيحه ضمن الرؤية الآتيـــة، وحـــسب المخطـــط المستنتج والمبين في الشكل (٢) في نهاية هذا الفصل:

في سياق مواقف بيئية محددة، وحسب النظرية المعرفية للانفعالات، قد يميل الفرد إلى تفسير انفعالاته المستثارة (بفعل مثيرات خارجية باعثة شعورياً أو لاشعورياً على القلق أو الخوف أو الغضب أو الابتهاج، أو بفعل تغيرات هورمونية ذاتية المصدر ناشئة عن دوافع لاشعورية أو لاختلال كيميائي عابر في عمل الغدد) على أنها عاطفة رومانسية (هوى/ ألفة/ مزاج شعري/ رغبة جنسية ... الخ). وإن الآلية التي تتحول فيها هذه الأنفعالات الى معرفة أو تفسير هي آلية دفاعية لاشعورية غايتها خفض درجة الأنفعال عن طريق اعطاء معنى معرفي للموقف، حسب مبدأ التوازن[٣] (التعادل)

Equilibrium . وهذه الآلية تختلف نوعاً ودرجةً من فرد لآخر تبعاً لدوافعه الفزيولوجية والاجتماعية، وخبراته وخصائصه الشخصية، وتبعاً للمحددات السوسيولوجية والحضارية المحيطة به. فقد يفسر فرد ما وضعاً انفعالياً يمرّ به على أنه بداية للحب، مستخدماً اسقاطه التفسيري (أو أي آلية دفاعية أخرى) لمجمل الموقف بكل عناصره؛ فيما يفسره فرد آخر على أنه إعجاب أو انزعاج أو رغبة جنسية، مستخدماً اسقاطاً مختلفاً.

ولنوضح هذا الاستنتاج عبر الحالة الآتية على سبيل المثال لا الحصر، والتي تنطبق على الجنسين على حد سواء :

شاب (أو شابة) يعاني من الوحدة والاغتراب والملل. له دافع قوي للانتماء إلى معنى أو قيمة ثابتة في حياته يحقق من خلاله ذاته وأمنه النفسي. تنتابه رغبات جنسية مستمرة في أحلام اليقظة والمنام، لا يستطيع إشباعها بالرغم من كل التجارب الجنسية المؤقتة وغير المنتظمة التي مر بها. يحترم الجنس الآخر وفكرة الحب الرومانسي الجارف معه. له تصوراته الجمالية العمومية والتفصيلية عن المواصفات الجسدية والمظهرية والمزاجية والأخلاقية والفكرية لفارسة أحلامه. فإذا ما التقت عيناه يوماً بمشهد فتاة تلبي بعض هذه المواصفات الجسدية والمظهرية على الأقل، ستتأثر عندها منطقة "الهايبوثالاموس" (تحت المهاد) في الدماغ لديه بهذا المثير الخارجي المباغت وتنفعل به ابتداءً نتيجة للارتباطات العصبية السابقة بينهما (راجع الفصل الثالث: الأسس الانفعالية للحب)؛ فيقوم (أي تحت المهاد) بتنشيط الجهاز العصبي المستقل والغدد الصم مسبباً حالة عامة من الاستثارة الفزيولوجية (ارتفاع نبض القلب، والارتجاف، واحمرار الوجه، وتأهب العضلات، وتهيج الأعضاء الجنسية ...الخ) وبدرجة تختلف من شخص إلى آخر ومن موقف

إلى آخر، لمواجهة هذا المثير. وقد لا تلبي الفتاة هذه المواصفات على الإطلاق، فيكون سبب الاستثارة الفزيولوجية لدى الشاب عندئذ هو دوافع لا شعورية سبقت ورافقت اللقاء كالرغبة الجنسية أو الرغبة بالحنان والتعلق والانتماء. وقد يكون السبب هو الظروف المكانية الباعثة على الانفعال كالخلوة العفوية كلياً أو جزئياً بين الشاب والفتاة، أو بعض التفاصيل الجمالية الرومانسية المتوافرة في الموقف كالإضاءة والروائح والألوان ومعمارية المكان وتأثير الطبيعة. وقد يؤدي الشعور بالتوتر في حالات الوعي الشعورية أو اللاشعورية بالخطر إلى حالة الاستثارة الفزيولوجية أيضاً، مثل اللقاء في مكان عالي معزول أو في مكان مظلم أو في طريق سفر أو في حالات التقارب الجسدي والوجداني أثناء أزمة ما أو في احتفال ما.

وفي جميع الأحوال، وبسبب خصوصية البناء العصبي البشري الباحث عن التوازن بكل الوسائل الكيميائية والمعرفية المتاحة، تقوم المناطق العليا في القشرة الدماغية بتفسير هذا الانفعال (أي الاستثارة الفزيولوجية) معرفياً وإعطائه صفة نوعية محددة. وتقوم بهذا التفسير الآليات الدفاعية (الستراتيجيات المعرفية) الباحثة عن خفض القلق ومعادلة الانفعال وتحقيق التوازن. فيقوم الشاب عندئذ، وفي اللحظة الأولى من الانفعال الأول بـ" ((إسقاط)) لا شعوري لأمنياته ومواصفاته المستمدة من خصائصه الشخصية ومن دوافعه ومخزونه المعرفي على تلك الفتاة ليراها بالمنظار الذي يفضله بصرف النظر عن حقيقتها. وقد يجد فيها فرصة لممارسة ((تعويض)) لا شعوري عن جوانب النقص والإخفاق العاطفي أو النفسي أو الفكري في حياته. وربما يمد هويته إليها، أي ((يتقمصها)) ليرى نفسه المنشودة فيها. ولا يستبعد أن ((يتسامى)) بها، أي يحول طاقته الجنسية المكبوتة إلى نموذج

مثالي للحب الروحي، أو أن يعدّها موضوعاً مشبِعاً لـــ"((أحــلام يقظتــه)) يخفف به حرمانه واغترابه.

وفي حالة تحقق عمل هذه الآليات المفسرة للانفعــال منفــردة أو مجتمعــة، يتوصل الشاب لا شعورياً خلال لحظات إلى انه على الدرب نحو الحب، إنْ لم يشعر به حقاً. وإذا تكرر اللقاء وتجاوبت الفتاة، وحصل اتــصال حــسي ونفسي وفكري بين الشريكين، وتبين لكل منهما شعورياً أو لا شعورياً انه قد مارس الإسقاط أو التعويض أو التقمص أو أحلام اليقظة أو التــسامي علــى الشخص المناسب الملبي حقاً لدوافعــه وخبراتــه وخصائــصه الشخــصية ومخزونه المعرفي، واستمر ارتباط انفعالاتهما إيجابيــاً بمواقــف مــشتركة متنوعة كثيرة، حينذاك ينمو الانفعال الأول للحب ويصير عاطفة بالتدريج.

أما إذا كانا قد مارسا آليات دفاعية واهمة، وان الأمر لم يتعد حدود التعلــق السطحي بالمظهر الخارجي للآخر فقط، عندها سترتبط الانفعــالات ســلبياً بالمواقف المشتركة بينهما، فلا تنمو إلى عاطفة ناضجة، بل قد تتحول إلــى نوع من التعلق النفسي أو الجنسي المرضي (بسبب التشبث اللاشعوري بوهم الحب)، أو إلى كراهية لا يجدان لها تفسيراً (لأن كليهما صار مصدراً لألــم الآخر بعد أن تكشفت "مساوئهما" أمام بعضهما على المــستوى اللاشــعوري وحتى الشعوري أحياناً)، أو إلى قطيعة ونسيان هادئين، وهذه هــي أنــضج درجات التفسير المعرفي للانفعالات.

بإيجاز نؤكد: لا حب رومانسي متحقق دون انفعال فزيولوجي (مــن نــوعٍ ودرجةٍ ما) يسبقه ويرافقه دوماً. غير أن هذا الانفعال الفزيولوجي لا يتحول الى مضمون نفسي يفسره الفرد على أنه حب، الا عنــد مــروره المــستمر والمتكرر – ابتداءً من اللحظة الأولى لأول انفعال – خلال مرشح Filter

الآلية الدفاعية اللاشعورية، الأمر الذي يؤدي إلى تكرار ارتباط هذه الانفعالات المفسرة معرفياً (على أنها ميل وهوى نحو الشريك) بمواقف مشتركة معه، وبالتالي تنتج عاطفة الحب (كما مبين في "شبكة الحب الرومانسي" – الشكل ٢).

إن هذه الشبكة النفسية تعمل دون توقف في كل لحظة، كي يفسّر الفرد مشاعره دوماً بأنها حب. وهذا الحب بدوره ينتظم أو يتذبذب صعوداً وهبوطاً حسب نوع ودرجة تأثير كل عنصر من عناصر الشبكة على كليّة الموقف.

نلاحظ أن للحب الرومانسي منطقته المستقلة والمنعزلة نسبياً عن تفريعات وعناصر هذه الشبكة. فهو لا يتصل بهذه العناصر بصورة مباشرة رغم انه يتأثر فيها جميعاً في نهاية الأمر. ولكي يتحقق هذا الحب فهناك شرط واحد أو طريق واحد لذلك، هو مرور الانفعال من مرشح الآليات الدفاعية، ليؤثر (أي الحب الناتج) بدوره لاحقاً في الجوانب المعرفية للفرد. وبذلك تعتمد درجة الحب المتحققة في كل لحظة على نوع ودرجة الانفعال المتحقق تحت تأثير كل عناصر الشبكة، وعلى نوع ومضمون الآليات الدفاعية الواقعة ايضاً تحت تأثير كل عناصر الشبكة، في وحدة جدلية دينامية لا تنفصم.



بعد أن حددنا استنتاجاتنا، لابدّ أن نتساءل الآن باحثين عن تفسير:

((كيف لم تؤثر التباينات والتغايرات الحضارية عبر هذه العصور في المضمون النفسي للحب، فظلّ رومانسياً بعناصره الثمانية المكونة له!؟)).

إن هذه العناصر الثمانية للحب، ليست عناصر نهائية ثابتة تنطبق بالضرورة على الحب المستقبلي أيضاً؛ بل هي نتاج لتأريخ مضى من حياة الحـضارة. فالطبيعة البشرية Human Nature الماضـية والحاليـة ذات الخـصائص الرومانسية في التعامل مع موضوعة الحب هي نتاج لتلاقح الدوافع الناشـئة عن الحاجات الفزيولوجية الهورمونية الطبيعية اللاعقلانية بالدوافع الناشـئة عن الحاجات النفسية الاجتماعية العقلانية المتنامية. إلا أن درجة العقلانيـة في هذه الحاجات النفسية الاجتماعية خضعت للمناخ الحضاري العام الذي ما يزال يتسم بالقلق والعنف والهيمنة غير المبررة عقلياً للاقلية المالكـة علـى مصير الاكثرية الفاقدة. وبذلك فإن الجزء الاكبر من كل عنصر انفعـالي أو سلوكي من عناصر الحب الرومانسي الثمانية هو في جوهره ممارسة لآليات دفاعية لا شعورية بالمنظور الاجتمـاعي الواسـع لا بـالمنظور الجنـسي الفرويدي، ضد عنف الخارج وتهديده الدائم لحاجات الانسان الاساسية فـي البقاء والأمن. وهي (أي العناصر الثمانية) ليست خيارات شعورية إرادية واعية بذاتها الا في جزئها الأقل الذي قد يتضمن في أحشائه بذور طبيعـة بشرية مستقبلية أسمى، ترى في الحب غاية عقليةً جمالية عليـا لا اجـراءً وقائياً ضد عدوانية غامضة ما تزال تحيط بالانسان.

وهذه الآليات الدفاعية، هي في التقويم النهائي إجـراء عقلانـي مـشروع لتحقيق التوازن النفسي للفرد وسط عالم مضطرب محبط يفتقر الى التوازن . فاذا كان الحب الرومانسي هو وسيلة من وسائل الانـسان لتحقيـق ذلـك التوازن النفسي أمام صراعات المصالح وما ينبثق عنها من دوافع عـصابية للأفراد والجماعات والمؤسسات، فذلك برهان اولي أن للمادة الحية الواعيـة

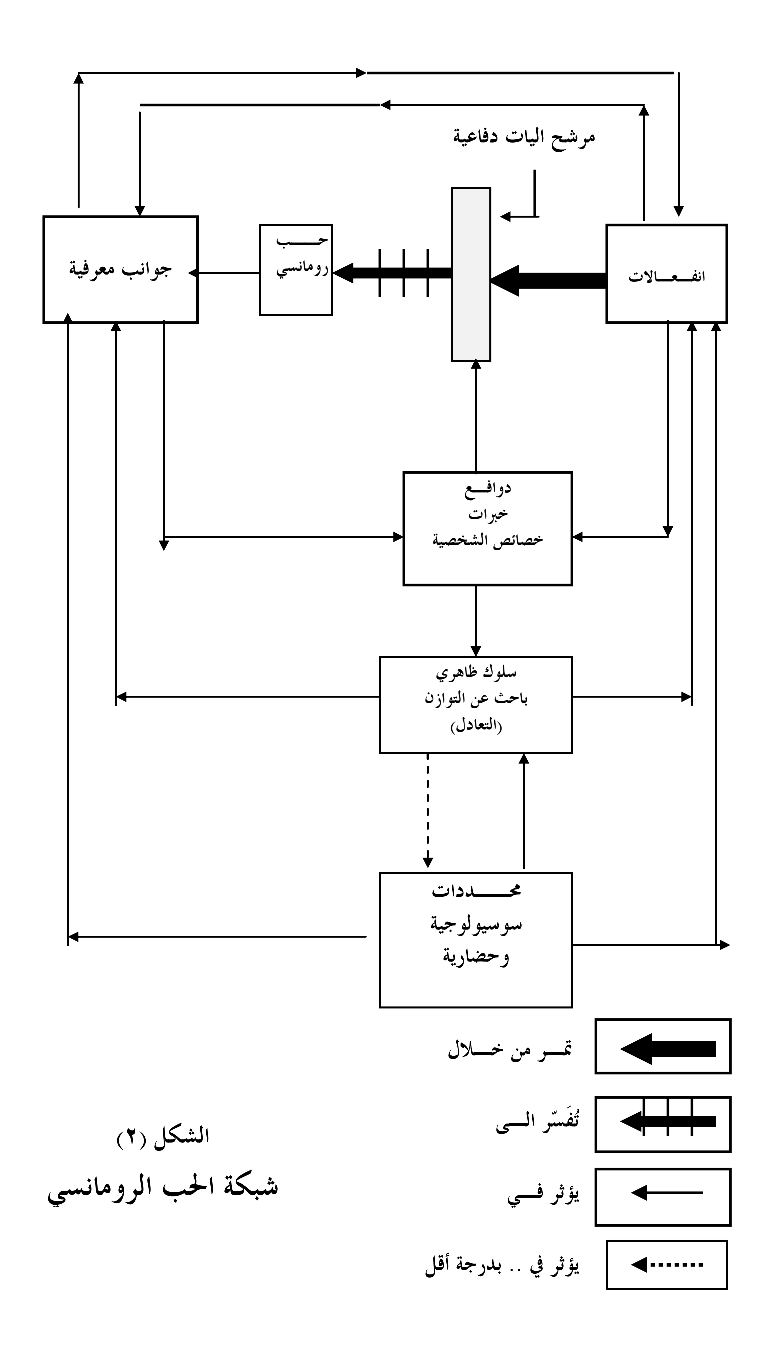
ستراتيجيات عاطفية ايجابية تجعلنا ننظر بتفاؤل حذر الى مستقبل الانسان وسعادته المنشودة على هذا الكوكب.

إذن، فالسمة الرئيسة للحب الرومانسي هي "القلق" Anxiety ، بل هو (أي الحب الرومانسي) رد فعل وقائي لاشعوري (بجزئه الاكبر وليس كلياً) تجاه الاضطراب الحضاري العام. وهذا القلق ليس موقفاً حتمياً يميز عزلة الانسان الأبدية أمام تهديد الآخرين لحريته كما يرى الوجوديون. وهو ليس قلقاً جنسياً ليبيدياً ناتجاً عن الكبت اللاشعوري كما يرى "فرويد" الا في جزئه الاقل. إنه في الواقع قلق موضوعي (وإنْ كان لاشعورياً) ناتج عن نمط العلاقات الاجتماعية السائدة. وهو ليس حتمياً بالضرورة لا في ماضيه ولا في مستقبله. انه كما تقول "كارين هورني" :((شعور بالوحدة والعجز، ينمو بشكل خفي ويتزايد وينتشر في عالم عدائي. فيكون أساس كل العلاقات التي يكونها الفرد أو سيكونها مع الافراد الآخرين)) (صالح (ب) ،١٩٨٨،ص١١٥). وبالتالي فأن الحب الرومانسي المنبثق عنه هو في النهاية اجراء سلمي دفاعي يؤكد ما ذهبنا اليه عن قدرة المادة الحية الواعية على ابتكار ستراتيجيات عاطفية عميقة لمناورة الضغوط العدوانية للحضارة.

إن التعدد اللانهائي لاحتمالات تطور المادة الحية عبر انتخاباتها الطبيعية البيولوجية المتفاعلة جدلياً مع انتخاباتها الاجتماعية العقلية، يجعلنا نتريث طويلاً أمام قبول فكرة وجود طبيعة بشرية محددة سلفاً أو ظاهرة نفسية ثابتة على الدوام. فالتطور التكنولوجي المتعاظم (خصوصاً في الطب والهندسة الوراثية) مرشح للتعامل بكيفية جديدة الى حد كبير مع حاجاتنا الفزيولوجية التقليدية (الغذاء، والماء، والهواء، والجنس)، وماسيتمخض عنه ذلك من

صراعات اجتماعية من نمط جديد، تفضي بالضرورة الى طبيعة بشرية جديدة ذات حاجات وغايات فريدة. وهذا بدوره يؤدي بإنسان المستقبل الى امتلاك خصائص انفعالية وسلوكية اخرى للحب، تقوده الى اشتقاق مصطلح جديد له، يرثُ رومانسية آلاف السنين الخوالي.

لو طالعنا الشكل (٢) ثانية، لوجدنا ان العنصرين الجوهريين في هذه الشبكة هما: "دوافع وخبرات وخصائص الشخصية لدى الفرد" ، و "المحددات السوسيولوجية والحضارية". إن تحليلهما والتحكّم النسبي بهما مستقبلاً، يعني امكانية التنبؤ والتحكم النسبي بانفعالات الفرد وبستراتيجياته المعرفية في تفسير تلك الانفعالات. وهذا يعني السيطرة النسبية على نوعية عناصر الحب المنشود: حب بلا قلق، بلا ألم، بلا حرمان، بلا استحواذ. وذلك يعني إن "ادريناليناً " عقلياً جديداً قد يسري في عروق إنسان المستقبل!



الشكل (٢)

شبكة الحب الرومانسي

هوامش

(١) **الستراتجيات المعرفية** : تسمى غالباً بآليات (ميكانزمات) الدفاع النفسي Defense Mechanisms ، وتعرّف بأنها ((ستراتيجية من التحريف للواقع تتخذ بشكل لاشعوري لحماية الانا من القلق)) (صالح (ج) ،١٩٨٨،ص٢٨٠). وأول من ادخل مفهوم "آليات الدفاع" هو "سيجموند فرويد" الذي يرى ((ان الناس يلجئون لحماية انفسهم بأن يستخدموا أساليب عقلية لاشعورية لتشويه وتزييف الافكار والخبرات والدوافع والصراعات التي تمثل تهديداً لهم)) (دافيدوف ،١٩٨٣،ص٦٢٥). ومن هذه الاليات: "العدوان" Aggression ، و"الاسقاط" Projection ، و"الانسحاب" Withdrawal ، و"النكوص" Regression، و"التبرير" Rationalization، و"التقمص" Identification ، و"التسامي" Sublimation ، و"احلام اليقظة" Day Dreams ، و"التعويض" Compensation ، و"التكوين الضدي" Reaction-Formation. ومايهمنا في ظاهرة الحب الرومانسي هو الاليات الخمسة الآتية التي نرى أنها الاكثر شيوعاً واستخداماً في علاقات الحب :

- **الاسقاط:** تفسير الاوضاع والمواقف والاحداث بتسليط خبراتنا ومشاعرنا عليها والنظر اليها من خلال عملية انعكاس لما يدور في نفوسنا (رزوق ،١٩٧٧،ص٤١).
- **التعويض:** حيلة دفاعية يلجأ اليها الفرد ليغطي ضعفاً او نقصاً، بأن يغالي في اظهار سمة اقل نقصاً أو اكثر جاذبية أو بأن يغالي في النشاط ليغطي عجزاً (الحفني (أ) ،١٩٧٨،ص١٥٢).
- التقمص: حيلة دفاعية يلجأ اليها الفرد ليزيد بها من قدر نفسه، بأن يمد هويته الى شخص اخر أو يقترض هويته من شخص آخر، أو يخلط هويته بهوية شخص اخر (الحفني (أ) ،١٩٧٨،ص١٧٨).
- **احلام اليقظة** : كالأحلام، تحقق رغبات وتنهض على ذكريات وانطباعات لتجارب في الطفولة. وهي تمنح الاشباع وتعوض عن الحرمان أو الفشل الذي يصيب المرء من البيئة الخارجية (الحفني (أ) ،١٩٧٨،ص١٩٣).

• **التسامي** : تلك العملية التي يتم بها تحويل طاقة الميول المكبوتة واستنفاذها في ميادين أخرى من ميادين النشاط والانتاج التي تقرها الاوضـــاع الاجتماعيـــة والتقاليـــد (رزوق ،١٩٧٧،ص١٤٤).

(٢) وضعنا "**الهوى**" على رأس قائمة العناصر بوصفه القطب النفـسي الـرئيس الـذي تتجمع حوله العناصر الانفعالية والسلوكية الأخرى، التزاماً بالأصل الفقهي لهذه المفردة : "الهوى" (حسب معجم المنجد) مصدر هَوِيَ، وتعني ((الإرادة وميلانها إلى مــا تــستلذ)) (البستاني، ١٩٨٧، ص ٨٩٢). ويفصّل الإمام اللغوي "أبي منصور عبد الملك بن محمــد الثعالبي" في كتابه "فقه اللغة وسر العربية" إحدى عشرة مرتبة متسلسلة للحب، في غايــة الدقة والشمول، فيكتب: ((أولى مراتب الحب الهوى . ثم العلاقة وهي الحب اللازم للقلب. ثم الكلف وهو شدة الحب. ثم العشق وهو اسم لما فصل عن المقدار الذي اسمه الحب. ثــم الشعف وهو إحراق الحب القلب مع لذة يجدها.. ثم الشغف وهو أن يبلغ الحــب شــغاف القلب.. ثم الجوى وهو الهوى الباطن. ثم التيم وهو أن يستعبده الحب.. ومنه رجل متــيّم. ثم التبل، وهو أن يسقمه الهوى. ومنه رجل متبول. ثم التدليه وهو ذهاب العقل من الهوى ومنه رجل مدله. ثم الهيوم وهو أن يذهب على وجه لغلبة الهــوى عليــه ومنــه رجــل هائم))(الثعالبي، ١٩٥٩، ص ٢٦٧، ٢٦٨).

وقد تبنينا في هذه الدراسة ما جاء في المصدرين أعلاه، وحددنا أن "الهــوى" بــدءاً هــو: ((نزوع الإرادة وميلانها نحو اللذة في إطار موضوع محدد (وهو هنا المحبوب)، وهو في الوقت ذاته أولى مراتب الحب المتسلسلة والمتراكمة على بعضها تصاعدياً)). فإذا ما توفر "الهوى" مبدئياً (بوصفه أولى درجات الحب)، ثم تفاعل مع العناصر الرومانــسية الــسبعة المتبقية بهذه الدرجة أو تلك لكل عنصر، عند ذاك ستتحدد المرتبة النهائية لذلك الحــب : أهو علاقة أم كلف أم عشق أم شعف أم شغف أم جوى أم تيم أم تبل أم تدليه أم هيوم ؟ إن كل مرتبة من هذه المراتب هي درجة من درجات الحب الرومانسي، يعتمد تحققها علــى المحصلة الجدلية الناتجة عن تفاعل العناصر الثمانية، بوجود شرط أســاس هــو التــوفر المبدئي لأولى مراتب الحب : "الهوى".

(٣) يرى "جان بياجيه" Jean Piaget(١٨٩٦-١٩٨٠)م ان الإفعال المعرفية للانــسان هي تكيف وتنظيم للعالم المدرَك. وهذا التكيف هو أرقى اشكال التنظيم البايولوجي للمــادة الحية. ويرى أن الانسان يحقق المعرفة بالاشياء عن طريق التوازن بين عمليتي "التمثــل"

Assimilation ، و "المواءمة" Accommodation . فعندما يتعرض الفرد لمثير مـــا (او انفعال ما) فإما أن يتمثل هذا الانفعال في مفهوم عقلي (مخطط) موجود ســـلفاً، أو أن يحور أحد المفاهيم أو يخلق مفهوماً جديداً ليتمثل هذا الانفعال ، فتحصل حالة التـــوازن ؛ أي لابد من التفسير المعرفي كي يحصل التوازن.

خـــــاتمـــة

وبعد كل هذا نتساءل: أما كان الحب الرومانسي في كل عـــصوره بحثاً فردياً عن السعادة، عن انتظام العمليات الفزيولوجية والنفسية والعقليـــة للفرد في بؤرة واحدة إسمها "التناغم"، وإنْ كان هذا التناغم مؤقتاً او مجتزءاً او مطارداً او ضائعاً فاشلاً في احيان كثيرة بتـــأثير الانـــساق الاجتماعيـــة والحضارية المحيطة به؟

لقد مثلت هذه العلاقة بين الجنسين الوحيدين على الارض نوعاً من حلٍ بشري خالص لمشكلة الوجود المستعصية بشقيها الكوني والاجتمـــاعي، سما بها الانسان على الطبيعة غير العاقلة وعلـــى الـــضغوط الاجتماعيـــة والحضارية غير العقلانية، فظلّ الحب الرومانسي نوعاً من تكثيف الوجـــود الفيزيقي الحي للفرد بمواجهة احتمالات اللاوجـــود، أي المـــوت والغيـــاب والفقدان الأبدي لفرصة الحياة. فهل نخطيء كثيراً اذا ما تصورنا أن إنـــساناً بلا حب يشبه كوناً بلا انسان؟ وهل نبالغ اذا ماقلنا ان ثمة سعادة خفية مـــن نوع ما وبدرجة ما في كل حب رومانسي، حتى اذا انطوى هذا الحب علـــى ألمٍ واخفاقٍ واندثار؟!

نريد هذه السعادة، مهما بدت منيعةً او مغموسةً بالألم، لأنهـــا أرق عزاءٍ لنا في هذه المتاهة!

تكتب الشاعرة البولونية "فيسلافا زيمبورسكا" (زيمبورسكا (فـــي) ،حـــافظ ،١٩٩٢،ص٣٠٠):

((دع الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن الحب السعيد
هم الذين يؤكدون أن ليس من حب سعيد في أي مكان
إنهم بمثل هذا الايمان
يجدون الحياة والموت أسهل !)) .

المراجع

المراجع العربية

- ابراهيم، زكريا (١٩٨٤). ***مشكلة الحب***. القاهرة: مكتبة مصر.
- أحمد، قيس هادي (١٩٨٥). الحرية عند جان بول سارتر. ***مجلة آفاق عربية*** – الفلسفة والثقافة (٢) ، مايس. بغداد: دار آفاق عربية.
- أخماتوفا، آنا (١٩٩٢). ***قصائد مختارة*** . ترجمة حسب الشيخ جعفر. بغداد: دار المأمون.
- أنجلز، ف. (١٩٧٠) أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة. (في) ماركس وأنجلز. ***مختارات***. موسكو: دار التقدم.
- ايلوار، بول (١٩٨٤). ***(٥٠) قصيدة حب***. ترجمة عصام محفوظ. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- بدوي، أحمد زكي (١٩٨٢). ***معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية***. بيروت: مكتبة لبنان.
- بدوي، عبد الرحمن (١٩٨٣). ***الزمان الوجودي***. بيروت: ، دار الثقافة.
- البستاني، فؤاد فرام (١٩٨٧). ***منجد الطلاب***. بيروت: دار المشرق.
- تورغينيف، ايفان (١٩٨٥). ***رودين*** . ترجمة حياة شرارة. بغداد: مكتبة اليقظة العربية.
- الثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد (١٩٥٩) ***فقه اللغة وسر العربية***. القاهرة: مطبعة الاستقامة.
- جاتسون، فرانسيس (١٩٦٧). ***سيمون دوبوفوار أو مشروع الحياة***. ترجمة أدوار الخراط. بيروت: دار الآداب.

- جورارد، سيدني م.، و لندزمن، تيد (١٩٨٨). ***الشخصية السليمة***. ترجمة حمد دلي الكربولي و موفق الحمداني. جامعة بغداد: كلية الاداب.
- جيته، يوهان. ***آلام فارتر*** . ترجمة أحمد حسن الزيات. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الحفني، عبد المنعم (أ) (١٩٧٨). ***موسوعة علم النفس والتحليل النفسي***.القاهرة: مكتبة مدبولي.
- الحفني، عبد المنعم (ب) ***الموسوعة الفلسفية*** . بيروت: دار ابن زيدون.
- الحفني، عبد المنعم (ج) (١٩٩٥) ***الموسوعة النفسية – علم النفس في حياتنا اليومية*** . القاهرة: مكتبة مدبولي.
- دافيدوف، لندا (١٩٨٣).***مدخل علم النفس*** . الرياض: دار ماكجروهيل.
- دوبون، فرانسواز (١٩٧٣). حدود التصور الماركسي عن مشكلة المرأة. (في) لينين وآخرون. ***المرأة والاشتراكية*** . ترجمة جورج طرابشي. بيروت: دار الآداب.
- دوستويفسكي، فيودور (١٩٨٥). ***الجريمة والعقاب*** . ترجمة سامي الدروبي. بيروت: دار ابن رشد.
- رايش، رايموت (١٩٧١). ***الجنس وصراع الطبقات*** . ترجمة محمد عيتاني. بيروت: دار الآداب.
- رزوق، أسعد (١٩٧٧). ***موسوعة علم النفس*** . بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- روبنسون، بول (١٩٧٤). ***اليسار الفرويدي*** . ترجمة لطفي فطيم وشوقي جلال. بيروت: دار الطليعة.
- روزنتال، م. ؛ و يودين، ب. (١٩٨٥). ***الموسوعة الفلسفية***. ترجمة سمير كرم. بيروت: دار الطليعة.

- ريازانوف، دافيد (١٩٧٣). الشيوعية والزواج. (في) لينين وآخرون. ***المرأة والاشتراكية***. ترجمة جورج طرابشي. بيروت: دار الاداب.
- زيمبورسكا، فيسلافا (١٩٩٢). (في) ياسين طه حافظ. ***القمم العالية***. بغداد:، دار المأمون.
- سارتر، جان بول (أ) (١٩٦٧) ***معنى الوجودية***. بيروت: مكتبة الحياة.
- سارتر، جان بول (ب) (١٩٨٠). ***المادية والثورة***. بيروت: مكتبة الحياة.
- السعداوي، نوال (١٩٧٧). ***المرأة والجنس*** . القاهرة: مكتبة مدبولي.
- سيفرت، ياروسلاف (١٩٩٢). (في) ياسين طه حافظ. ***القمم العالية*** . بغداد: دار المأمون.
- شكسبير، وليم (١٩٨٦). ***السونيتات***. ترجمة جبرا ابراهيم جبرا. بغداد: مكتبة الشرق الاوسط.
- صالح، قاسم حسين (أ) (١٩٨٧). ***الانسان من هو*** . بغداد: دار الحكمة – جامعة بغداد.
- صالح، قاسم حسين (ب) (١٩٨٨). ***الشخصية بين التنظير والقياس***. جامعة بغداد: مطبعة التعليم العالي.
- صالح، قاسم حسين (ج) (١٩٨٨). ***الابداع في الفن*** . جامعة الموصل: دار الكتب.
- العظم، صادق جلال (١٩٦٨). ***في الحب والحب العذري*** . بيروت: منشورات نزار قباني.
- فرنسيس، يوسف. ***رحلات الحب والجنون وراء بايرون وبيكاسو وشوبان وفان جوخ***. بيروت: دار الوطن العربي .
- فروم، إريك (أ) (١٩٧٢). ***الخوف من الحرية*** . ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- فروم، إريك (ب) (١٩٧٣). ***ثورة الامل*** . ترجمة ذوقان قرقوط. بيـــروت: دار الآداب.
- فروم، إريك (ج) (١٩٨١) . ***فن الحب*** . ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهــد. بيروت: دار العودة.
- فروم، إريك (د) (١٩٨٩). ***الانسان بين الجوهر والمظهر***. ترجمـــة ســعد زهران. الكويت: سلسلة عالم المعرفة.
- فرويد، سيجموند (١٩٧٦). ***مافوق مبدأ اللذة*** . ترجمة عبد المنعم الخفـــي. القاهرة: مكتبة مدبولي.
- فريفيل، جان (١٩٧٣). الاشتراكية والمرأة. (في) لينين وآخـــرون. ***المـــرأة والاشتراكية***. ترجمة جورج طرابشي. بيروت: دار الآداب.
- لوكسمبورغ، روزا. ***رسائل حب*** . ترجمة نهلة الشال. بيـــروت:، دار ابـــن خلدون.
- ماركيز، غابريل غارسيا (أ) (١٩٨٦). ***الحب في زمن الكـــوليرا***. ترجمـــة صالح علماني. عمّان: دار منارات.
- ماركيز، غابريل غارسيا (ب) (١٩٨٩). ***رائحة الجوافة*** . ترجمة فكري بكر محمود. عمّان: دار منارات.
- ملاهي، باتريك (١٩٦٢). ***عقدة اوديب*** . ترجمة جميل سعيد. بيروت: مكتبة المعارف.
- الموسوي، محسن جاسم (١٩٧٢). ***كشف المضامين البرجوازية في الشعر*** . بغداد: مطبعة دار السلام.
- هلال، محمد غنيمي (١٩٨٦). ***الرومانتيكية*** . بيروت:دار العودة.
- هول، كالفن ؛ و لندزي، جاردنر (١٩٧١). ***نظريات الشخصية***. ترجمة أحمد فرج وآخرون. القاهرة: الهيئة المصرية للتأليف والنشر.

المراجع الأجنبية:

- Beauvoire, Simone De (1976). ***The Second Sex***. Penguin Books.
- Benda, C. E. (1961). ***The Image of Love.*** New York: The free press of glencoc, Inc.
- Bourne, L. E. & Ekstrand, B. R. (1976): ***Psychology: Its Principles and Meanings***. New York: Holt, Rinehart and Winston.
- Brown, R. (1965). ***Social Behavior_***. New York: The free press.
- Brown, J.A.C. (1977). ***Freud and the Post-Freudians***. Penguin Books.
- Davenport, D. et al. (1992). ***Measuring Perceptions of Romantic Love from Three Theoretical Perspectives: Implications for Counseling.*** Paper presented at the Annual convention of the American Association for Counseling and Development, March, Baltimore.
- Driscoll, R. & Davis, K.E. & Lipetz, M.E. (1972). Parental Interference and Romantic Love : The Romeo & Juliet Effect. ***Journal of Personality and social psychology***, vol 24, No 1, pp. 1-10.
- Engels, F. (1954). ***Dealectics of Nature***. Moscow: Foreign Languages Publishing House.
- Fowler, H.W. & Fowler, F.G. (1975). ***The Concise Oxford Dictionary***. Oxford University.
- Fromme, A. (1960). ***The Ability to Love.*** London: George, Allen & Unwin Ltd.
- Gleitman , H. (1995). ***Psychology.*** New York: W.W.Norton & Company.
- Harlow, F. H. & McGaugh, J. L. & Thompsom, R. F. (1971) ***Psychology.*** San Francisco: Albion Publishing Company.

- Kagan, J. & and Haveman, E. (1972). ***Psychology : An Introduction***. New York: Harcourt Brace Jovanovich, Inc.
- Kemper, T. D. (1978). ***A Social Interaction Theory of Emotions.*** New York : John Wiley & sons.
- Marston, P. J., et al. (1986) ***What is this Thing Called Love? The Subjective Experience and Communication Of Romantic Love***. Arizona.
- Marx, Karl . ***Economic and Philosophic Manuscripts of 1844***. Moscow: Foreign Languages Publishing House.
- Myers, G. (1996). ***Social Psychology***. New York: The McGraw-Hill Companies.
- Roden, M. R. et al. (1985***). Love and Romance over the life cycle.*** Paper presented at the Annual Scientific Meeting of the Gerontological society, New Orleans.
- Rotter, J.B. (1966). Generalized Expectancies for Internal Versus External Control Reinforcement. ***Psychological Monographs: General and Applied***, 80 (1), 1-28.
- Rubin, Z. (1970). Measurement of Romantic Love***. Journal of Personality & Social psychology***, vol 16 , No 2, pp. 265-273.
- Schunk , D. (1991). ***Learning Theories: An Educational Perspective***. New York: Macmillan Publishing Company.
- Shaver, P. (1986). ***Being Lonely, Falling in love, perspectives from Attachment Theory.*** Colorado.
- Shipley, T. T. (1955***). Dictionary of World Terms***. London: George Allen and Unwin ltd.
- Storr, A. (1977***). The Integrity of The Personality***. Penguin Books.
- Thorne, J. O.(1961). ***Chamber's Biographical Dictionary***. London: W and R chambers, Ltd.
- Warren, J. D. (1982***). Romantic Love : A special Case of Social competence.*** Paper presented at the Annual

convention of the South Western Psychological Association , Dallas.

- Wood, J. (1974). ***How do you feel ? A guide to your Emotions***. New Jersey: Englewood cliffs.
- Wulff, D. M. (1997**)**. ***Psychology of Religion: Classic & Contemporary*****.** New York : John Wiley & Sons, Inc.

هذا الكتاب:

يتضمن هذا الكتاب مساحة فكرية واسعة، تمتد من زمن الفكر اليوناني والأوربي القروسطي إلى زماننا هـذا. إنـه دراسـة جـادة و"طريفة" في علم نفس الإنسان الفرد، تناولت الكـشف عـن تفاعـل عواطف الانسان الذاتية والموضوعية في سلوك فردي هـو "الحـب الرومانسي" بين الرجل والمرأة.

الكتاب بحث "علمي – فلسفي" أصيل، اعتمد المنهج والأسلوب العلميين في دراسة تفاعل عناصر شخصية الإنسان (الأنثى والـذكر) ضمن الوجود الحضاري (تأريخياً) والاجتماعي (واقعيـاً) والفـردي (سلوكياً)، مستعيناً بما توصلت إليه البحوث الفلسفية من حقـائق منـذ أيامها الأولى، حتى البحوث العلمية والنفسية الحديثة والمعاصرة.

الكتاب بادرة ريادية في "اللغة العربية" في مجالي "علم النفس الفردي والاجتماعي"، وربما في مجال "الانثروبولوجيا" فـي بعـض مضامينه. إنه كتاب جدير بالقراءة.

د. عبد الله مهدي الخطيب



سيرة ذاتية للمؤلف

- **فارس كمال عمر نظمي**
- **ولد في بغداد ١٩٦٢**
- **أستاذ جامعي عراقي**
- **كاتب وباحث في علم النفس الاجتماعي وعلم نفس الشخصية .**
- الأختصاص الدقيق : سيكولوجية : العـــدالة / الحب / الأدب / العـــنف / السياسة / الاتجاهات و القيم / السلوك الجمعي .
- **<u>الشهادات العلمية :</u>**

– **بكالوريوس هندسة مدنية** / جامعة بغداد – كلية الهندسة ١٩٨٤م

– **بكالوريوس آداب في علم النفس** / جامعة بغداد– كلية الآداب ١٩٩٩م (امتياز مع مرتبة الشرف)

– **ماجستير آداب في علم النفس** / جامعة بغداد– كلية الآداب ٢٠٠١م (امتياز)

- عضو مؤسس للجمعية النفسية العراقية
- عضو مؤسس لرابطة اساتذة جامعة بغداد
- عضو الجمعية العراقية للعلوم التربوية والنفسية
- عضو نقابة المهندسين العراقية

- الأعمال المنشورة: عشرات المقالات والدراسات والبحوث النفسية والاجتماعية والأدبية المنشورة في الصحف والمجلات ومواقع الانترنيت .
- البريد الألكتروني:

fariskonadhmi@hotmail.com
fariskonadhmi@yahoo.com